

الدكتور محمد بن عبود

جواب من الواقي الاندلسي

في القرن الخامس الهجري

تقديم : الاستاذ محمد المنوني

تحت اشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي



خطط وجه الكتاب : الاستاذ المنصور العلامي

جوانب من الواقع الأندلسي
في القرن الخامس الهجري

الدكتور محمد بن عبود

جوانب من الواقع الأندلسي
في القرن الخامس الهجري

تطوان 1408 هـ - 1987 م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

طبعة النور - شارع عبد الكريم الزطاب
دريا بوردان رقم 4 تطوان - المغرب

محتوى الكتاب

أ	محتوى الكتاب
د	شكر
هـ	تقديم الأستاذ محمد المتونى
1	القدمة

الفصل الاول

العصبية والعلاقات الاجتماعية في الأندلس

9	في عهد <u>دول الطوائف</u>
15	1) الترحيب الاجتماعي
20	2) العصبية والحاجة
26	3) العصبية والعمامة
38	4) العصبية والطبقة الوسطى
45	5) العصبية والعلاقات بين ملوك الطوائف
64	6) الخاتمة

الفصل الثاني

85 . . . الإنجازات الاقتصادية في الأندلس في عهد دول الطوائف

(1) الخصائص الاقتصادية الأساسية

91 . . . أ) اليد العاملة والثروات المادية

95 . . . ب) النشاط الزراعي

98 . . . ج) النشاط الصناعي

100 . . . د) النشاط التجاري

102 . . . (2) الإنحطاط الاقتصادي الداخلي

111 . . . (3) المشاكل النقدية

118 . . . (4) التبعية الخارجية أو عهد الجزية

130 . . . - الخاتمة

الفصل الثالث

الدور السياسي والاجتماعي للعلماء الأندلسيين

141 . . . في عهد دول الطوائف

152 . . . (1) الدور الثقافي والفكري

168 . . . (2) الدور السياسي للعلماء الأندلسيين

- 174 أ (المواقف السياسية الفردية للعلماء: بعض الأسئلة
- 175 - الفقيه الهوزني
- 176 - ابن الملح
- 177 - ابن المصيرة
- 179 - ابن عبد البر
- 181 ابن حزم
- 185 ب) الدور السياسي الجماعي

الفصل الرابع

- 215 التاريخ في الأندلس في عهد دول الطوائف
- 218 1) الميراث الثقافي والفكري الأندلسي
- 222 2) الشخصيات الثقافية البارزة في القرن الهجري الخامس
- 228 3) حرية التفكير والتعبير والانصاف الثقافي والابداع
- 233 4) التاريخ بصفته مادة متخصصة
- 244 5) مثال عبد الله بن بلقين الزيري

الفهرس

تصحيح الأخطاء المطبعية

شكر

إنني أدین بالشكر العميق لبعض الأصدقاء على مراجعتهم الموفية لمختلف فصول هذا الكتاب التي أنجزت أصلاً بالانجليزية ونشرت في شكل مقالات في مجلات تاريخية متخصصة (1). لقد وزعت هذه الفصول بعد قياسي بتعريفها على الأساتذة: إبراهيم الحطيم وخديجة حركات وعبد العزيز السواد وعبد السلام الشكريوي والعايشي حدوش، باستثناء الفصل الثاني الذي نقلته الاستاذة زبيدة بورجيل من الفرنسية إلى العربية ثم قمت بمراجعة تلك الترجمة انطلاقاً من الأصل الانجليزي مع تغيير الأسلوب حتى يتناسب مع الفصول الأخرى. ويمكن القول إنني أحببت اللغة العربية بفضل مثل هؤلاء الأصدقاء. فشكراً لهم جميعاً.

(1) فيما يلي إحالات المقالات المنشورة باللغات الأوربية :

- M'hammd Benaboud, Asabiyya and Social Relations in Al-Andalus during the Period of the Taifa States, Hispéris - Tamuda, vol. XIX. (1980 - 1981), pp 5 - 45
- M'hammad Benaboud, Tendances économiques dans Al-Andalus durant la période des Etats - Taifas, Bulletin Economique et Social du Maroc, n° 150-151, 1984, pp 171 - 81.
- M'hammad Benaboud, The Socio - Political Role of the Andalusian 'Ulamá' during the Period of the Taifa States, Islamic Studies, (Pakistan), vol. XXIII, n° 2, Summer - 1984, pp 103 - 41
- M'hammad Benaboud, El papel Social y político de los 'Ulamá' en al-Andalus durante el periodo de los Taifas, Cuadernos de Historia del Islam, n° 11, 1984, pp 1 - 46.
- M'hammad Benaboud, L'Historiographie d'Al-Andalus durant la période des Etats - Taifas, Revue l'Occident Musulman et de la Méditerranée, (Aix), 1985.
- M'hammad Benaboud, Historiography in Al-Andalus during The Period of the Taifa States, [Forthcoming], Hispéris - Tamuda (1986).

تقديم

العلامة الاستاذ محمد المنوني

بسم الله الرحمن الرحيم

يتصاعد اهتمام المغرب بمصير الأندلس إلى ما قبل منتصف القرن الخامس الهجري . ومن أول مرة كان تحرير الأندلس من العدوان الإسباني في طبيعة هموم المرابطين ، فيرسل ابن الأثير عنهم هذه القولة : «... ثم إن الصحرا ضاقت عليهم ، وأرادوا إظهار كلمة الحق ، والعبور إلى الأندلس ليجهدوا الكفار ، ، ويذكر نفس المصدر أبا بكر بن عمر لما خرج إلى السوس ، فيسجل خطابه لأهل المنطقة: «إفتحوا لنا الطريق لتجوزوا إلى الأندلس، ونجاهد أعداء الإسلام». ومن جهة أخرى ، كان للمغرب الفضل الجزيل في حفاظه على مجموعة من نراث الأندلس المكتوب في عهد ملوك الطوائف . ومن نماذج ذلك : ديوان ابن دراج ، وديوان ابن عمار ، وكتاب التبيان ، لعبد الله بن بلكين . ولما يذكر عبد الواحد المراكشي كتاب «المنظري» ، للامير ابن الانطس يعقبه قائلا : «وقفت على أكثره» . وتستمر هذه الاهتمامات - عبر العصور التالية - بشكل متقطع ، لتنتهي - بالمغرب - خلال القرن العشرين ، وفي أواخر السبعينات

تأخذ طريقها نحو التخصص ، فيلتحق باسم باحث شاب يتخصص في التاريخ الأندلسي (القرن الخامس الهجري)، حيث يؤلف الدكتور محمد ابن عبود «التاريخ السياسي والاجتماعي لاسبيلية في عهد دول الطوائف» ، ويكتبه بالانجليزية ليكون موضوع أطروحة الدكتوراه من إدنبرة ، ثم يعرجه فيفوز بجائزة المغرب لسنة 1988 .

ويتابع الأستاذ الدكتور نشاطه ، فيساهم بالأبحاث المهمة في عدد من المندقيات الدولية بأوربا وأمريكا والبلاد العربية وتركيا ، كما ينشر في مجلات تاريخية متخصصة : بالمغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية ، فضلا عن المجلات العربية .

ومن هذه الأبحاث تخير الأستاذ المنوه به ، أربع دراسات تتكامل مواضعها ، فترجمها إلى العربية وأصدرها بعنوان : « جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري » .

وقد جاءت هذه المجموعة - وهي تركز أكثر على التاريخ الاجتماعي - تمثل تأليفاً مرتباً تقريباً معقولا ، ومترابط الحلقات ، ويمتاز المؤلف - مع هذا - بالعمق في أبحاثه ، والحدة في منهجيته ، وبالأصالة في اختيار أوئسق المصادر الأندلسية ، وخصوصاً المعاصرة للحقبة المدروسة ، مع مقارنتها وتكميلها بالمراجع العربية والأجنبية المتعددة اللغات ، وبهذا فإن الكتاب يعتبر إضافة جديدة ومهمة ، لتعزز الدراسات عن عصر ملوك الطوائف ، فليهنأ الدكتور محمد ابن عبود بهذه المساهمة الطيبة ، وليهنأ البحث الأندلسي بظهور كتاب : « جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري » .

(محمد البنوني)

تقديرهم

الاستاذ المستشرق ولهم مؤلفوهربي واط

لقد درس تاريخ الاندلس في حين سقوط الدولة الاموية
في سنة 489 هـ / 1081 م . دراسة موسعة من طرف عدد من
الباحثين ومنى رأسهم إيفلست زيني بروفنمال. غير أنه بالنسبة
للفترة التي قلنا لم ينجز في المقاد الاخير إلا القليل من الدراسات
الملائمة . ومع ذلك ما زلنا نفتقر إلى دراسة شاملة تغطي مجموع
الفترة إلى غاية سقوط غرناطة . وزيادة على ذلك نلاحظ أن
فترة الخمسين أو الستين سنة التي تلت سقوط الأمويين إبان
حكم ملوك الطوائف للأندلس ، لم أصبحت من طرف المؤرخين
أكثر من إعمالهم غرناطة إلى عهد النصارى . وبموجب هذا دون
شك إلى تفيد بحجرات الاحداث خلال تلك السنين حينما كانت
السلطة دوزمة بين مراكز محلية متباينة . ولهذا يسرني بخلق
المرور أن أحدث وأوصي جمهور القراء المثورين على الاهتمام
بعلمه الدراسة . فهي قائمة على بحث مدقق بالمصادر التاريخية
الانسانية كما تقدم عرضاً جازماً . ويمكننا لوجه من فترة ملوك الطوائف
ومنصتون ذات قيمة علمية للمؤرخين المقبلين في معاولتهم
صياغة نظرة ترضائية شاملة لتلك الحقبة .

FOREWORD

The history of al-Andalus (Islamic Spain) up to the fall of the Umayyad dynasty in 422/1031 has been fairly fully studied by a number of scholars, and most notably by Évariste Lévi-Provençal. For the subsequent period, however, there have been hardly any adequate studies until the last decade, and there is still no comprehensive work covering the whole period to the fall of Granada. The fifty or sixty years after the fall of the Umayyads, when Islamic Spain was ruled by Mulūk-at-Tawā'if, has been even more neglected by historians than the Granada of the Nasrīds. This is doubtless due to the complexity of what was happening during these years when power was shared between many different local centres. I have therefore great pleasure in commending the present study to a scholarly audience. It is based on careful study of the sources and gives an authoritative account of one facet of the events of the period of Mulūk at-Tawā'if, and will be of great value to future historians attempting to frame a synthetic and comprehensive view of this period.

W. Montgomery Watt,
Edinburgh, 4th May, 1979.

جوانب من الواقع الأندلسي
في القرن الخامس الهجري

المقدمة

يتجلى الهدف الرئيسي من كتاب : « جوانب من الواقع
الاندلسي في القرن الخامس الهجري » ، في إبراز أهم عناصر التاريخ
الاجتماعي والاقتصادي الأندلسي خلال عصر ملوك الطوائف .

لسنا بحاجة للإشارة إلى ما يعانيه التاريخ الاجتماعي الأندلسي
من النقص ليس في المغرب فحسب ، حيث لا يزال الجيل الجديد
من المتخصصين الجاهلين في التاريخ الأندلسي يبذل محاولاته الأولى ،
بل وعلى المستوى العالمي . ويعود هذا النقص إلى عاملين أساسيين ،
أولهما : اعتناء المؤرخين المتخصصين في التاريخ الأندلسي بعصوره
المختلفة ، وعلى رأسها العصر الأموي ، على حساب عصر الطوائف ،
وثانيهما : التركيز على التاريخ السياسي ، على حساب التاريخ
الاجتماعي والاقتصادي . لا نريد هنا أن نتطرق لأسباب هذا الاتجاه ،

بل سوف نكتفي بالإشارة إلى كونه بدأ يتغير مؤخراً لما يلاحظ من اهتمام المؤرخين بعصر الطوائف وبالتاريخ الاجتماعي الأندلسي بالذات .

إن الواقع الأندلسي الذي نبحث عنه هو الواقع الاجتماعي بالدرجة الأولى ثم الاقتصادي الذي لا يقل أهمية لارتباطه بالمجتمع ؛ وهذا لا ينفي وجود العنصر السياسي وأهميته نظراً لكون الواقع التاريخي متعدد العناصر والأبعاد .

سوف نكتفي في هذا الكتاب بدراسة جوانب معينة من الواقع الأندلسي لسببين ، أولهما : وجود جوانب أخرى من هذا الواقع نرجو أن نتطرق لها نحن وغيرنا مستقبلاً ، وثانيهما : أننا نعتبر ما استخلصناه من استنتاجات معينة مسألة ظرفية قابلة للتطور والتغير ، يعني للرفض أو القبول أو التعديل ، مع تطور البحث في مجال التاريخ الاجتماعي في الأندلس . وأخيراً ، يعود حصراً للزمان في القرن الخامس الهجري ، أساساً ، إلى التحام جوانب مختلفة من الواقع الأندلسي خلال تلك الحقبة التاريخية .

يشمل هذا الكتاب أربعة فصول ، ألف كل فصل منها في الأصل مقالة نشرت في مجلات تاريخية متخصصة باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية . ونشرها لأول مرة بالعربية ضمن هذا الكتاب نظراً لتقاربها وللاتحام الذي يجمع بينها من حيث المواضيع التي عالجتها ونظراً لكونها تتطرق إلى جوانب مختلفة من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في الأندلس خلال نفس الحقبة التاريخية .

بعبارة أخرى ، تتطرق **كل** منها لجوانب مختلفة لنفس المجتمع .
وهناك تشابه بين تخطيط فصول الكتاب بحيث تنقسم جميعاً إلى قسم
عام يعالج الموضوع بطريقة شمولية يتبعه قسم خاص يتطرق إلى أمثلة
ملبوسة ومحددة تؤكد ما جاء في القسم الأول وتدعمه . مثلاً ، تطرقنا
في الفصل الثالث للدور السياسي والثقافي للعلماء الأندلسيين عامة
خلال القرن الخامس الهجري ثم عرضنا أمثلة ملبوسة في القسم الثاني
تعمكس التنوع في مواقف العلماء السياسية ثم تحولنا إلى موقف
سياسي موحد ضد ملوك الطوائف إثر ظهور يوسف بن تاشفين
بصفته بديلاً مقبولاً لديهم .

وفيما يخص طريقة التوثيق في فصول هذا الكتاب فقد اعتمدنا
أساساً على المصادر الأندلسية الأولية الأساسية ، خصوصاً المعاصرة
للحقبة التي نحن بصدددها ، لتدعيمها مع الإشارة إلى المراجع الثانوية
ليس بالعربية فحسب بل بالاسبانية والانجليزية والفرنسية حتى
يستطيع القاري أن يوسع إطلاعه في المواضيع التي تطرقنا لها .

إن المؤرخ ، أي مؤرخ كان ، لا بد أن يتأثر ببيئته اللغوية
والثقافية والحضارية ويتجاربها الشخصية في تفكيره وفي
تأريخه . وإنما لا ننفي مثل هذا التأثير في كتابنا هذا . إلا أننا
حاولنا أن ندرس جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الهجري
الخامس كما كان يفهمه الأندلسيون المعاصرون أنفسهم لأننا
وإن كنا نقول بضرورة انتقاد النصوص التاريخية وأصحابها فإننا
نعتبر نصوص ابن حبان وابن حزم وعبد الله بن بلقين وابن بسام

وغيرهم أعمق في التاريخ الأندلسي في عصر الطوائف من غيرها ، ذلك أننا لا نفهم الواقع الأندلسي خلال تلك الحقبة على الصورة الحالية إلا بفضل وجود تلك النصوص التاريخية الطريقة والتميز ، ومن حسن حظ المؤرخ المعتم بالنايخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للأندلس في تلك الحقبة أن المصادر الأولية الأساسية غنية جداً ، والمطبوع منها يحتوي على مادة تاريخية غزيرة كفيلا بأن تشغل الباحثين الذين يرضون في فهم الواقع الأندلسي خلال سنين عديدة. إننا نأمل ، بطبيعة الحال ، أن يمثل كتابنا هذا مساهمة جديدة في مجال التاريخ الاجتماعي الأندلسي ، مما دفعنا إلى نشره ، وربما يظهر هذا التجديد في العناصر التالية :

يهالج كل فصل من فصول الكتاب قضية في التاريخ الاجتماعي الأندلسي بطريقة تخالف ما كان سائداً لدى المهتمين بالدراسات الأندلسية . نظرنا للعصبية والعلاقات الاجتماعية في الفصل الأول فحاولنا أن نشب أن المجتمع الأندلسي لم يتميز بالعصبية في القرن الخامس للهجرة وأن هناك قوى اجتماعية واقتصادية أخرى كانت بارزة سوا في بنيتة الاجتماعية أو في إطار العلاقات بين دول الطوائف . كما لاحظنا غياب العصبية في إطار مواقف أبرز المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة التاريخية . ولا يمكن أن نناقش دور العصبية في المجتمع الأندلسي إلا بعد تحديد طبيعته . هناك تصورات متعددة للمجتمع الأندلسي مثل التصور القبلي والتصور الإقطاعي ، إلا أننا اعتبرناه

مجتمعا حضرياً بالدرجة الأولى في القرن العجبري الخامس ما يفسر
موقنا بالنسبة للعصبية .

وقمنا بدراسة الاتجاهات الاقتصادية في الأندلس في
الفصل الثاني . وحاوينا أن نتطرق لطبيعة العلاقات الاقتصادية بين
دول الطوائف والممالك المسيحية في شمال إسبانيا مركزين على
دور الجزية المالية التي كان يفرضها المسيحيون وعلى رأسهم الفونسو
السادس ملك كشتالة وليون على ملوك الطوائف وأدت سياسة الفونسو
فعلا إلى إضعاف ممالك الطوائف سياسياً وعسكرياً وإلى إفلاسهم
الاقتصادي . لقد تطرق بعض المؤرخين الإسبان المتخصصين في الممالك
المسيحية في شمال إسبانيا لهذه العلاقات الاقتصادية اعتماداً على
مصادر مسيحية وانطلاقاً من منظور الممالك المسيحية ، فحاوينا تطبيق
نفس النموذج على هذه العلاقات اعتماداً على مصادر أندلسية ومن
خلال منظور يركز على دول الطوائف بالدرجة الأولى .

أما الفصل الثالث ، فيتجلى الجديد فيه أساساً في كوننا حاولنا
أن نحدد الموقف السياسي للعلماء الأندلسيين من ملوك الطوائف
وتحوله من مواقف فردية متنوعة ومتعددة إلى موقف موحد معادي
لهم بعد أن أصبح الفونسو السادس يهدد ملوك الطوائف بإدماج
ممالكهم في مملكته وبعد ظهور يوسف بن تاشفين بصفته عنصراً
قادراً على قيادة الأندلسيين ضد المسيحيين وقادراً على توحيد
صفوفهم في إطار شرعي .

ويظهر الجديد في الفصل الخامس في تحليلنا لأبرز عناصر الظروف التاريخية التي مكنت التأريخ الأندلسي في القرن الخامس الهجري الذي كان يتسم أساساً بالتنوع وبالابتداع من اتخاذه اتجاهاً جديداً قاده إلى أوجه . ونظرقنا لمثال عبد الله بن بلقين - ورخاً لنبيرز أهم العناصر التي ميزت كتابته التاريخية مثل العهد الذاتي والشخصي والذي يظهر مثلاً في نقله للحوار المباشر الذي كان يدور بينه وبين رسل أبرز الشخصيات التاريخية المعاصرة له مثل الفونسو السادس ويوسف بن تاشفين والبعثيد بن عباد .

لقد لاحظ عدد من المؤرخين المغاربة في كتابنا : « التاريخ السياسي والاجتماعي لاسبيلية في عهد دول الطوائف » الصادر سنة 1983 م. أننا لم نتطرق فيه بالتفصيل للعلاقة بين الأندلس والمغرب . وبعبارة أخرى ، إن المغرب مهمش في كتابنا المذكور . وتنطبق نفس الملاحظة على كتابنا هذا لأننا درسنا إشكاليات وقضايا تهم المجتمع الأندلسي وحده . ويعود ذلك إلى ثلاثة أسباب أساسية ، أولها أننا اخترنا أن نتخصص في التاريخ الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري بالدرجة الأولى وهذا اختيار مشروع لا نرى ضرورة تبريره ، وثانيهما أن اهتمامنا بالتاريخ الأندلسي محصور من حيث الزمان بعصر دول الطوائف ويظهر دولة المرابطين في الأندلس ومن المعروف أن العلاقة بين الأندلس والمغرب أخذت اتجاهاً جديداً بعد إدماج الأندلس في الدولة المرابطية . والسبب الثالث هو أن المقارنة بين الأندلس والمغرب لا يمكن أن تكون مثبته إلا إذا اعتمدت دراسات

جادة فعلياً أن نتمعق في التاريخ الاجتماعي في كل من المغرب والاندلس نظراً لثقلهما الجذري خلال القرن الخامس للهجرة قبل أن تقوم بمقارنتهما وبدراسة علاقتهما. لذلك، نرجو أن يساهم هذا المؤلف في اغناء فهمنا لجوانب من الواقع الاندلسي وقد يساهم ذلك في فهمنا للعلاقة بين المغرب والاندلس على مستويات مختلفة. وهكذا فإن فهمنا لجوانب من الواقع الاندلسي قد يساهم في اقتربنا من واقعنا المغربي في الوقت ذاته.

ومن جهة أخرى، بالرغم من أهمية العلاقة الاندلسية - المغربية يجب ألا ننسى علاقة الاندلس بالشرق من جهة، وبالممالك المسيحية في شمال إسبانيا من جهة أخرى. هناك تفاوت في أهمية هذه العلاقة لأنها متعددة المستويات. مثلاً، كانت العلاقة الاقتصادية بين الاندلس والممالك المسيحية في شمال إسبانيا أهم من علاقتها مع غيرها ويظهر ذلك بوضوح في الفصل الثاني الذي تطرقنا فيه للاتجاهات الاقتصادية في الاندلس في القرن الخامس الهجري. وتعود أهمية علاقة الاندلس بالممالك المسيحية على المستوى العسكري والسياسي إلى ارتباطهما بالبعد الاقتصادي. إلا أن علاقات المجتمع الاندلسي كانت أهم مع المشرق على المستوى الفكري والثقافي والحضاري. وينعكس ذلك في الميراث الثقافي الاندلسي الذي تطرقنا له بإيجاز ضمن الفصل الرابع، وفي محافظة الاندلس على الطابع العربي والإسلامي لثقافتها في عهد الطوائف وبعده بل نرى حضور اللغة العربية حتى

في مملكة قشتالة وليون حيث كان الفونسو السادس يخاطب المعتمد ابن عباد ويوسف بن تاشفين بالعربية في الرسائل الموجهة إليهما .
وعلاوة على علاقات الاندلس بالمغرب والمشرق والممالك المسيحية في شمال إسبانيا يجب ألا ننسى العلاقات الافندسية -الاندلسية وهنا نجد المؤرخ نفسه أمام مجموعة من التناقضات التي يحير أمامها أحياناً في تحليل العلاقات بين دول الطوائف مع بعضها الآخر . كانت الاندلس تنقسم إلى دول طائفية تتظاهر بمظهر السيادة السياسية وتقيم علاقات سياسية مع بعضها بطبعها الصراع المستطري والاصطدامات السياسية المستمرة . أما علاقاتها الاقتصادية مع بعضها فلم تقل خطورة . ومع ذلك فلاحظ اردهاراً فكرباً وثقافياً في الاندلس في عهد الطوائف . وبالرغم من الانقسام السياسي حافظ المجتمع الاندلسي على أبرز مميزاتة كما أنه تميز بطابع الاصااة والابداع . وقد صنينا في فصول هذا الكتاب أن نتعرض لبعض جوانبه بالتحليل لنخرج بتصوير لا ينبغي وجود التناقضات المهيمة في الواقع الاندلسي وإنما يفهمها ويهدبها ويخصبها لقالب منطقي .

الفصل الاول

العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس في عهد دول الطوائف

لقد شكلت طبيعة القوى الديناميكية العاملة على تحول المجتمع
الاندلسي موضوع خلاف شديد، نظراً لتنوع عناصر هذا المجتمع الانثوية
وتعقيدها من جهة، ولطبيعته المتحركة والمتطورة من جهة اخرى .
لقد تطرق عدد من أبرز المتخصصين في الدراسات الاسبانية
والاندلسية باسهاب لموضوع الصراع الانثوي أو العرقي بصفته قوة
معمشة داخل المجتمع الاندلسي ونتائجه وتأثيره على العلاقات

الاجتماعية . كما يكتسب هذا الموضوع أهمية خاصة في إطار مفهوم العصبية عند ابن خلدون وهو موضوع حي آثار اهتماماً كبيراً عند المشفقين المحدثين . لقد طبق المنهاج الاثنى أو العرفي للمجتمع الاندلسي بصفة خاصة على عهد بني أمية ، ولكن بعض الباحثين ادعوا أن هذا المنهاج نفسه يصلح تطبيقه على المجتمع الاندلسي عامة . إلا أن المجتمع الاندلسي كان قد تغير من عدة فواح خلال عهد دول الطوائف (الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي) . ومن الاهداف الرئيسية لهذا المقال مناقشة مفهوم العصبية والعلاقات الاجتماعية ثم إثبات فكرة جديدة وهي أنه نظراً لتطورات جديدة في المجتمع الاندلسي ، لم يعد المنهاج الاثنى صالحاً لتفسير عهد دول الطوائف كما يحتمل عامة .

لقد كان مفهوم العصبية كما تبلورت عند ابن خلدون في « المقدمة » موضع المناقشة في عدد من التفاسير المختلفة لفلسفة التاريخ عنده . (1)

لقد كان مفهوم العصبية في الاصل يحدد القوة الرئيسية وراء المجتمعات القبلية ثم تطور فيما بعد ليصبح قوة اجتماعية في المدن وتكمن أصالة ابن خلدون بصفته مفكراً في كونه طور هذا المفهوم ليعين به أبرز قوة اجتماعية وراء نهوض الدول والحضارات التاريخية ثم انهيارها . (2) وهكذا فقد طور ابن خلدون هذا

المفهوم داخل إطار نظري شمولي يعتمد عليه في تحليل التاريخ الشمولي (Macro-history) ، إلا أن استخدامنا لهذا المفهوم أقل توسعاً .

عندما نناقش العصبية والعلاقات الاجتماعية في عهد دول الطوائف قد ننظر إلى هذا المفهوم خارج إطاره الخلدوني وقد تغير دلالة الهلاسيكية الشائعة . بل إن انحرافنا عن فهم ابن خلدون لمفهوم العصبية وتطبيقه له يأتي على المستويين الزمني والمكاني . إن عهد الطوائف شمل فترة زمنية مدتها أقل من قرن واحد ، وجاء اختيارنا لفترة محددة نتيجة انصافها بظاهرة خاصة بها ونعني نشأة وتطور دول الطوائف ثم انهيارها . ونتيجة لذلك فإن مشكل تصور العصبية في فترة زمنية تنصف إما بطابع مستقيم (Itner) أو بطابع دوري (cyclic) لا يطرح في إطار مناقشتنا . (3)

كما يختلف اعتبار العصبية في الانداس من الخلفية التي اختارها ابن خلدون عند ما شرع في عمله العظيم الذي تجلّى هدفه في تقديم تاريخ العالم كما عرفه . ومع هذا ، فإن تحديد دراستنا في زمن معين لا يشكل عرقلة حقيقية أمامنا ، فإذا كان تطبيق العصبية على التاريخ الشمولي (macro history) أمراً وارداً ، فإن تطبيقها على المجتمعات في إطار مكاني محدود (micro-space) مثل القرى أو المدن أمر ممكن ، بل يمتاز بمكانه يمكننا من تحديد التفاصيل الصغيرة بدقة أكثر ، وعلاوة على هذا ، تتوفر على

سابقة وهي أن موضوع الصراع العربي في الاندلس خلال فترة دولة بني أمية قد أثار اهتمام عدد من الباحثين (4) كما يجب ان نشير الى مسألة هامة وهي أن الاندلس كانت قد أصبحت منسجمة وملتحمة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ولهذا فان اختيارنا لهذه المساحة الجغرافية بالذات خلال القرن الهجري الخامس ، أمر لا يحتاج الى أي تبرير . (5)

ربما كان من الأفضل لو تجنبنا استعمال مصطلح العصبية في مقالنا هذا ، اعتباراً لارتباط هذا المفهوم بمواضيع شمولية في ميادين علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة ولكن نظراً لعدم توفرنا على مصطلح أفضل ، يمكننا أن نحدد مفهوم العصبية ونحلله في نطاق العلاقات الاجتماعية في دول الطوائف .

يجب أن نؤكد أنه خلافاً للدراسات الأخرى التي تتعلق بمفهوم العصبية بالذات والتي تهدف بلورة ومناقشة المفهوم في حد ذاته ، فإننا نقبل تحديداً معيناً للعصبية مسبقاً كما نهتم على الخصوص بمناقشة حدود تطبيقه على المجتمع الاندلسي في عهد الطوائف . وبعبارة أخرى ، إذا كانت الدراسات الأخرى باين خلدون وبفلسفته التاريخية التي بشكل مفهوم العصبية نواتها ولحمتها ، فإن الهدف الرئيسي لهذا المقال ينحصر في مناقشة مكانة العصبية في المجتمع الاندلسي . صحيح إننا نعتبر العصبية مقياساً ، ولكننا سنلقي الاضواء على قوى اجتماعية تفوقها أهمية . وهكذا سنركز على المجتمع الاندلسي أو على تصورنا له ، ويمكن اعتبار

المنهاج الذي اتخذناه مضافاً لابن خلدون من حيث القيمة المحدودة للعصبية بصفاتها آلة أو وسيلة للتحليل التاريخي للمجتمع الأندلسي خلال عهد الطوائف . إلا أن هذه النظرة ليست صائبة كل الصواب ، فإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى ، يصبح منهاجاً مطابقاً لتصور ابن خلدون للعصبية ودورها في التاريخ العالمي . ألم يدع ابن خلدون بأن العصبية تضعف وتقل عند انحطاط المجتمعات الحضارية المتمددة كما أنها تتلاشى تدريجياً وبكيفية مؤقتة مع انحطاط الدولة قبل حدوث عصبية جديدة ؟ إذا قبلنا هذه الفرضية فإن دور العصبية المحدود في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري يصبح أمراً طبيعياً بل ومنطقياً ، خصوصاً عند ما نعتبر أن المجتمع الأندلسي كان مشتتاً وفي انحطاط سياسي واقتصادي مستمر طوال عهد الطوائف وأن دول الطوائف شكلت نتيجة اللامركزية في الأندلس .

يدل مفهوم العصبية على شعور جماعي لدى فئات اجتماعية يربطها أصل قبلي أو جنسي مشترك أو يربطها وصي مشترك بالانتماء إلى أصل قبلي مماثل ويؤثر في طبيعة علاقاتها بمجموعات أو فئات أخرى ذات أصول مختلفة أو يباقي أفراد المجتمع . (6) ونتيجة لهذا ، فإن وجود فئة من أصل مرقى أو قبلي مماثل أو وجود فئة يجمعها الشعور الجماعي بانتماء قبلي واحد ليس شرطاً كافياً لحدوث الشعور بالعصبية ، ذلك أن العصبية لا تحدث إلا عندما يؤدي هذا الشعور إلى ميدان العمل أو التطبيق إما بانبعاد الفئات الأخرى أو عبر الاصطدام

معها وذلك بحثاً عن المصالح المشتركة للمفئة الاولى أو دفاعاً عن وجودها . وفي هذه المرحلة فقط ينال مفهوم العصبية دلالة الحقيقية بصفته قوة اجتماعية محرّكة للمجتمعات ، خصوصاً المجتمعات القبلية أو المجتمعات المنبثقة عن المجتمعات القبلية (mes - tribal societies) .

لا يهدف هذا الفصل الى دراسة آثار العصبية كما تعكس في الادب ، خصوصاً الشعر ، في عهد الطوائف ، بل يكمن هدفه في مناقشة وجود أو غياب العصبية على المستويين الاجتماعي والسياسي . وبعبارة أخرى ، نريد طرح التساؤل التالي : إلى أي حد تأثرت العلاقات بين مختلف الفئات العرقية بشعور الوعي أو التضامن القبلي ، وإلى أي درجة اعتمدت الفئات التي انعشتها قوى اجتماعية غير عرقية في حصولها على مصالح مشتركة ؟

التركيب الاجتماعي

تجد مشاكل مختلفة أمامنا عند محاولتنا لتحديد نوع أو نمط التركيب الاجتماعي في الأندلس في عهد الطوائف. أولاً، هناك خطر تطبيق نموذج لمجتمع معين على مجتمع آخر يختلف عن الأول اختلافاً جذرياً. فعلى سبيل المثال، اعتبر البعض أن المجتمع الأندلسي كان إقطاعياً. (7) فلقد تبني الدكتور صلاح خالص هذه النظرية في دراسة حول الجوانب الأدبية والتاريخية لأشبيلية في عهد الطوائف، (8) وهذا فعلاً هو الانطباع الذي نخرج به اعتماداً على المصادر الأدبية المعاصرة خصوصاً الشعر، إلا أن خالصاً ربما اعتمد على المصادر الأدبية أكثر من اللازم ودون تمحيصها اعتماداً على النقد التاريخي فتأثر بالمصادر الأدبية من جهة وبمعتقداته الأدبولوجية القوية من جهة ثانية فعلى سبيل المثال، إذا كانت الطبقة

المحاكمة قد عاشت حياة الترف والرخاء والرغد والتبذير، فإن الصورة التي يقدمها خالص لاوضاع الفلاحين لا تعتمد برهان تاريخي قوي. وعلاوة على هذا فإن البعد الادبي يهيمن على أسلوبه وكثيراً ما يكون ذلك على حساب البعد التاريخي -

وينجلي المشكل الثاني عند معالجة التركيب الاجتماعي في عهد الطوائف في فنوع هذا الأخير وتناقضه في مختلف أنحاء الاندلس. فإن كان التقسيم الفطري للاندرلس الى دول طائفية سياسياً في ظاهره فقد كان لذلك نتائج خطيرة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي - بل يمكننا أن نتحدث عن التفاوت بين الدول الطائفية وبالتالي عن عدم التشابه في الاوضاع التي طبعت الحياة الاجتماعية من دولة طائفية إلى أخرى. فإذا نظرنا من الوجهة الاقتصادية إلى الحياة في إشبيلية مثلاً، وخصوصاً في المدينة التي تمتعت باستقرار وازدهار تجاري أكبر، نجد أنها تختلف عن الحياة في المدن الاندلسية الأخرى مثل قرطبة التي شهدت التخريب مراراً في القرن الخامس الهجري أو مالقة التي كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية.

ويتضح هذا التناقض بين الدول الطائفية على مستويين. أولاً، لقد كانت الدول الطائفية مستقلة سياسياً وهذا يعني أن مواطني كل دولة طائفية خضعوا لنظام سياسي خاص بهم. وتتحلى أهمية هذه المسألة عند اعتبارنا للتطورات التاريخية المختلفة في الدول الطائفية في مختلف أنحاء الاندلس. فعلى سبيل المثال،

تمتع سكان قرطبة تحت حكم بني جهور اللين بدرجة أكبر من الحرية من سكان دولة شارب الطائفية حيث لقب الحاكم الجبار أحمد بن جراش بملك الملوك ، حتى خلعه رعيته المضطهدة (9) .
ثانياً ، اختلفت الدول الطائفية عن بعضها حيث تناقضت أحياناً بكل وضوح من حيث حجم أراضيها ومواردها الطبيعية وطاقاتها البشرية وقوتها الاقتصادية . كما اختلفت الضغوط الخارجية على دول الطوائف في درجتها وفي شدتها . فعلى سبيل المثال ، بينما شكلت إشبيلية تكتلاً عسكرياً مع جيش الفونسو السادس ضد دول طائفية أخرى مثل غرناطة ، اضطرت هذه الأخيرة إلى شراء السلام حيث أدت جزية سنوية إلى الفونسو السادس وصل قدرها إلى 10000 مثقال (10) .

ومع ذلك فالبرغم من اختلاف سكان الأندلس في القرن الخامس الهجري في مستوى حياتهم وفي تركيبهم الاثني ونظامهم السياسية الخ . . . فإنهم شكلوا مجتمعاً امتاز بالتحام ثقافي ولغوي وتاريخي والذي كان يطبعه التكامل الاقتصادي على عدة مستويات . وكانت المواصلات بين دول الطوائف متطورة كما كانت حركة التنقل ذات أهمية . ولم يكن الأندلسيون بالسفر إلى دول طائفية أخرى بهدف الحصول على العلم أو لممارسة تجارتهم ، بل كثيراً ما استقروا في المدن التي جلبتهم إليها ، إلا أن المسألة التي يجب الالتفات إليها هي أن الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من مجتمع أندلسي واحد . ولعل ذلك من

الاسباب الرئيسية التي تفسر لماذا لم يدم تقسيم الاندلس خلال مدة أطول مما كانت عليه .

وختاماً ، فبالرغم من تعدد عناصر المجتمع الاندلسي وتنوعها ، فإن هذا الأخير شكل جزءاً موحداً تطبعه بنية اجتماعية شاملة .

هناك طريقتان لتصور التركيب الاجتماعي في الاندلس في عهد دول الطوائف . فيمكننا أن ندرس تصور الاندلسيين لمجتمعهم كمنطقة إنطلاق للخروج بنموذج لتركيبه الاجتماعي ، أما الطريقة الثانية الأكثر واقعية فتتجلى في اعتبارنا لطبيعة المجتمع الاندلسي بعد دراسة المصادر التاريخية الأساسية قبل أن نخرج بتصور لنموذج قد يمكن تطبيقه على مجتمعات أخرى بصفة عامة إلا أن تطبيقه على المجتمع الاندلسي في عهد الطوائف خاصة أمر جازم . ثم يمكننا أن نستغل الاطار العام لهذا النموذج في تنظيم وقرئيب العناصر الدقيقة الخاصة بفترة اهتمامنا . ومع هذا ، فلعل الاعتماد على المنهجين هو النعج الصحيح لان كليهما يحتوي على جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، فتصور الاندلسيين لمجتمعهم يتميز بكونه يعكس درجة الوعي الاجتماعي وطبيعته في المجتمع الاندلسي حيث يمكننا أن نحاله لنخرج باستنتاجات طريفة . ومن جهة أخرى ، فإن تطبيق نموذج يشكله المؤرخ يتميز بكونه يمكنه من التركيز على العناصر والعوامل الاضطرارية والتي قد يكون الاندلسيون أغفلوها .

كان تصور الأندلسيين للمركب الاجتماعي في الأندلس مزدوجاً، فلقد استعملوا مصطلح الخاصة لتمييز الفئة الاجتماعية المحظوظة والتي شملت الطبقة الحاكمة والعائلات ذات النفوذ من الأعيان والتجار والملاكين الكبار، أما باقي أفراد المجتمع من الفلاحين والعمال والعيبد والطبقة الوسطى الصغيرة فأطلق عليها إسم العامة، ومع ذلك فمن حقنا أن نتساءل عن وجود فئة اجتماعية ثالثة هي الطبقة الوسطى التي يعود تاريخ نشأتها فيما يبدو إلى ما قبل القرن الهجري الخامس، ففي دراسة ليفي بروفنصال حول المجتمع الأندلسي والتي نتف في نهاية القرن العاشر للميلاد (الرايع الهجري) تحدث هذا المستشرق الفرنسي عن الطبقة الوسطى الأندلسية. (11) وفيما يخص عهد دول الطوائف، هناك إشارات قوية الي عناصر الطبقة الوسطى ضما يبدو أن الطبقة الوسطى الأندلسية قد وصلت الي درجة ضئيلة من التطور والرشد في المراكز الحضرية حيث تميزت بدور هام في المجال الاقتصادي.

العصبية والخاصة

كانت الطبقة المحظوظة أو الخاصة تشمل الطبقة الحاكمة التي احتكرت الحكم على المستوى السياسي والعائلات التقليدية المسيطرة ذات الثقل الكبير نظراً لثرواتها ولاعتمادها الاجتماعي الممتاز (prestige). وفي إطار الطبقة الحاكمة، تمتع ملوك الطوائف دون غيرهم بدرجة كبيرة من السلطة حيث فرضوا نفوذهم بطريقة مطلقة بواسطة فئة أو طائفة سياسية صغيرة. لقد اختلفت درجة السلطة التي تمتع بها ملوك الطوائف حسب أهمية الدولة الطائفية التي ترأسوها، ولكن هناك عدداً من العناصر المشتركة التي ميزت الطبقة الحاكمة في جميع الدول الطائفية نظراً لتشابه الأسباب أو الدوافع العامة التي أدت إلى وجودها ونظراً لتشابه العناصر التي قررت طبيعة توجيه سياستهم. كانت الخاصة تتميز بحياة البذخ والثراء، فعلى سبيل المثال،

بنى ملوك الطوائف قصوراً فخمة كما تمتعوا بحياة الرخاء في بلاطاتهم حيث ألهمتهم الحياة التي تمتع بها حكام بني أمية . ويظهر ذلك جلياً في بلاط إشبيلية حيث التحق عدد من أبرز الشعراء في الأندلس بإشبيلية ، كما برز حكام بني عباد في ميدان الشعر (12) واشتهرت بلاطات إشبيلية حيث نجد عدداً كبيراً من الاشارات إليها في الابيات الشعرية المعاصرة . وكانت المنافسة شديدة بين ملوك الطوائف ، خصوصاً الأقوياء منهم ، لجلب أشعر الشعراء ، لان المدح كان يشكل وسيلة دعائية بالغة الأهمية . ومن جهة أخرى ، حاول الشعراء الحصول على القبول في أقوى الدول الطائفية ، لان ذلك يعني ضمان مكافأة أهنم كما كان يعني في بعض الحالات ضماناً وسيلة للصعود الاجتماعي . كان الشعر العربي يعتبر أرقمى شكل للتعبير الادبي وأكثرها اعتباراً لدى ملوك الطوائف وذلك كيفما كان أصلهم أو انتماءهم الاثني وحتى الضعفاء من ملوك الطوائف الذين لم تتوفر لديهم الامكانيات المادية الضرورية لجلب الشعراء ، دوقوا الشعر ونذوقوه . واعل أبرز مثال لذلك هو حاكم غرناطة ذو الاصل البربري عبد الله بن بلقين الذي عبر عن تذوقه للادب العربي كما نقل أحياناً شعرية مراراً في مذكراته التي كتبها خلال فترة منفاه في المغرب بعد احتلال يوسف بن تاشفين للأندلس (13) .

لا نجد أثر العصبية لدى طبقة الخاصة في الأندلس سواء نظرنا إلى علاقات الاعضاء المحظوظين للمجتمع في دولة طائفية معينة فيما بينهم أو مع الاعضاء المحظوظين في دول طائفية أخرى . لقد كانت

طبقة الخاصة تتكون خلال عهد الطوائف من عناصر جنسية مختلطة لأن المجتمع الأندلسي أصبح ملتصقاً حيث اندمجت فيه جميع العناصر العرقية من العرب والبربر والصقالبة والإسبان ، كما اختلف التركيب الأثني من دولة طائفة لأخرى ، فعلى سبيل المثال ، كانت الخاصة في إشبيلية معربة تعريباً كلياً ، كما كان معظم سكان إشبيلية من أصل عربي وإسباني (14) . أما في غرناطة ، فكانت أغلبية الطبقة المحظوظة من أصل بربري (15) ، بينما أغلبية سكان المرية من الصقالبة ، ولكن بالرغم من سيطرة مجموعة ائمة معينة في كل دولة طائفية ، لم تتكون طبقة الخاصة في دول الطوائف عموماً من مجموعة عرقية دون غيرها لأن أساس وحدتها لم يقتصر على نوعية الأصل القبلي . بل كانت الخاصة تجتمع على مقياس المصلحة المشتركة ، وفي عدد من الحالات ، نجد أن الاصطدام بين أعضاء الخاصة كان في الأساس بين شخصين ذوي ارتباط دموي قريب الأمر الذي يشير إلى أن مفهوم الشعور بالعصبية كان غريباً عن هذه الطبقة المحظوظة . فعلى سبيل المثال ، نجد صراعات بين الأقارب للحصول على الحكم في عدد من الدول الطائفية ، فحاول إسماعيل ، ابن المعتضد بن عباد ، في إشبيلية أن يقوم بانقلاب ضد أبيه ، الأمر الذي أدى إلى اغتيال المعتضد لابنه بنفسه وقد وصلتنا رسالة شرح فيها المعتضد الدوافع التي دفعت به إلى القيام بهذه الجريمة الفظيعة (16) ، وفي قرطبة ، ضم الصراع من أجل الحكم خلال الفترة الأولى من عهد الطوائف كلاً من علي بن حمود وأخيه القاسم بن حمود (17) ،

وألقي القبض في نهاية المطاف على القاسم بن حمود حيث سجنه قريبه يحيى بن حمود حاكم مالقه آنذاك (18) ، ويصف عبد الله بن بلقين كيف تمرد يدير على جده باديس في غرناطة إلى أن كشف شيخ اسمه فرقان الخطة التي حاول يدير أن يرشيها ليشركه في تنفيذها (19) ، وفي طليطلة ، كان انشغال أعضاء عائلة بني ذي النون في الصراع من أجل الحكم من أهم العوامل التي سهلت على الفونسو السادس ممارسة ضغوطه على طليطلة ثم اختلالها

وكان تدبير المكائد من مميزات بلاطات ملوك الطوائف ، فعلى سبيل المثال ، إن العداوة بين اعتماد روجة المعتمد وابن صمار شاعره المفضل معروفة ، كما نرى لنا عبد الله بن بلقين وصفاً دقيقاً للمكائد التي كانت تدبر في غرناطة (20) .

وتيجة لهذا ، فإن الصراعات من أجل الحكم في دول الطوائف لم تنعشها العصبية بصفتها قوة محرركة ، ولعل أمثال الأقربا الذين اصطدم بعضهم مع البعض الآخر لأغراض سياسية أحسن مبرر لهذه الحقيقة . ومع ذلك فإن بعض الأمثلة تشير إلى عكس ذلك في ظاهرها . لناخذ قضية حالة القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد وهو عربي حيث قاد مجموعة تضم أبرز الأهالي الأشبيليين ضد حكم القاسم ابن حمود سنة 414 هـ - 1023 م . (21) ، كان القاسم قد ترك ابنه محمداً على رأس إشبيلية عندما فرض حصاره على قرطبة ، وبعد الإطاحة الثانية بحكم القاسم بن حمود هرب هذا الأخير إلى إشبيلية ولكن القاضي بن عباد الذي ثار على محمد بن حمود ، منعه من

الدخول إلى المدينة . تبدو هذه القضية في ظاهرها وكأنها ثورة عربية ضد حاكم بربري وقد يغربنا تفسيرها بالعصبية بصفتها قوة اجتماعية هامة وراء هذه الثورة . إلا أن هناك عنصرين يبطلان هذا الرأي .

أولاً ، لم تنجح هذه الثورة إلا بفضل المساندة التي قدمها قائد جيش محمد بن حمود ، القائد محمد بن زبري بن دوناس للقاضي بن عباد وللزعماء الاشبيليين الذين ساندوا القاضي بن عباد وذلك مقابل اختيار بن دوناس كحاكم على إشبيلية بعد هزم حكام بني حمود (22) ، فالامر يتعلق بقائد عسكري بربري تحالف مع القاضي ابن عباد وهو عربي الاصل ضد حاكم بربري هو محمد بن حمود ، ولكن بمجرد انها الخطر الذي شكله حكام بني حمود على القاضي ابن عباد ، ألقى هذا الأخير القبض على القائد ابن دوناس الذي لم يطلق سراحه إلا بشرط مغادرة الجيش الذي كان يترأسه لإشبيلية بكيفية نهائية (23) . ولعل المسألة الهامة التي يجب علينا أن نسجلها في إطار مناقشتنا هذه هي أن هذا التمرد لم يكن تمرداً عربياً محضاً ذلك أن مشاركة القائد البربري كانت ضرورية لضمان نجاحه .

ثانياً ، لم تكن العصبية هي القوة السياسية المنعشة لهذا التمرد . بل لعب الطموح الشخصي دوراً رئيسياً فيها ، فبعد نجاح مفاوضات القاضي ابن عباد بشأن إطلاق سراح محمد بن حمود بشرط أن ينزل بن حمود على حكمه في إشبيلية وبعد طرد القاضي ابن عباد لابن دوناس وجهشه من إشبيلية ، قام بتصفية الزعماء الاشبيليين الآخرين ثم

فرض نفسه حاكماً على إشبيلية (24) .

ويعود سبب ثياب العصبية في الصراعات من أجل الحكم وفي العلاقات الداخلية لدى طبقة الخاصة في دول الطوائف إلى عينة قوى أخرى ذات أهمية أكبر .

العصبية والعامية

إن وجود العامية كطبقة اجتماعية في عهد الطوائف أمر مؤسف ولكن المصادر لا نعطينا التفاصيل اللازمة لتكوين تصور دقيق لهذه الطبقة ، ولهذا فإن تصورنا لطبقة العامية الأندلسية في عهد الطوائف يرتكز على مصادر ضعيفة كما أن استنتاجاتنا الحالية مبنية على الاستدلال غير المباشر إلى حد بعيد .

كانت العامية الأندلسية من نوعين ، الطبقة الاجتماعية الكادحة في الأرياف وتلك الموجودة في المراكز الحضرية ، ولعله من الصعب تحديد أيهما كانت أكثر نشرواً ، لأن كليهما كانت غير محظوظة ، ومع ذلك ربما كانت الحياة في الأرياف أكثر مساواة نظراً لامتياز المدن باستقرار أكثر وبدرجات مختلفة من الازدهار الصناعي والتجاري ، ومن جهة أخرى لم تكن أحوال الجماعية الشعبية

الاندلسية أسوأ من أحوال الجماهير الشعبية في المغرب أو في شمال الجزيرة الأيبيرية المسيحية حيث كان أقل إنتاجاً اقتصادياً وأقل ازدهاراً تجارياً ودون طاقة تلاحية مماثلة لما كانت عليه الاندلس، ولقد كان الازدهار الاجتماعي والاقتصادي العام في الاندلس فعلا أحد العوامل الرئيسية التي دفعت الفونسو السادس إلى اتخاذه سياسة جديدة متعسفة مع دول الطوائف كما دفعت يوسف بن تاشفين إلى احتلالها بعد أن أنقذها من العدو المسيحي (26) .

كانت علاقات العامة بالطبقة الحاكمة بطبيعتها ميل عام إلى الاستسلام عبر جميع أنحاء الاندلس (26) وكانت العامة لا تملك أدنى درجة من الوعي السياسي، وكانت نتيجة ذلك أنها لم تشارك في عملية اتخاذ القرارات السياسية أو في تنفيذها مع أن العامة شملت الاغلبية، وذلك من الأسباب التي أدت بالطبقة الحاكمة إلى تلبية حاجيات العامة إلى أدنى درجة، يعني، حتى لا تثير غضبها فيؤدي ذلك إلى هيجان جماعي، ومع ذلك فقد صاحب الاستسلام العام لدى العامة فيما يخص تحقيق مصالحها، انفجارات عنيفة دورية في مختلف أنحاء الاندلس، وتدل هذه الانفجارات على درجة معينة من القلق الاجتماعي مع أنها كانت تستغل في غالب الأحيان من طرف أشخاص بهدف إنعاش وتحقيق طموحاتهم الشخصية، ونذكر في هذا الصدد مثال قرطبة التي خربت نتيجة الصراعات المسلحة الداخلية من أجل الخلافة بعد سقوط عبد الرحمن بن أبي عامر سنة 399 هـ - 1008 م، والتي بلغت أوجها عند انفجار العنف الشعبي الذي أدى

إلى فرض حكم أمي الحرم جمهور بن محمد بن جمهور على قرطبة سنة
422 هـ - 1030 م (27) ، ومن جملة الامثلة الثورة الشعبية في
غرناطة خلال حكم باديس جد عبد الله بن بلقين والتي جاءت نتيجة
الظلم الذي مارسه الوزير اليهودي القوي يوسف بن النغزالة ابن
الوزير إسماعيل بن النغزالة حيث أدت هذه الثورة إلى اغتيال هذا
الأمير من طرف عامة غرناطة (28) ، وفي إشبيلية ، حدث نزاع
بين مسلم ويهودي في السوق أدى إلى سجن المسلم وإلى ردود
فعل شعبي (29) .

كانت الدولة تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل المجتمع الاندلسي
الذي خضع لضرائب ثقيلة ومتزايدة وكان هذا الحمل أثقل على العامة
منه على غيرها . وتعود أسباب هذه الضرائب في دول الطوائف إلى
أسباب داخلية وخارجية . فمن جهة . حافظت الحكومات في دول
الطوائف على إدارتها الخاصة وجيوشها ومتطلبات أخرى للدولة بفرض
تسييرها والحفاظة عليها وجود دخل منتظم جاوزت قيمته دخل دول
الطوائف عامة . ومن جهة أخرى . دفع النهب المستمر والهجمات
العسكرية بين دول الطوائف ثم أموال الجزية التي فرضها الملوك
المسيحيون في شمال الجزيرة الأيبيرية على دول الطوائف بما فيها
أقواها مثل إشبيلية أو طليطلة . كل ذلك دفع ملوك الطوائف إلى
فرض الزيادة في الضرائب كوسيلة لمواجهة الضغوط الخارجية أو على
الأقل لحصرها مؤقتاً . وساهمت هذه الضرائب اللاشريعة الثقيلة في
إثارة الباطن لدى العامة حتى أصبح الاحتجاج على ملوك الطوائف

شائعاً في الأندلس جعلها في نهاية عهد الطوائف ، اعتبر يوسف بن
 قاشقين الضرائب اللأشريعة الثقيلة مبرره الأساسي لاحتلال دول الطوائف
 كما ساندت الجماهير الأندلسية في ذلك مساندة نامة وذلك بتحريض
 من العلماء والفقهاء (30) ، ولكن إذا كانت هذه الضرائب الثقيلة
 قد أدت إلى اضطراب وقلق اجتماعي في عهد الطوائف (31) ، فإن
 الموقف العام في الأندلس ظل موقفاً استسلامياً حتى جاء الانفجار
 النهائي الذي أدى إلى احتلال يوسف بن قاشقين للأندلس .

- شكلت العامة جزءاً لا يتجزأ من النظام الاجتماعي والاقتصادي
 الذي استفادت منه طبقة أخرى أكثر من غيرها وهي طبقة الخاصة .
 إذن ، لماذا قبلت العامة مصيرها باستسلام تام وهل كان العصبية
 بصفتها قوة اجتماعية تأثير في علاقات العامة الاجتماعية ؟ كما قلنا
 سابقاً ، إن المصادر الأولى لا تمنحنا ما نتمناه من معلومات حول
 المجتمع الأندلسي في عهد الطوائف ولكن هذا الفراغ أكثر حدة فيما
 يخص العامة إما لأن الدور القيادي للعامة صكان محدوداً ، أو لأن
 المؤرخين المعاصرين والمتأخرين اعتبروه كذلك أو لكلا السببين
 وفي إطار العصبية بشر الأستسلام المفروض للعامة إلى غياب وهي
 جماعي وهو شرط أساسي لوجود العصبية ، إذن ، لماذا اتخذت العامة
 هذا الموقف السلبي والاستسلم ؟ .

لن نتأثر أي من العلاقات الاجتماعية لدى العامة ولا علاقات
 الجماهير الأندلسية مع باقي المجتمع بالعصبية خلال عهد الطوائف .
 أصبحت العامة تشكل جزءاً من مجتمع ملتصق مع أنها كانت

تضم مجموعات إثنية متعددة ، ولا يمكننا أن نحدد درجة العصبية لدى العامة إلا بعد طرح السؤال التالي : هل كانت المجموعات المختلفة يتحد بعضها ضد الآخر أم أنها كانت تتعايش في سلام مع احتفاظ كل منها بخصائصه ، أم أنها ذابت في إطار مجتمع ملتحم من الناحية الاثنية ، لقد كان الزواج بين مجموعات مختلفة يمارس على نطاق واسع في الاندلس خلال القرن العجزي الخامس ، إلا أن المجموعات الاثنية المختلفة تعايشت مع محافظتها على شخصيتها ، وفي عدد من الحالات ، نجد تطابقاً دينياً وثقافياً وتربوياً مع اختلاف في اللغة .

ففي غرناطة ، كانت الاغلبية من العامة من أصل بربري ، كما كانت أغلبية السكان في المرية من الصقالبة (32) ، بينما أغلبية الاشبيليين من أصل صربي وإسباني ، وعلاوة على هذه المجموعات الاثنية المدينة بالاسلام ، ضم المجتمع الاندلسي جاليستي المسيحيين واليهود ، وفي إطار العصبية في الاندلس ، فإن المسألة التي نهمنا بالدرجة الاولى ليست.. هل اصطدمت هذه المجموعات مع بعضها؟ هل قامت بذلك بناءً على وعيها بالانتماء القبلي ، حيث إننا نجد أسباباً أخرى فيما يخص الاصطدامات التي شاركت فيها العامة .

كان سلوك العامة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة يبدو أحياناً وكأنه محرك ومنعش بالعصبية ، إلا أن دوافع أخرى خفية أو ظاهرة كانت دائماً حاضرة ، فعلى سبيل المثال ، يبدو قتل عامة غرناطة للوزير اليهودي يوسف بن النفرالة حالة للكرامية العرقية والعنصرية ، إلا أن سبب سقوطه يعود في الحقيقة إلى احتكاره

للسلطة السياسية ولإعماله الاستبدادية ولمكائده الخبيثة (83) .
 إن عامة غرناطة لم تثر ضد أيه إسماعيل بن النغزالة الذي
 شغل منصب وزير مع باديس الزيري حاكم غرناطة حيث إنه فرض
 احترام الجميع له بفعالينه وكفائته الإدارية (84) ، لقد كانت الضرائب
 الثقيلة سبب ثورة ليوسنة علي الأمير عبد الله بن بلقين (85) ، أما
 الثورة الشعبية في قرطبة التي أدت إلى فرض يحيى بن جهور حاكماً
 عليها ، فقد اعتبرها البعض رد فعل القرطبيين العربيين ضد جيوش
 البربر . ومع ذلك فقد كانت هذه الثورة عبارة عن انفجار اجتماعي
 ناتج عن النهب المستمر الذي خضعت له قرطبة نتيجة الصراعات من
 أجل السلطة التي تعود بدايتها إلى سقوط عبد الرحمن بن أبي عامر .
 يبدو أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للعامه في عهد الطوائف
 هي التي حددت طبيعة وجودها وسلوكها ومواقفها ثم علاقاتها
 الاجتماعية إلى درجة أنها غطت على أي وعي جماعي ختمل بشعور
 الانتماء القبلي أو العرقي بصفته قوة اجتماعية . وكانت العامة من
 الناحية العرقية ، تنتسب في أغلبيتها إلى أصل إسباني لأن السكان
 الأوائل في شبه الجزيرة الأيبيرية اعتنقوا الاسلام في أغلبيتهم فاندمجوا
 في مجتمع إسلامي قطبعه اللغة العربية ، وإذا كانت العصبية قطبع
 العلاقات بين العرب والبربر المنتمين إلى الخاصة والذين حافظوا
 على سلوكهم وعقليتهم القبلية خلال القرون الثلاثة من الوجود
 الاسلامي في الأنداس - مثلاً في الجيش أو في الطبقة الحاكمة -
 فإنه حقاً من الصعب أن نرى كيف تمكن هذا الوعي بالانتماء

القبلي من أن يدخل بنجاح وفعالية في المجتمع الإسباني الحديث
المهد بالاسلام ، خصوصاً وأن هذا المجتمع تطور إلى ذلك الوقت في
خط المجتمع الاقطاعي في عهد الـ ويز قوت ، هناك احتمالان بشيران
إلى غياب العصبية لدى العامة الاندلسية .

أولاً ، هناك تأثير النظام الاقطاعي السابق من عهد الـ ويز قوت
الامر الذي يشير تاريخياً إلى أنه لم يكن من طبيعة عقلية العامة
الاندلسية أن تتقبل العصبية .

ثانياً ، لقد ساهم التصور المثالي للامة الاسلامية في تدعيم وتشجيع
الالتحام الاجتماعي بدلا من الصراع ، أو على الأقل ، لقد أعطى
للصراع طابعاً ومبرراً دينياً وليس قبلياً .

ثالثاً ، لدينا ملامح العامة الاجتماعية والاقتصادية التي أنعشت
نموذج علاقاتها الاجتماعية .

العصية والطبقة الوسطى

لقد كان للطبقة الوسطى المتمدنة في الاندلس نشاط هام ودور منتج في المجتمع، كما قامت بدور المحافظة على التوازن بين الخاصة والعامة حيث ساهمت في تقليص التناقضات بينهما. لقد ملأت الطبقة الوسطى الفراغ الموجود بين الطبقتين الاجتماعيتين المتطرفتين الاخرين بحيث خففت التناقضات بين الغنيين الاجتماعيين الاكثر والاقل امتيازاً، فأصبح اصطداهما أقل خطورة لكونه غير مباشر. وساهم ذلك في حصر الضغوط الاجتماعية والتقليل منها مع أنه لم يقض عليها نهائياً. وقبل تطرقنا للطبقة الوسطى مباشرة ربما كان من المستحسن أن نقدم نظرة عامة للخلفية الحضرية في الاندلس خلال عهد الطوائف حتى تبرز نموها الحضري وسوف نستطيع آنذاك أن نكون فكرة واضحة عن الطبقة الوسطى وأن نقيم دورها الحقيقي.

لقد تميز المجتمع الأندلسي بطابع حضري وريفي معاً حيث إن الطابع الأول أكمل الثاني. إلا أن المدن التي ضمت الأراضي المجاورة لها لتتحول إلى دول طائفية، كانت تشكل الأرضية التي انطلق منها النشاط الاجتماعي. فقامت المدن بأدوار متعددة كضمانة المأوى والامن وحماية السكان من العنف والسلب والنهب الشائع آنذاك.

ولكن إذا كانت الحياة صعبة وغير قارة في المدن الأندلسية في عهد الطوائف فإنها كانت أكثر خطورة في البوادي حيث أصبحت الحياة فيها في بعض الحالات مستحيلة، لذلك جلبت المدن الأندلسية سكان البوادي لأسباب متعددة وعلى رأسها الأمن، كانت المدن عادة محمية بالأسوار بحيث يستحيل على العدو أن يتجاوزها إلا إذا خدع خصومه فيدخل المدينة عنوة أو بعد المفاوضات. ونجد أمثلة لعدد من مثل هذه الحالات خلال عهد الطوائف، فبهذه الكيفية سقطت قرمونة في يدي القاضي بن عباد ومحمد البرزالي عند احتلالها من طرف يحيى بن حمود. (36) كما خدع المعتمد بن عباد ابن جهور فدخل الجيش الأشبيلي إلى قرطبة واحتلها سنة 463 هـ - 1070 م. بعد قيامه بالدفاع عنها ضد المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة. (37) وفشلت جيوش قشتالة في خرق أسوار طليطلة ولم تسقط هذه الأخيرة إلا بعد استسلام القادر بن ذي النون وتخليه عن المدينة مقابل أمنه وأمن عائلته. (38) وحصل نفس الشيء عند استسلام بانسية للسيد القمبياطور كودريغو

دييات (39) وأمنلة المدن التي دافعت عن نفسها بسبب قوة مقدرتها الدفاعية كثيرة، فعلى سبيل المثال، لم يستطع القاسم بن حدود أن يدخل إشبيلية عند طرده من قرطبة سنة 414 هـ.. - 1026 م. بالرغم من وجود ابنه محمد داخل أسوار المدينة. (40) ولم ينجح المعتمد بن عباد في احتلال مالقة بحيث طرد جيشه من طرف جيش باديس الزيري الذي أتى ليستنجد به أهل مالقة. (41) كما تخلت جيوش يوسف وبعض ملوك الطوائف عن حصارها لحصن ليط سنة 481 هـ.. - 1088 م. بعد أربعة أشهر خصوصاً بعد أن توصلت بأخبار مفادها أن الفونسو السادس كان في طريقه لانفجاء هذا الحصن المسيحي المحاصر (42) ومع ذلك فهذا لا يدل على أن الاستيلاء على المدن الأندلسية كان مستحيلاً. بل هناك عدد من الأمثلة التي تثبت عكس ذلك. وما تاريخ دول الطوائف إلا تاريخ الكفاح المسلح المستمر إذ كثيراً ما تغير الحكام على رأس الدول الطائفية. ومع ذلك، كانت المناطق الريفية أكثر خضوعاً وتعرضاً للتخريب خاصة نتيجة الحملات العسكرية التي نظمتها دول الطوائف بعضها ضد البعض وحملات الحكام المسيحيين من الشمال.

وعلاوة على الأمن، فإن التجارة والصناعة والتعليم من أهم الخصائص التي ميزت المدن الأندلسية ومع ذلك لا يمكن فصل الازدهار الاقتصادي للمدن عن البادية نظراً لأهمية الأنشطة الفلاحية. وكانت مختلف وسائل المواصلات تربط بين المدن الأندلسية. فعلى سبيل المثال، لم يستغرق التنقل إلى جميع أطراف دولة

إشبيلية الطائفية إلا بضعة أيام ، (48) والانهار ، علاوة على دورها في الري ، كانت ذات أهمية بالغة كوسيلة للنقل . (41) وزيادة على ذلك كان عدد القرى في المناطق الريفية كبيراً حيث نجد ما يقرب من إثني عشرة ألف قرية . (45) ومن منتوجات الأندلس الفلاحية الزيتون واللوز والرمان والبرقوق والموز والتين في أنواع مختلفة . (46) وإلى جانب ذلك ازدهرت منتوجات كانت تستخرج من النبات كالعطور وأخرى كالتوابل مثل الزعفران . (47) واعتبرت المعادن من أهم الثروات الطبيعية التي جادت بها أرض الأندلس ، فمنها الفضة في منطقة قرطبة بينما كان يتم تحويل الرمال في مدينة لبلبة إلى زجاج . (48) وبالنسبة للرخام فكان يستخرج من عدة مناطق ، فمثلاً في قرطبة وجد الرخام الأبيض والأحمر ، أما الرخام الأسود وهو أقل قيمة من سابقه فتعددت نواحيه . (49) وزيادة على ما ذكر اشتهرت مواد ومنتوجات أخرى كالخشب والصبغة التي غلب عليها اللون الأحمر خاصة . ومن منتوجات النسيج ثوب حريري ملون عرف باسم المبلد كما كان يصدر إلى المشرق زليج ملون ولامع عرف باسم الزليجي . (50) وفي إشبيلية عرفت المنتوجات المعدنية شهرة واسعة ضاهت الشمال المسيحي ومن جمعتها صناعة الأقواس والرماح والسهام بالإضافة إلى صناعة السرج المزينة . (51)

وساهمت هذه المنتوجات وغيرها في إنعاش الحركة التجارية في المدن الأندلسية من جهة وبين الأندلس وكل من المغرب

والمشرق ثم الشمال المسيحي من جهة ثانية . وكان التعليم من بين أهم الاسباب التي جعلت المدن تجلب الناس إليها فبينما حافظت قرطبة على مركزها الثقافي القيادي ساهمت مدن أخرى مثل إشبيلية في تكوين الفقهاء والادباء ، الخ . . . (52)

لقد شكلت الطبقة الوسطى جزءاً هاماً من المجتمع الاندلسي ، إلا أن خصائصها اختلفت في مختلف أنحاء الاندلس باختلاف الازواضع الجغرافية والطاقة الاقتصادية وازدهار المدن الاندلسية ، ثم مستوى الحياة وأساليبها ، فعلى سبيل المثال ، يجب التفريق بين المدن الكبيرة في الدول الطائفية مثل إشبيلية وبطليوس وطليطلة وبين المدن الصغيرة مثل رندة وأركوش وشلب وقرمونة ، وازدهرت الطبقة الوسطى ازدهاراً كبيراً في المدن الكبرى نظراً لكونها كانت أكثر حركة كما كانت تتوفر على فرص أكثر لتحسين مستوى العيش وللصعود الاجتماعي كما كانت المدن الكبرى أكثر استقراراً وأماناً وهذا هام جداً خصوصاً خلال فترة تصف بالصراع والاضطدام المستمر بين الدول الطائفية على مستوى وبين الاندلس بأكملها ومملكة ليون وقشتالة ثم المغرب فيما بعد ، على مستوى ثان .

وكانت الطبقة الوسطى متنوعة التركيب من الناحية الاثنية شأنها في ذلك شأن باقي المجتمع الاندلسي الذي اختلفت عناصره الاثنية كما اختلفت نسبة توزيعها عبر مختلف أنحاء الاندلس ، وبعبارة أخرى ، كانت الطبقة الوسطى طبقاً للنمط العام للمجتمع

الاندلسي تتكون من عدة عناصر إثنية مع أذها كانت ملتحمة .
وأهم من ذلك ، لقد كان تناقض الطبقة الوسطى الاندلسية في
مختلف المدن كبيراً فيما يخص حركتها وقدرتها على الانتاج
ونوعية انتاجها وطبيعة نشاطها الاقتصادي ومستوى حيايتها وتأثير
العناصر الاقتصادية في أسلوب حياة الطبقة الوسطى ومطامحها ،
فعلى سبيل المثال ، لقد أدى الاستقلال السياسي لدول الطوائف الى
اتخاذ كل منها حكومتها وإدارته الخاصة . وحاول ملوك الطوائف
توسيع هذه الادارة حتى يتخذوا لانفسهم مظهر حكام حقيقيين
فوجدوا عدداً كبيراً من الاطر من الطبقة الوسطى لتحقيق هذا
الهدف . كان للادارة دور هام في إطار النظام السياسي في الدول
الطائفية الكبرى مثل إشبيلية وبتضح هذا جلياً في العدد الكبير
من الموظفين السامين خصوصاً الوزراء والقضاة والكتاب ، وقد قام
مؤلفون معاصرون بدراسة هؤلاء الموظفين حيث ركزوا على
أبعادهم الادبية والدينية كما يعثر المؤرخ الحديث على إشارات الى
هؤلاء الموظفين مع افتقار الى المعلومات المفصلة حول أوضاعهم
الاجتماعية ومهامهم الادارية . ومع هذا ، فإن العدد الكبير للموظفين
السامين في النظام السياسي في الدول الطائفية الكبيرة والقوية
يشير الى وجود عدد أكبر من الموظفين الصغار الذين نفذوا
قرارات الموظفين السامين وبرامجهم ولا بد أن يكون أعضاء
الطبقة الوسطى قد شكلوا عنصراً لا يستغنى عنه للقيام بهذه الوظيفة .
ومن جهة أخرى ، لقد كان لمواقع الدول الطائفية الجغرافية تأثير

عظيم على الطبقة الوسطى وأنماط حياتها. فلم تحقق أية دولة طائفية الازدهار الذي حققته إشبيلية نتيجة عدة عوامل منها الاراضي الخصبة في غرب الاندلس وارتباطها التجاري بأندلسية أخرى وبغيرها ثم الثروات التي تراكمت بوسائل مختلفة كالغنائم. وعلاوة على ذلك، لم تساعد الاراضي الصغيرة والاضلاع الجغرافية القاسية بعض دول الطوائف على النمو ومنها غرناطة الواقعة في منطقة جبلية. أما الطبقة الوسطى في المدن المزدهرة فقد كانت أكثر نجاحاً لان المدن كانت تجلب الموهوبين من جميع أطراف الاندلس وذلك لأسباب تجارية وتعليمية وسياسية.

لم يصلنا أي أثر لدور العصبية في تقرير طبيعة العلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى خلال عهد الطوائف ويمكننا أن نذكر عدة عناصر لتفسير غياب العصبية هذا. فخلافاً للخاصة. لم تأخذ الطبقة الوسطى زمام السلطة والحكم وخلافاً للعامة. لم تشكل الطبقة الوسطى الاندلسية طبقة مسحوقة في القرن العجري الخامس. لذلك كانت آمالها وطموحاتها للصعود الاجتماعي موضع المصادقة. ومن جهة أخرى، كانت الطبقة الوسطى نشيطة جداً في القطاع التجاري والاداري بحيث لم تؤثر الانقلابات السياسية خلال القرن الخامس العجري مباشرة فيها كما كان شأن الخاصة والعامة. كما كانت العلاقات بين الطبقة الوسطى وكل من الخاصة والعامة أقل اصطداماً الامر الذي نقص أو حصر تشجيع إنعاش العصبية نحو

المجموعات الاثنية الاخرى سواء كانت أقل مركزاً أو أعلى مركزاً اجتماعياً .

ومع ذلك، وبالرغم من تماقضاتها، كانت الطبقة الوسطى تنصف بدرجة معينة من الانسجام الناتج عن الاسس الاقتصادية المشتركة للمجتمع الاندلسي . لذا يحق لنا أن نتصور التنوع الاثني للطبقة الوسطى الاندلسية في نطاق الوحدة الاجتماعية الشمولية، الأمر الذي يدفعنا الى طرح مسألة العصبية والعلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى .

ربما كان الشرح الرئيسي لتفسير مكانة العصبية في العلاقات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى هو أن المجموعات الاثنية التي تعتبر ضمن هذا الصنف بسبب نشاطها الاقتصادي ومستوى معيشتها أو مركزها الاجتماعي كانت منكبدة على نشاط منافس بحيث كان هدفها الاساسي تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، ولكن طبيعة أنشطتها في إطار الطبقة الوسطى كان تعكسيمياً وليس صراعاً، فعلى سبيل المثال، كانت الأنشطة التجارية تتطلب ممارسة علاقات طيبة مع كل من من شأنه أن يقدم أعظم المنافع وأدنى الأضرار وأعلى الأرباح وبإبني مطالب السوق إلخ ويعني هذا أن التجار كان مفروضاً عليهم أن يتعاملوا مع تجار آخرين من أصول إثنية مختلفة من مدينتهم أو دولتهم الطائفية أو أنحاء أندلسية أخرى أو المغرب . وفي الإدارة، كانت المنافسة لاحتكار أو لتحسين وضعية الافراد والمجموعات كثيراً ما تتطلب التعاون

بين أشخاص مختلفين من أصول إثنية مختلفة . وهذا لا يعني أن المجموعات من أصل إثني معين لم تتعامل بهدف تحقيق أهداف وأغراض معينة ، ولكن السؤال الذي يجب طرحه في إطار مناقشتنا هو هل كان محركها الأساسي هو الوعي الإثني الجماعي ؟ وهل كان ذلك مولفاً معادياً للمجموعات الأخرى من أصل عرقي مختلف؟ بل لعل مجرد قبولنا لفكرة الطبقة الوسطى يؤكد حقيقة عامة وهي أننا تتوفر على مقاييس لتمييزها ولتحديد طبيعتها مثل الأوضاع الاجتماعية المشتركة ومستوى المعيشة والمركز الاجتماعي والأنشطة الاقتصادية . وتختلف كل هذه المقاييس عن المقاييس الإثنية ؛ ومع ذلك ، فإن وجود الطبقة الوسطى ليس معبراً عنه على مستوى الوعي الجماعي بالانتماء إلى طبقة خاصة ولهذا فإن تطور الوعي الطبقي كقوة اجتماعية لتحقيق مطامح مشتركة أمر لم يحدث حسب المفهوم العصري .

شكلت النخبة الثقافية والدينية المنتهية في أغليتها إلى الطبقة الوسطى مجموعة ضغط عامة في المجتمع الأندلسي . ونظراً لتنوع الأصول الإثنية للفقهاء حيث إنهم شكلوا جزءاً من مجتمع ذي عناصر متنوعة فبهذا أن نبحث عن وجود أو غياب الشعور بالعصبة عند هذه الفئة . لا يمكننا اتخاذ أية مناقشة حول العلماء دون اعتبار الأرضية الأيديولوجية التي عاشوا فيها والمذهب الفقهي المسيطر نظراً لهيمنة المذهب المالكي الذي أصبح مذهباً رسمياً في الأندلس منذ سنة 170 هـ . - 785 م (59) ، طبق معظم الفقهاء مذهب مالك مهما

كانت انتماءاتهم الاثنية ، ولم يشكل وجود الحركات المذهبية الانفصالية في الاندلس في عهد الطوائف مثل المذهب الظاهري الذي احياه علي بن حزم خطراً على مذهب مالك . (54) كما أن العصبية لم تكن سبب معارضة ابن حزم لملوك الطوائف وانحرافه عن مذهب مالك . لذلك فإنه من العيب أن نبحث عن العصبية بصفتها أساس مذهب ابن حزم الظاهري كما أنه من العيب أن نبحث عنها لدى النخبة الدينية لان اتحاد هذه الاخيرة كان مبنياً على أساس عقدي وليس على مبادئ عرقية . وبامكاننا مناقشة أصول الفقهاء حسب أسمائهم ولكن ذلك سوف يواجه صعوبتين :
 أولاً ، إن مجرد أسمائهم ليست كافية لاثبات انتماءهم العرقي .
 ثانياً ، إن أصلهم وانتماءهم الاثني لا يثبت بالضرورة وعيهم بهذا الانتماء كما أنه لا يثبت عملهم الجماعي على أساس وعي عرقي جماعي -

لقد بالغ عدد من المستشرقين في أهمية الحركات المعارضة في الاندلس ولم نشاهد التركيز على المذهب المالكي وآثاره الاجتماعية في الاندلس ثم معالجته بطريقة موضوعية إلا حديثاً . (55)
 وفيما يخص القرن الهجري الخامس فلقد عولج حديثاً الدور الاجتماعي للعلماء وتأثيرهم في المجتمع وذلك انطلاقاً من زاوية غير زاوية الصراع العرقي (56) فلا يمكن لنا أن نوضح الأرضية الحقيقية للعلماء ونعتبر الحركات المعارضة في مكانة ثانوية إلا بعد رفض اعتبار

المذهب المالكي مذهباً رجعياً وقوة تعسفية. ونطرح بعد ذلك سؤالاً. هو: هل ساند الفقهاء الأندلسيون ملوك الطوائف أم عارضوهم؟ وعلى أي أساس؟ إن الجواب عن هذا السؤال ليس واضحاً كل الوضوح، فمن جهة. نجد أن العدالة في دول الطوائف كانت مبنية على المذهب المالكي رغم أنها كانت تتمتع باستقلال نسبي ولذلك ساند معظم الفقهاء ملوك الطوائف. فعلى سبيل المثال، كثيراً ما كان ملوك الطوائف يبررون أعمالهم وأنشطتهم السياسية بساندة قانونية من طرف الفقهاء. ومن جهة أخرى، نجد بعض الفقهاء الساخطين على الأوضاع والذين عبروا عن هموم ومطالب الشعب، ومن بين هؤلاء نذكر أبا الوليد الباجي الذي زار مختلف ملوك الطوائف فحاول أن يثمنهم بضرورة توحيد الأندلس سياسياً (57)، وعلي بن حزم الذي استنكر سلوك ملوك الطوائف علانية وتهجم عليهم (58)، وأبا إبراهيم إسحاق البيري الذي حرض عامة قرطبة على الثورة ضد الوزير اليهودي يوسف بن النغرالة. وعلاوة على هذا، أصبح الفقهاء عامة في نهاية عهد دول الطوائف مناهضين لنظام دول الطوائف نفسه ولم ينحصر دورهم في ممارسة ضغوط قوية على ملوك الطوائف بهدف الاستنجاذ بيوسف بن تاشفين عسكرياً ضد الفونسو السادس، بل كان لهم دور هام في إقناع يوسف باحتلال الأندلس وضمها للمغرب بعد معركة الزلاقة. بل مما هو أهم من هذا أنهم أعطوا لتدخل يوسف بن تاشفين تبريراً قانونياً عند ما

أدافوا سياسة ملوك الطوائف في مجال الضرائب بحيث انهوهم
بالتعامل مع النصارى وبالفشل في حماية رعاياهم . (69)

وهكذا ذلاحظ أن الدين شكل قوة هامة لدى مسلمي
الاندلس ولدى المسيحيين في شمال الجزيرة اليبيرية خلال
القرن الخامس الهجري ومع ذلك كثيراً ما حاول كل من
المسيحيين والنصارى تحقيق مصالحهم الاقتصادية والسياسية على
حساب مبادئهم الدينية . إن الامثلة للتعاون بين الاشخاص
المتدينين بأديان مختلفة كثيرة كما أن لدينا أمثلة للاصطدامات
بين أشخاص من نفس الدين . في الختام ، ربما لم يكن الوعي
الديني أهم قوة اجتماعية في الاندلس ، إلا أنه ساهم في كبت
وتجميد العصبية وحصر آثارها خصوصاً لدى الطبقة الوسطى .

العصبية والعلاقات بين ملوك الطوائف

لقد نظر جل المتخصصين في الدراسات الاسبانية إلى العلاقات بين ملوك الطوائف في إطار العصبية كما افترض هؤلاء أن البعد العرقي كان يشكل جزءاً لا يتجزأ من تركيب دول الطوائف البشري ، لهذا لم يتبن أو يرفض أحد الاساس العرقي لدول الطوائف بصفته قوة اجتماعية متحركة ، بل لم تطرح هذه المسألة قط ، وكان أبرز مؤرخي القرن التاسع عشر مثل رايتهارت دوزي وأشهر المستشرقين في القرن العشرين مثل ليفي برفنصال قد بلوروا موضوع الوعي العرقي الجماعي بصفته قوة اجتماعية هائلة كما نجد صدها عند المؤرخين العرب المصريين المعتمدين بعهد الطوائف (80) .

إن المنهج الشائع لدراسة العلاقات بين دول الطوائف يركز على التقسيم العرقي إلى ثلاث مجموعات رئيسية يسيطر العرب أو

البربر أو الصقالبة على كل واحدة منها ، ومن الآراء المقبولة، الرأي القائل بأن دول الطوائف كانت تشكل تحالفات تسيطر هذه المجموعات عليها بهدف الدفاع أو الهجوم على دول طائفية فردية أو على تحالفات أخرى ، ولعل نظرة سريعة إلى خريطة الاندلس في القرن الهجري الخامس تثبت هذا الرأي .

كانت الدول الطائفية العربية مثل إشبيلية، مركزية في الغرب وكانت الدول الطائفية البربرية مثل الجزيرة الخضراء ومالقة مركزية في الجنوب في غالب الاحيان، أما الدول الطائفية التي سيطر عليها الصقالبة مثل دانية فكانت توجد في الشرق ، يبدو أن بعض الدول الطائفية مثل طليطلة وبطليوس تلبى شروط الدولة الطائفية العربية والبربرية معاً، حيث إن انتماء حكامها إلى البربر ينعكس في أسماء بني ذي النون وبني الافطس مع أن هؤلاء كانوا مغربين ثقافياً ، ونتيجة لذلك ، قبلت هذه الدول بصفقتها دولاً طائفية عربية إلا أن درجة عربيتها كانت أقل من درجة عربوية دول طائفية أخرى مثل إشبيلية في عهد بني عباد . وبعبارة أخرى ، حصل اتفاق جميع المؤرخين بشأن الاطار العام للدول الطائفية العربية والبربرية والصقلبية أما الخلافات فدارت حول إمكانية اعتبار دولة طائفية معينة ضمن مجموعة معينة أو غيرها ، واعتباراً لتركيبة مجموعات مختلفة من الدول الطائفية الملتحمة إثنين في مناطق خاصة فيترتب على ذلك أنها اصطدمت بعضها مع بعض وأن هذه الاصطدامات كانت مبنية على أسباب تحركاتها، وتنعشها قوى اجتماعية أطلق عليها أحياناً عبارة

العصبية ، لهذا نجد أن فكرة مجموعات متطاحنة من الدول الطائفية المتلحمة إثنياً قد جاء تصورهما في إطار نظري يعتبر الصراع العرقي فيه أهم قوة اجتماعية يمكن استخدامها لتفسير التطور الاقتصادي والاجتماعي في الاندلس خلال عهد الطوائف ، ومن الغريب حقاً أنه لا توجد أية إشارة إلى الدول الطائفية الاسبانية التي بطنى عليها وعي جماعي إسباني ، ولكن إذا كانت العصبية تكتسي الأهمية التي أعطيت لها في تحديد العلاقات بين دول الطوائف عامة فلا بد أن نكون للسكان الأصليين للاندلس الذين شكلوا الأغلبية خلال القرن الهجري الخامس ، ردود فعل قوية من شأنها أن تؤدي إلى تأسيس دول طائفية خاصة بهم على أساس تضامن عرقي . وحتى تتجنب التعقيدات الناتجة عن هذه المسألة بالنسبة للمتبحر العرقي في دراسة دول الطوائف فقد أهمل الدور السياسي للاندلسيين من أصل إسباني بحيث أعتبر هؤلاء جزءاً من المجموعة العربية في غالب الأحيان .

لم يتسأل أحد عن قضية استعمال مصطلحات معينة مثل الدولة الطائفية العربية أو البربرية ، فماذا نعني بالدولة الطائفية العربية ؟ وماذا نعني بالدولة الطائفية البربرية ؟ هل يجب على الحاكم أن يكون عربياً حتى نعتبر دولة طائفية عربية . أم يجب على الرعية أن تكون عربية ؟ أم يجب تحقيق الشرطين ؟ فإذا كان ملك طائفي عربياً ولم تكن رعيته من العرب ، فيستخلص من ذلك غياب عصبية عربية بحيث أنها تفرض وجود شعور جماعي بالانتماء إلى أصل عرقي مشترك ، ومن جهة أخرى ، لا يعقل تصور حاكم عربي يحركه تضامنه مع

مجموعة من أصل عرقي يختلف عن أصله ، ومع هذا ، يمكننا أن نتجنب الكثير من التدقيق فنعتبر كل دولة سيطر عليها العرب خصوصاً على المستوى السياسي دولة عربية ، ويمكن القول انه اعتباراً للسلطة السياسية المطلقة لملوك الطوائف فإن الوعي العرقي عند الحاکم وعند الطبقة الحاكمة هو ما كان يقرر السياسة مع الدول الطائفية الأخرى ، إلا أن هذا الموقف يصعب الدفاع عنه لأننا نجد سياسيين وإداريين من أصول عرقية مختلفة في بلاطات ملوك الطوائف العرب والبربر معاً كما نجد يهوداً في مناصب وزارية في قرناطة في عهد بني زيري ونجد بعض النصارى في بلاط بني عباد بإشبيلية (61) .

هل تعكس الفرضية المبينة على هيمنة العرب والصقالبة والبربر والتي انتشرت على نطاق واسع لدى المثقفين المعاصرين في كتابات المؤرخين المعاصرين العهد الطوائفي ؟ من الأفضل أن نناقش مواقف المؤرخين المعاصرين ونظرتهم إلى ملوك الطوائف وعلاقاتهم في ضوء العصبة في إطار الاشكالية التي نطرحها ، ولكننا سوف نكتفي باختيار مؤرخين بارزين هما : خلف بن حيان وعبد الله بن بلقين أولهما عربي . وثانيهما بربري الاصل ، لقد عاصر كلاهما عهد دول الطوائف وارتفع مستوى رواياتهما التاريخية على غيرها ، ويكتسي موقف ابن حيان تجاه المجموعات الاثنية المختلفة أهمية بالغة نظراً لتأثير تاريخه في كتابات المؤرخين الذين عاشوا بعده بحيث نقلوا عنه كثيراً فعمكسوا نظرتهم إلى ملوك الطوائف ، كما يكتسي ابن

حيان أهمية خاصة نظراً لاقترب تكوينه وأرضيته الثقافية العربية من
تكوين أغلب المؤرخين الذين اهتموا بعهد دول الطوائف بحيث
يمكن اعتباره رمزاً لهم كما يمكن اعتبار شعوره ذوق المجموعات
الاثنية الأخرى مماثلاً لشعورهم ، ولا نحتاج إلى تبرير هذه الحقيقة
إلا من خلال نصوص أعمال ابن حيان التي نقلها المؤرخون اللاحقون
على نطاق واسع .

ومن جهة أخرى ، يكتسي البحث عن احتمال وجود الشعور
بالعصبية عند عبد الله بن بلقين قيمة تمثيلية لأنه أحد الأندلسيين
البرابر الذين وصلتنا كتاباتهم ، وعلاوة على هذا ، تعتبر مذكرات
عبد الله خارقة للعادة ، ليس فقط لكونها تمدنا بمعلومات دقيقة وهامة
حول العلاقات الاجتماعية في غرناطة وحول علاقات الأمير عبد الله
مع بعض ملوك الطوائف مثل المعتمد بن عباد ثم مع الفونسو السادس
ولكن لكون الأمر يتعلق بحاكم يصف هذه العلاقات ويحللها بنفسه
وهذا أمر لم يعرف قبل ذلك في حوليات تاريخ أوروبا ، لقد اعتبر
عدد من المؤرخين الغربيين ابن حيان أعظم مؤرخ أندلسي (62) ،
كما اجتمعوا على اعتبار وصوله إلى قمة فضجه كمؤرخ رائع في
كتابه : « المتين » ، يبرز هذا الأخير كعمل منفرد ومصدر تاريخي
معاصر متين لدراسة عهد دول الطوائف ، وفعلاً ، وصل المؤرخ البارز
مانشيس البورنووث إلى الاستنتاج التالي بشأن « المتين » : « في
الواقع ، لقد عبر ابن حيان بحرية تامة عما شهد عصره من أحداث
مؤامة في كتاب : « المتين » ، بعبقريته بصفته مؤرخاً وتجاوز حدود

التاريخ في عهده ليقتررب إلى التصورات العصرية للتاريخ ، (63) .
يبدو أن أصل هذا الكتاب قد ضاع نهائياً (64) ، إلا أن بعض
الاقباسات منه منقولة في عدد من الكتب ، فعلى سبيل المثال ، رغم
تركيز ابن بسام على التقديم والتعليق الأدبي في كتابه : « الذخيرة
في حاسن أهل الجزيرة » فكثيراً ما استشهد بان حيان فيما يخص
المعلومات التاريخية كما نقل معظم المؤرخين المسلمين المتأخرين
الذين درسوا الاندلس اقتباسات عن كتاب : « المتين » ، (65) .

لم يكن منهاج ابن حيان في دراسة دول الطوائف وعلاقتها
مبنياً على العصبية لأنه كان مؤرخاً منهجياً له نظرة واضحة إلى عهد
الطوائف .

إن المؤرخ الذي تهيمن العصبية على مواقفه ونظرنه وتفسيراته
ينظر إلى التاريخ بالعاطفة ، ولكن ابن حيان كان مؤرخاً عقلانياً ،
لم يكتف ابن حيان باعتبار العلاقات بين ملوك الطوائف بعينية
نقدية بل كانت نظرنه إلى ملوك الطوائف وإلى علاقاتهم مبنية على
تأمل عقلاني عميق للأسباب الظاهرة والخفية المحركة لها ، ونتيجة
لذلك ، ليس هناك مكانة للعصبية في فكر ابن حيان التاريخي
ومنهجه ، لو اعتبر الدول الطائفية من زاوية عرقية لما أصبح المؤرخ
الموضوعي والهادئ الذي تعترف به الاغلبية الساحقة من المنخصيين
في الدراسات الاندلسية ، لذا قد يكون مفيداً لو فحصنا منهجه
التاريخي كما عبر عنه في كتاباته ، ورغم غياب البعد الاجتماعي
والعمق الفلسفي لمقدمة ابن خلدون من مقدمة ابن حيان لتاريخه

(3) نجح ابن حيان بصفته مؤرخاً غير متحيز وموضوعياً، وتنضح هذه الحقيقة خاصة في تقييمه وتحليله لملامح الشخصيات التاريخية البارزة التي درسها. ونظراً لتركيبة مؤرخي القرون الوسطى على أولئك الذين شغلوا مناصب النفوذ والسلطة، فقد يكون من المستحسن لو فحصنا مقدرة ابن حيان على تقييم ملوك الطوائف. يمكن الرجوع إلى موقفه من المعتضد بن عباد لتوضيح روحه الانتقادية الحادة وفهمها. إذا كانت بعض الاقتباسات من كتب ابن حيان تعكس موقفه الإيجابي من المعتضد، فإن اقتباسات أخرى تعكس انتقادات شديدة له، بحيث لا بد من دراسة المادة التاريخية بطريقة شمولية حتى ندرك أن هدف ابن حيان الأخير كان يتجلى في الوصول إلى وصف موضوعي لشخصية المعتضد دون أفكار مسبقة، ففي رسالة بعثها للمعتضد بمناسبة اقتضاره على ابن ذي النون، لجأ فيها إلى الاطناب في المدح واستخدام الألقاب الشرفية مثل الحاجب سراج الدولة (70)، فماذا نفهم من هذه الرسالة؟ هل كان صادراً عندما عبر عن إعجابه بالمعتضد، أم أن استعماله أسلوباً رسمياً كان ضرورياً لضمان وجوده والحماية نفسه من حاكم مستبد وطاغية؟ يبدو الاحتمال الثاني أكثر اقتراباً من الحقيقة خصوصاً إذا اعتبرنا التقييم التالي للمعتضد بقلم ابن حيان: «... وأطمع ما كان في الاحتوا على الجزيرة، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفننة لا كفاً لها...» (71) ولم يتردد ابن حيان في التطرق إلى أدق الجوانب في حياة المعتضد وأكثرها حساسية ومنها اغتياله إبنة إسماعيل (72)، ومع ذلك فقد

للاندلس في عهد الطوائف التي وصلتنا محفوظة في «اللاخيرة»،
 قالها تشمل العناصر الثابتة المعبرة عن خصاله الرائعة كمتأرخ:
 (1) لقد هيا ابن حيان نفسه بدقة قبل كتابة تاريخه لدول
 الطوائف، يعني كتاب: «المتين»، فيعد أن عاش خلال فترة
 تميزت بعدم استقرار تام ومستمر، انتظر ابن حيان حتى هذا
 الاحتياج العظيم بين دول الطوائف الامر الذي مكنه من الكتابة
 في جو أكثر هدوءاً ومن اتخاذ منهج أكثر موضوعية (66)، وعلاوة
 على ذلك، درس جميع المصادر التاريخية الموجودة وانتقد المعلومات
 الضعيفة لعدد من معاصريه (67).

(2) حاول ابن حيان أن يكون مؤرخاً صادقاً وغير متحيز وذلك
 نتيجة محاولة واعية، وربما كانت عقيدته الاسلامية دافعاً هاماً وراءه
 رغبته الاكيدة في البحث عن الحقيقة التاريخية (68)، ورغم قيوده
 ومهما كانت الدوافع بذل ابن حيان أقصى جهوده من وعي ليصبح
 مؤرخاً صادقاً، غير متحيز، وموضوعياً، وتتضح هذه النية في بوضوح
 في الاقتباس التالي من مقدمة كتاب: «المتين»:

« ووصلت القول فيما فاتني قبل من ذكر البعث تلك الفتنة،
 وأخبار ملوكها، ومشهور حروبها، مما أصبت به عندي فذكره،
 أو أخذته عن ثقة، أو وصلتني به مشاهدة، أو حاشته إلي مذاكرة،
 حتى نظمت أخبارها إلي وقتي مكتملة، وجئت بها على وجوهها،
 وأوردتها على سبوغها، ناشراً مطاوبها، ومعلنأ بخوانها، غير محاب
 ولا خائف في الصدق عليها، سالكاً سبيل من التسييت به من متأخري
 أصحاب التاريخ بالمشرق، (69) ... »

(3) نجح ابن حيان بصفته مؤرخاً غير متحيز وموضوعياً، وتنضح هذه الحقيقة خاصة في تقييمه وتحليله لملامح الشخصيات التاريخية البارزة التي درسها. ونظراً لتركيبة مؤرخي القرون الوسطى على أولئك الذين شغلوا مناصب النفوذ والسلطة، فقد يكون من المستحسن لو فحصنا مقدرة ابن حيان على تقييم ملوك الطوائف. يمكن الرجوع إلى موقفه من المعتضد بن عباد لتوضيح روحه الانتقادية الحادة وفهمها. إذا كانت بعض الاقتباسات من كتب ابن حيان تعكس موقفه الإيجابي من المعتضد، فإن اقتباسات أخرى تعكس انتقادات شديدة له، بحيث لا بد من دراسة المادة التاريخية بطريقة شمولية حتى ندرك أن هدف ابن حيان الأخير كان يتجلى في الوصول إلى وصف موضوعي لشخصية المعتضد دون أفكار مسبقة، ففي رسالة بعثها للمعتضد بمناسبة اقتضاره على ابن ذي النون، لجأ فيها إلى الاطناب في المدح واستخدام الألقاب الشرفية مثل الحاجب سراج الدولة (70)، فماذا نفهم من هذه الرسالة؟ هل كان صادراً عندما عبر عن إعجابه بالمعتضد، أم أن استعماله أساوياً رسمياً كان ضرورياً لضمان وجوده والحماية نفسه من حاكم مستبد وطاغية؟ يبدو الاحتمال الثاني أكثر اقتراباً من الحقيقة خصوصاً إذا اعتبرنا التقييم التالي للمعتضد بقلم ابن حيان: «... وأطمع ما كان في الاحتوا على الجزيرة، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفننة لا كفاً لها...» (71) ولم يتردد ابن حيان في التطرق إلى أدق الجوانب في حياة المعتضد وأكثرها حساسية ومنها اغتياله إبنة إسماعيل (72)، ومع ذلك فقد

كان رأي ابن حبان في المعتضد متنوعاً كما نرى في الاقتباس التالي :
... المعتضد عباد زعيم جماعة أسرا الاندلس في وقته ، أسد
الملوك ، وشهاب الفتنه ، وداحض العار ، ومدرك الاوتار ، وذو
الافئاف البديعة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم العلية ،
والسطوة الأبية ... (73) .

وأخيراً إن استنتاج ابن حبان بشأن المعتضد واضح وتقدي مع
رفضه أو تساؤله عن مدى صحة بعض الآراء المبالغ فيها والتي لم
تبني على أسس متينة :

... فلقد حمل عليه على مر الايام ، في باب فرض القسوة
وتجاوز الحدود ، والابلاغ في المثلة ، والأخذ بالضنة ، والاختفار للذمة ،
حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ،
فالقول يتساخ في ذكرها ، ومهما برى من غنينا فلم يبرأ من
فضاعة السطوة وشدة القسوة ، وسوء الانعام على الطاعة ، سجايا من
جيلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة ، (74) .

4) رغم حدوده في مجال التحليل العميق ، فإن تاريخ ابن
حبان لعمد الطوائف غني بالتعليق ، كما أنه احتفظ بقيمة كشهادة
تاريخية معاصرة فمع استمراره في الاطار العام للمؤرخين المسلمين ،
كان يهتم بالتاريخ السياسي لدول الطوائف بالدرجة الاولى . ومع
ذلك ، لم يحصر جهوده في وصف الاحداث وجردها بل صنف
معلوماته وتساءل في الدوافع المحركة للزعماء ، وفي الاسباب العامة
لانهطاط الدول الطائفية وبظهر ذلك بوضوح في الاقتباس التالي :

« فركبت سنن من تقدمني فيما جمعته من أخبار ملوك هذه
 القننة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه وأوعيت فيه ذكر دولهم
 المضطربة ، وسياستهم المنفرة ، وأسباب كبار الامراء المنتزين في
 البلاد عليهم ، وسبب انتقاض دولهم ، حال فحال بأيديهم ، ومشهور
 سيرتهم وأخبارهم ، وما جرى في مددهم وأعصارهم ، من الحروب
 والطوائل ، والوقائع والملاحم ، إلى ذكر مقاتل الاعلام والفرسان ،
 ووفاة العلماء والاشراف ، حسب ما انتهت إليه معرفتي ، ونالته
 طاقتي ، (75) .

وبعد اثباتنا لمكانة ابن حيان كمؤرخ (76) ، يمكننا الآن أن
 نحلل موقفه من العرب والبربر وتقييم درجة تأثير التقسيم الازدواجي
 العربية - البربرية، في نظرتة إلى الاندلس خلال القرن الهجري الخامس .
 كيف كان موقفه تجاه البربر؟ إننا نجد في مقدمته تهجمات عنيفة
 على العناصر البربرية بصفتها قننة ومخرية ومسؤولة بالدرجة الاولى
 عن انهيار خلافة بني أمية في قرطبة . فعلى سبيل المثال ، يشير
 ابن حيان إلى «... هذه القننة البربرية الشنعاء المدلحة ، المفرقة
 للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤتلة...» (77) . وعلاوة على ذلك ،
 إنه يعتبر البربر مسؤولين قبل غيرهم على استمرار تقسيم الاندلس
 إلى دول طائفية طوال القرن الهجري الخامس . ومع ذلك ، فإنه
 كان للملوك الطائفيين الذين هم من أصل بربري دور رئيسي في
 تعجيل انحطاط خلافة قرطبة فلم نعد مسؤولة بداهة إليهم وإنما شاركوا
 غيرهم في هذا الانهيار . كما أن ابن حيان لم يدع أن مسؤولية

لتخريب خلافة قرطبة تعود إليهم دون غيرهم ، وهكذا فاعتماداً على مصادر نقلت عن ابن حيان بالتفصيل يمكننا أن نثبت أن البربر لم يتحملوا وحدهم اللوم لاشعال الفتنة .

لقد كانت « الفتنة البربرية » التي أصابت قرطبة بعد أن فرض علي بن حمود حكمه عليها سنة 407 هـ - 1016 م في جوهرها فتيجة منطقية لدكتاتورية بني أبي عامر غير البربرية التي قضى خلالها على دولة بني أمية بطريقة تدريجية وفعالة ، وعلاوة على ذلك ، فإن محمد بن عبد الجبار المعروف بالمهدي وهو ليس بربرياً هو الذي وضع نهاية لآخر حاكم من بني أبي عامر وعزل هشاماً الثاني الخليفة الأموي الرمزي ، كما اشتمر بعنف مفرط تمثل في تخريبه لمدينة الزهراء التي عرفت بالمدينة الزاهرة في عهد بني أبي عامر (78) ، وكان ابن حيان واعياً بمساهمة المهدي في القضاء على خلافة قرطبة عندما قال : « محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، (لقبه) المهدي ، (كنيته) أبو الوليد ، ولقب نفسه المهدي ولقبته العامة المنقس لعشائته (79) ، وطيشه وخفته وهو كان باب الفتنة وسبب الشقاق والنفاق . . . » ، ولم يكن الناصر سليمان بن الحكم الذي جاء بعد المهدي ففرض حكمه على قرطبة سنة 409 هـ - 1012 م . أقل عنفاً كما يظهر ذلك بكل وضوح في التخريب الذي قام به جيشه بين سنة 400 هـ - 1009 م . وسنة 403 هـ - 1012 م . عندما حاصر قرطبة التي حكمها هشام الثاني المغلوب على أمره (80) ، ولم يظهر بربري على ساحة قرطبة إلا

في سنة 407 هـ - 1016 م . وهو علي بن حمود ، بل لم يصحح هلي بن حمود حاكماً جباراً وطاغية إلا بعد تهديد حكمه بحيث كانت الشهور الثمانية الأولى من حكمه مثالية بطبيعتها والسلام والامن . (81)

بعد أن قمنا بمناقشة بعض مصادر ابن حيان أصبحنا أكثر تأهلاً للحكم على منهج ابن حيان التاريخي ثم تقرير وجود أو غياب البعد العنصري في فكره وبالتالي في منهجه . اعتبر ابن حيان العنصر البربري عنصراً أساسياً ولكن غير منفرد للانحلال الذي أصاب الأندلس خلال القرن العجزي الخامس . ومع ذلك ، لا يمكننا أن نفسر ظاهرة الانحلال هذه بطريقة مسطحة بوضعنا كل المسؤولية على عاتق البربر والعرب ، بل يجب علينا أن نضع القضية في إطار أندلسي واسع لأن التناقضات والصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تميز الأندلس عادة دون أدنى مهب عنصري . ولو كان التخريب الذي قامت به العناصر البربرية أعظم من التخريب الذي سببته العناصر الأثنية الأخرى . فسوف يصعب على ابن حيان - وعلى غيره من المؤرخين - تحديد أسبابها في إطار عنصري ضيق . وعلاوة على ذلك ، لقد كان لملوك الطوائف من أصل بربري ارتباط متين بغيرهم من ملوك الطوائف على المستوى الثقافي حيث اعتنقوا الإسلام في الباطن أو في الظاهر وتعلموا اللغة العربية . فكانت لهم جميعاً عوامل ثقافية مشتركة . لهذا ، عند ما انتقد ابن حيان البرابرة كان يقصد ملوك الطوائف من أصل بربري بحيث إننا لا نجد أدنى إشارة للميز العنصري ببعده

العصري . ويبدو واضحاً من خلال انتقاداته الشديدة لملوك الطوائف من أصل غير بربري أنه كان واعياً كل الوعي بأن لومة الزعماء البربر كانت تعود الى نقصهم كزعماء وليس بصفتهم بربر . لذلك يمكننا أن نستنتج بأن منهج ابن حيان لمهد الطوائف كان شاملاً بحيث انتقد جميع العناصر الاثنية المسؤولة عن اندلاع الفتنة وتشجيع انفجار الاوضاع العامة في الاندلس وتقسيم الامدلس الى دول طائفية متعددة شبه مستقلة ، لقد كان النموذج المثالي للوحدة عنده عبارة عن رد فعل للصراعات المنتشرة والتقسيم الذي أصاب الاندلس خلال القرن الخامس الهجري . كما أن ابن حيان عبر عن إعجابه وحنينه للدولة الاموية المنقرضة في إطار مفهوم الوحدة . وأخيراً يعتبر تاريخه عبارة عن محاولة لفهم عصره ، ومحاولة لشرحه للأجيال اللاحقة بأسلوب تاريخي ممتاز .

يلقي « كتاب التبيان » وهو عبارة عن مذكرات الامير عبد الله بن بلقين أضواءً كثيرة على العلاقات بين ملوك الطوائف وذلك بكيفية مباشرة وواضحة . (82) وفي هذا الاطار ، يمتاز هذا العمل بقيمة خاصة وفريدة حيث يقدم لنا حاكم شارك في الاحداث مباشرة علاقاته مع ملوك الطوائف ثم العلاقات بين حكام آخرين . تختلف القيمة التاريخية « لكتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين عن قيمة « المتين » لابن حيان من عدة فواح ، إلا أن هذا لا يقلل في شيء من أهميته . فعلى سبيل المثال ، لا نجد في « المتين » مثل روايات عبد الله بن بلقين لاحداث بارزة في القرن الخامس

العجري مثل معركة الزلاقة في سنة 479 هـ . 1086 م . أو احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس نظراً لوفاة ابن حيان سنة 489 هـ . 1076 م . أي قبل حدوثها . ومع افتقار عبد الله لخصائص ابن حيان كمؤرخ وعلى رأسها منهجه التاريخي القويم امتاز حاكم غرناطة بصدق كبير في روايته للعلاقات بين ملوك الطوائف . ونظراً لكتابة مذكرات عبد الله وهو في المنفى في المغرب إثر احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس . فقد وصف علاقاته بملوك الطوائف بحرية مطلقة . مع أنه كان حذراً بزن كل كلمة تتعلق بيوسف ابن تاشفين . وعلاوة على ذلك . تمتاز المعلومات الواردة في كتاب « التبيان » بدقة كبيرة حيث إنها تشمل تفاصيل متعددة غير موجودة في المصادر الأخرى . إن أسماء الشخصيات التي يذكرها عبد الله متعددة وتعكس إدراكه العميق للتطورات السياسية في القرن العجري الخامس . مثلاً . لم يكتف بمنحنا دون غيره أدنى التفاصيل المتعلقة بأنشطة الثوار مثل كباب بن تميم أو مؤمل . بل يصف لنا مفاوضاته مع مبعوثي القونسو السادس المسيحيين مثل بيدرو أنسوريث (Pedro Ansuérez) وألفار هانيث (Alvar Hanez) وميسناندو دافيديث (Stanando Davidiz) الذين تذكرهم المصادر المسيحية . (88) وفي الختام . لا يمكن أن نشك في القيمة التوثيقية العظمى لمذكرات عبد الله لأنه كان شخصية معاصرة للعهد الذي أرخ له ولأنه لم يتأثر بمعظم الأحداث التي تطرق لها عند ما كتب عنها في مذكراته ولأن معظم الحقائق التاريخية والتعليق والتحليل

الموجودة في مذكراته يمكن مقارنتها بمصادر أخرى من المصادر التاريخية المتينة. وعلاوة على ذلك، يمتاز «كتاب التبيان» بمهمة تحكيمية حيث إنه يعلل التطوات التي أدت إلى أبرز أحداث القرن الخامس الهجري بعمق عظيم (84).

يعتبر تحليل عبد الله لطبيعة العلاقات بين ملوك الطوائف فريداً كما أنه يخص مستويين. فمن جهة، يحلل البعد السياسي والادبيولوجي ومن جهة ثانية، يحلل البعد النفسي. يتطرق عبد الله للعلاقات بين ملوك الطوائف في إطار سياسة القوة حيث يصبح الضعفاء «ضحية للاقوياء» (86) كما اعتبر خلفاء ملوك الطوائف وتقسيمهم أمراً لا يمكن إصلاحه. (86) حيث ساهم ذلك في نشجيع هيمنة الفونسو السادس على الأندلس لتأخذ تدرجياً شكلاً سياسة تصفية تهدف إلى إخضاع ملوك الطوائف.

بصير «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين فريداً حيث إنه يحلل البعد النفسي عند ملوك الطوائف مصكشفاً دوافع قراراتهم وأعمالهم. وما هو أهم من كل هذا، إن عبد الله يعبر عن أفكاره ودوافعه الداخلية من خلال عدد من القرارات الهامة التي اتخذها. (87) كما تطرق لدوافع الشخصيات التي اصطدم أو تفاوض معها مثل المعتمد بن عباد. (88) بل ذهب إلى أن نقل لنا اقتباسات من بعض الشخصيات البارزة التي كان له بها صلة. (89) فبمعكس لنا عقلية الفئات الأندلسية المختلفة الأمر الذي لم يفعل أي كاتب غيره.

ولا يمكن لنا من خلال رواية عبد الله أن نعتبر العصبية قوة اجتماعية بارزة وراة الاصطدامات الداخلية في غرناطة أو العلاقات بين ملوك الطوائف . فعلى سبيل المثال ، كان حكم جد عبد الله ، باديس بن زبري ، قد عرف عدداً من مكائد البربر وحيلهم ، الذين حاولوا الاطاحة به الامر الذي دفعه الى الاعتماد على اليهود حيث استوزر بعضهم ، بل لم يشعر عبد الله نفسه بأمن مع رعيته البربرية وقد نظمت مدة محاولات للاطاحة بحكمه . (90) وقد وحمل شكه في وزرائه وعدم ثقته بهم الى درجة أنه جعل كلا منهم مسؤولاً أمامه مباشرة . (91) وهكذا كانت الدوافع الشخصية وليس العصبية المحرك الاساسي للصراعات الداخلية من أجل الحصول على الحكم في غرناطة .

وعلى النطاق الخارجي ، أقام عبد الله علاقاته بملوك الطوائف الآخرين على أساس المصلحة بدلاً من الجنس أو العرق . فعلى سبيل المثال ، لم يعتبر خلافاته مع المعتمد بن عباد ناتجة من الفوارق العرقية بل عبر عن اندمائه ضد ما هجم عليه هذا الأخير بالرغم من انتمائهما لنفس الدين . (92) بل أكثر من ذلك ، مدح عبد الله المعتمد شخصياً ثم اعتبر سياسته التعسفية ناتجة عن أطماع ابن عمار وهيمته المفرطة داخل البلاط الاشبيلي . (93) إن الامثلة متعددة سواة الاصطدامات عبد الله مع ملوك الطوائف من أصول إثنية مختلفة أو لعلاقاته الطيبة معهم .

إن النظرة الايجابية لمؤرخين نحو مجموعات إثنية غير مجموعتهم لا تعتبر كافية في حد ذاتها لاثبات دور العصبية المحدود كقوة اجتماعية محررة ، إلا أن العلاقات بين ملوك الطوائف من أصول إثنية مختلفة كانت عدائية أحياناً وسلبية في أحيان أخرى ، لقد كانت هذه العلاقات مبنية على عوامل متنوعة ولذلك يستحيل بعد فحص دقيق ، قبول نمط واضح للتحالفات العرقية للدول الطائفية التي امتاز سكانها بالتحام إثني وذلك بالرغم من انتشار هذا النمط لدى عدد من المؤرخين العصريين . وعلاوة على ذلك ، هناك أمثلة للتحالفات بين بعض ملوك الطوائف ، الذين تحالفوا مع ملوك طوائف من أصل عرقي مخالف ضد آخرين من نفس أصلهم العرقي .

ولعل أقوى دليل ضد المنهج المبني على العرقية في معالجة علاقات ملوك الطوائف يكمن في كون الأمثلة المأخوذة من الواقع التاريخي للاندلس في عهد الطوائف تثبت عكس ذلك ، إن حقيقة واحدة تفسر صراع ملوك الطوائف من أصول إثنية مماثلة والعلاقات السلمية بين آخرين من أصول إثنية متناقضة وهي أن قوى أخرى غير العصبية هي التي أنعمت علاقات ملوك الطوائف . فعلى سبيل المثال ، ساند القاضي ابن عباد وهو عربي حاكم قرمونة البربري محمد البرزالي عند ما أطاح بربري آخر هو يحيى بن حمود بحكمه سنة 427 هـ . - 1035 م . (94) إن الصراع العربي - العربي لدى ملوك الطوائف واضح في احتلال المعتد بن عباد لقرطبة التي

حكمتها بني جهور الى اسنيلا بني عباد عليها سنة 463 هـ - 1070 م . (95)
وبعد مدافعة الجيش الاشبيلي على قرطبة ضد هجومات الامون بن
ذي النون دخل العاصمة الاموية ثم قرر المعتمد بن عباد أن يقضي
على حكم بني جهور فوضع له نهايته . ومن بين الامثلة البارزة
للصراع البربري - البربري ، الاصطدام بين عبد الله بن بلقين وأخيه
نسيم حاكم مالقة . لقد أخذ نزاعهما شكل المواجهة العسكرية
واستمر خلافهما حتى بعد وقوع معركة الزلاقة سنة 479 هـ - 1086 م .
عند ما اسنكى كل منهما بالآخر ليوسف . (96)

إن أمثلة الصراع بين ملوك الطوائف من أصل عرقي مماثل
لا يثبت في حد ذاته غياب العصبية كقوة محرركة للعلاقات بين
ملوك الطوائف، إلا أنها تشير الى أن هذه العلاقات لم تكن مبنية
على نسط عرقي واضح لمجموعات متحالفة من ملوك الطوائف
العرب والبربر والصقالبة . هناك أمثلة للصراع بين دول طائفية من
أصول عرقية مختلفة . فعلى سبيل المثال ، كان كل من المعتضد
وابنه المعتمد ابن عباد معادياً لجيرانهما البربر الذين حكموا دول
طائفية صغيرة مثل رندة أو فرموثة . ومع ذلك، لم يكن احتلال
إشبيلية للدول الطائفية الضعيفة المجاورة لها راجعاً الى العصبية
بقدر ما كان يعود الى تناقض إشبيلية وهذه الدول الطائفية في
حجمها وقوتها، والى سياسة إشبيلية الخارجية التعسفية والتوسعية .

وكانت المصلحة الشخصية تفرض نفسها على المقاييس
الاخرى عند ما لجأ ملوك الطوائف في عدد من الاحيان الى مساندة

الفونسو السادس أو يوسف بن تاشفين ضد ملوك طوائف آخرين .
وبعد معركة الزلاقة شعر يوسف بن تاشفين بان دول الطوائف غير
قادرة على تشكيل وحدات سياسية واقتصادية قائمة بنفسها .
ومن جهة أخرى ، فإن هزيمة الفونسو السادس في معركة الزلاقة
لم تمنعه من القيام بحملات عسكرية تخريرية في أراضي عدد من
الدول الطائفية مباشرة بعد عودة يوسف الى المغرب . لقد أصبح
هناك سؤال يطرح نفسه بالحاح في تلك الظروف وهو هل سيحتل
الفونسو السادس أو يوسف بن تاشفين دول الطوائف التي فشلت
إطلاقاً في توحيد صفوفها؟ وساعدت الظروف والاضاع الداخلية
يوسف فأخذ المبادرة وفي ظرف سنوات قليلة احتل جميع دول
الطوائف باستثناء سرقسطة التي قامت بدور الحد الفاصل بين
الاندلس وبعض الممالك المسيحية في شمال الجزيرة اليبيرية . وفي
إطار العصبية ، نلاحظ أن يوسف قام باحتلال دول الطوائف دون
أدنى تمييز فيما يخص أصول ملوك الطوائف العرقية . فعلى سبيل
المثال ، جاء انهزام بعض ملوك الطوائف البربر قبل ملوك طوائف
آخرين من العرب والصقالبة . مثلاً ، بينما استسلم عبد الله بن بلقين
حاكم فرناطة سنة 488 هـ . - 1090 م . انهزمت إشبيلية وسقطت في
أيدي المرابطين سنة 484 هـ . - 1091 م .

الخاتمة

بعد مناقشتنا للعلاقات الاجتماعية في الاندلس في القرن الهجري الخامس على ثلاثة مستويات من فئانها الاجتماعية وبعد تحليل العلاقات بين ملوك الطوائف، نرى بأن عوامل أخرى غير العصبية كانت تحرك العلاقات والمعاملات بين المجموعات والافراد على السواء. إن احتمال التقسيم إلى الخاصة والطبقة الوسطى والعامّة قد يواجه اعتراضاً على أساس أن مفهوم الطبقة الاجتماعية يفترض وجود الاستغلال والوصي الطبقي مع أن الوصي الطبقي لم يكن موجوداً في الاندلس. ومع ذلك، كانت الطبقات الاجتماعية في الاندلس تتصف بامتزاج ثقافي وحضاري بحيث أصبحت الطبقات الاجتماعية في الاندلس متفاعلة ومتجانسة ومرتبطة بعضها مع البعض.

لقد وحد الطبقات الاجتماعية وعي ثقافي من جهة كما وحد

المجتمع الأندلسي ككل من جهة ثانية . إن الإسلام هو الذي كان وراء سير الحياة في المجتمع الأندلسي مع احترام الجاليين المسيحية واليهودية في الأندلس وهذا ما لم نشاهده لدى المسيحيين في شمال إسبانيا . بل إن حركة الاسترجاع المسيحي (reconquista) كانت مبنية في مراحلها الأولى على اديولوجية تركز على الذات بحيث اعتبرت مصالح الغزاة المسيحيين دون غيرهم وذلك قبل تأسيس هيئة المحاكم الدينية (inquisition) بقرون .

لقد كان المجتمع الأندلسي رغم فوارقه الطبقة والاجتماعية يشكل مجتمعاً يتركب من عناصر إنثية متنوعة إلا أنه كان يتصف بالتحام اجتماعي . كانت الحركة الاجتماعية العمودية التصاعدية والتنازلية من بين العناصر الرئيسية بحيث نجد من وصل إلى منصب سام كالوزارة عن طريق التعليم كما كان حال ابن عمار في بلاط المتمد كما نجد لدى آخرين من ضاعت له ثروات عظيمة ونفوذ قوي .

ومن جهة أخرى ، يمتاز مفهوم العصبية بمرونة كبيرة بحيث يمكن لبعض القراء أن يرفضوا التحديد الذي أعطيناه في هذا الفصل ، بل قد يمكن إعادة تحديده ثم إظهار أهميته كقوة اجتماعية محررة هامة في الأندلس في القرن الخامس الهجري إلا أن أي تحديد جديد لمفهوم العصبية يجب أن يعتمد فيه على المصادر التاريخية ثم استعمالها وتفسيرها الصحيح ، يشير تمحيصنا في المقالة الحالية لنصوص بقلم أبرز مؤرخ عربي وأبرز مؤرخ بربري عاصراً عهد الطوائف إلى غياب العصبية كقوة اجتماعية محررة في عهد الطوائف ولن يغير هذا

الموقف إلا اكتشاف برهان جديد . وتلاوة على هذا ، لقد صاغت أعمال هذين المؤرخين وغيرهما في الماضي موضع التفسير من طرف مؤرخين غير متخصصين في عهد دول الطوائف لتدعيم بعض الفرضيات التي انتشرت على نطاق واسع مع أنها لا تنطبق على القرن الهجري الخامس . وأخيراً ، ربما نكون قد طلبنا كثيراً إذا اعتبرنا هدف هذا الفصل الوحيد هو تغيير نظرة للقرن الخامس الهجري دافع عنها أبرز المؤرخين الاوربيين والعرب خلال قرن بأعماله . ومع ذلك ، فإننا لا نرغب إلا في رأينا مع غيرنا عندما طرحنا إشكالية قديمة في ضوء برهان جديد وتفكير جدي ، لذا فرجو أن ينظر إلى قضية العصبية في الاندلس في عهد دول الطوائف بحذر أكثر وألا تعتبر حقيقة مسبقا ، وبنظرة قبلية .

الهوامش

١ (هناك نظرتان مختلفتان في الموضوع . أنظر كتاب « فكر ابن خلدون الواقعي » لناصر :

Nassif Nassar, La pensée réaliste d'Ibn Khaldun,
Paris, 1967, pp. 173 - 175.

وكتاب « فلسفة التاريخ عند ابن خلدون » لمصن المهدي :

Muhsin Mahdi, Ibn Khaldun's Philosophy of History,
Chicago, 1964 pp. 193 - 204.

بينما نال ابن خلدون العصبية في إطار السياسة والقوة عالجها المهدي في إطار التناقض البدائية والثقافات المتحضرة . ومن جهة أخرى ، يجب التأكيد على أن مفهوم العصبية مأخوذ من كتاب « المقدمة » بدلا من كتاب « العبر » أو تاريخ ابن خلدون . ولقد حاول ناصر دون نجاح أن يبرر الفرق الشاسع بين « المقدمة » و « كتاب العبر » . (ناصر ناصر ، المصدر السابق ، صفحات 84 - 97) . لقد درس ناصر العناصر المتعددة التي كان لها تأثير في « المقدمة »

وذلك بلحوته الى سيرة ابن خلدون الذاتية ثم تحديد عناصر هامة في حياته مثل بيئته الاجتماعية وتكوينه وتجاربه وتعلمه وشيوخه والظواهر الاجتماعية الحارة التي عايشها والانحيار الاجتماعي العام ثم أزمة الحضارة الاسلامية في عهد (محمد المهدي ، المصدر السابق ، صفحات 8 - 84 و 128 - 131) .

2) ركز الجابري أساساً على دور الدولة في فلسفة ابن خلدون التاريخية (أنظر محمد عابد الجابري ، « نكر ابن خلدون : المصيبة والدولة » معالم خلدونية في التاريخ الاسلامي ، الرباط ، 1979 ، صفحات 209 - 360) .

3) لقد اتقد الحطيمي نظرية ابن خلدون الفولبية (cyclic) للزمان مشددة عند ما وصفها بالميزات الثلاثة « ... تلك الاسطورة » و « ... نعت منحط للتاريخ » :

Abdel kabir Khatibi. Hierarchies pré-coloniales des théories—
Bulletin Economique et social du Maroc, numéros 120 - 121,
(1971) , p. 33) .

وخلالاً للخطيمي اتقد بتي أرنولد توينبي كتابه الشهير « دراسة في التاريخ » على النموذج الكلاسيكي للزمان فكان مدحه « للمقدمة » مطلقاً عند ما وصف هذا العمل كـ « ... أعظم عمل من نوعه ... »
(... the greatest work of its kind ...)

(أرنولد توينبي « دراسة في التاريخ » :

Arnold Toynbee, A Study of History, vol. 3, London, 1935,
p. 322) .

4) لقد خصص المستشرق راينهارت دوزي مكانة بارزة لهذا الموضوع في القرن التاسع عشر في كتابه « تاريخ مسلمي إسبانيا »
Reinhardt P. A. Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne.

كما أخذ لهفي بروفنتال نفس الموضوع بعده في كتابه « تاريخ إسبانيا الاسلامية » :

E. Lévi - Provincial, Histoire de l'Espagne musulmane
vol. 3, Paris 1953, pp. 167 -- 188.

وتناول بيير كيمشار في أحدث دراسة أنثروبولوجية حول الأندلس الأثر السائدة للعصبية في الأندلس بطريقة جديدة. ومع ذلك، فإنه ثم ينف وجود العصبية في الأندلس في عهد دول الطوائف إذ جاء في حد تعبيره:

« لا يمكن القول بأن الشعور بالانفراد، بل بالمعارضة بين العرب وغير العرب هناك قد انقرض في عهد الطوائف ».

(' On ne peut pas dire que le sentiment d'une différence, et même d'une opposition, entre Arabes et non Arabes ait disparu à l'époque des Taifas. ' (Pierre Guichard, Structures sociales ' orientales ' et ' occidentales ' dans l'Espagne musulmane, Paris, 1977, pl 315).

وهناك تمحيص للأدوار التي قامت بها مختلف المجموعات الاثنية في الحياة السياسية والاجتماعية في عهد الطوائف. (نفس المصدر، صفحات 314 - 324).

6) لقد أدهش عدد من المهتمين بالدراسات الأندلسية أملم الوحدة الثقافية في الأندلس واتحادها ومن بينهم هنري ميريس الذي قال:

« إنها حقيقة مدعشة: في الأندلس هذه، العناصر الاثنية متنوعة ولكن الثقافة واحدة ».

(' Fait remarquable: dans cette Espagne musulmane... Les éléments ethniques, sont hétérogènes, mais la culture est une')
(Henri Pérès,

Le éléments de l'Espagne musulmane et la langue arabe au Ve) x le siècle; la Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi - Provincial. Vol. 2, Paris; 1962. p. 718).

6) طبقاً لبثال فاصر، ترجم الحطبي مفهوم العصبية إلى الفرنسية ((solidarité socio-agnatique)) (عبد الكبير الحطبي، المصدر السابق، ص. 32). أما محسن المهدي فقد اكتفى بنقل هذا المفهوم إلى

الانجليزية بعبارة ((solidarity)) ثم قام بمناقشة مختلف التراجم التي خصصت لهذا المصطلح من طرف أبرز المتخصصين في ابن خلدون (عمن المهدي المصدر السابق ، ص . 198 ، طبع رقم 1) .

7 (ناقش بيدرو شلميطا إشكالية الأقطاعية في الأندلس وذلك في مقالة تنبذ بالطرافة . وبعد تحديده للمقاييس ومناقشته للجوانب الإيجابية والسلبية للقضية توصل إلى الاستنتاج التالي : « ربما عن كحل شي » وبشكل مؤقت ، يبدو أن هذا الاستنتاج يفرض نفسه : « أم توجد الأقطاعية في الأندلس . . . »

(Malgré tout et momentanément, une conclusion paraît s'imposer: dans l'Espagne musulmane il n'y aurait pas eu de féodalisme . . .)
(Pedro Chalmets Le problème de la Féodalité hors de l'Europe chrétienne: le cas de l'Espagne musulmane in Actas del II Coloquio Hispano Tunecino de estudios históricos (Madrid - Barcelona Mayo 1972) Madrid 1973 p 115).

8 (صلاح خالص ، إشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لدولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها (414 هـ . - 461 هـ) ، بيروت ، 1965 ، صفحات 89 - 40 ، محمود سعيد ، الشعر في ظل بني عباد ، بغداد ، 1972 ، صفحات 50 - 52 .

كما يخرج القارىء بانطباع وجود مجتمع إقطاعي في الأندلس من خلال دراسة عاقلة للمجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري اعتماداً على الشعر (أنظر هنري بيرييس ، « الشعر الأندلسي باللغة العربية الفصحى في القرن الحادي عشر لليلاد » .

Henri Pérès la poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle: ses aspects généraux et sa valeur documentaire
2nd ed Paris 1953

لقد ركز جميع المؤلفين الذين ذكرنا أسماءهم أعلاه على الثراء والبذخ في أسلوب حياة الخاصة إلا أن مقياسهم الوحيد في الحكم على الطبقة

المحظوظة الاشبهية في عهد الطوائف بصفتها أرسطوقراطية منحصر في ثروتها المفرطة وتنافس هذه الثروة مع فقر الجماهير . ومع ذلك يجب أن تؤكد أن المقاييس التي لتطبق على النظام الاقطاعي لم توجد في الاندلس لان الادلة والبراهين التاريخية الموجودة لا تشير الى وجود نظام إقطاعي فيه طبقة من النبلاء الذين امتلأوا من غيرهم بورثة مركزهم وبثروة مفرطة حصلوا عليها من خلال استغلالهم هرق غيرهم في مزارع ضخمة مقبل منعم أدنى وسائل العيش والحماية . وعلاوة على ذلك ، فإن وجود طبقة وسطى في إطار حضري في الاندلس خلال القرن الهجري الخامس يشير الى نمط إجناسي مخالف للنموذج الاوربي الذي انتشر في القرون الوسطى .

9 (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي ، « البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب » ، تحقيق (. لفي بروفنصال ، ج . 8 ، باريس ، 1980 ، صفحات 815 - 216 .

10 (عبد الله بن بلقين ، « كتاب البيان » ، تحقيق (. لفي بروفنصال ، القاهرة ، 1966 ، ص . 77 .

11 (. لفي بروفنصال ، « تاريخ إسبانيا الاسلامية » ،

E. Lévi - Provençal Histoire de l'Espagne musulmane vol 3
Paris 1953 p p 196-197

وبالرغم من وجود مستوى محدود للحياة في الممالك المسيحية بشمال إسبانيا وهمنة اقتصاد فلاحي مبني على الاكتفاء الذاتي ، رأيت هذه الممالك نمو طبقة وسطى في مدنها ، ومع ذلك ، فإن تحالف ملك ليون وقشتالة الذي ازدادت مكلفته قوة مع الكنيسة الكاثوليكية حين فرضت مذهبها على حساب مذهب المرين ، وضع حداً بطريقة تدريجية لتطور الطبقة الوسطى وذلك نتيجة القمع الأرضية الشاسعة التي حصلت عليها الكنيسة بحيث عرقل ذلك نمو المدن ، وظهرت نتيجة هذا الصراع في إسبانيا المسيحية في القرن الهجري الخامس ، ولدراسة أصول الطبقة الوسطى في إسبانيا المسيحية أنظر كتاب « أصول البرجوازية في إسبانيا خلال القرون الوسطى » لغارثيا دي فالديافيا :

García de Valdeavellano, Orígenes de la burguesía en la España medieval, Madrid, 1989.

12) هناك دراسة حديثة حول الشعر الأشبيلي في إطاره الاجتماعي (محمد ماجد السعيد ، المصدر السابق) ، ومن جهة أخرى ، شكلت الوحدة في شعر المعتد بن عباد موضوع أطروحة لنيل الدكتوراه وبرزت هذه الدراسة بعمل مرعز وأصيل ، الشكل والترتيب في شعر المعتد بن عباد ، لرايموند شيندلين ،

Raymond Scheindlin, Form and Structure in the Poetry of al - Muclamid Ibn - (Abbad, Leiden, 1974).

كما قام الدكتور رضى السويبي بدراسة المواضيع الواردة في شعر المعتد :

Ridha Soussi, Al Muclamid Ibn Abbad et son oeuvre postigue, étude des thèmes, Tunis, 1977.

18) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 175 ، 177 ، 191 .

14) يمكن درجة تمويه الخاصة مثلا في روعة الشعر المعاصر إلا أن هذا الأمر لا يلغى احتمال استعمال لغات أو لفجات أخرى في الأندلس ، خصوصا عند اعتبار ضالة المصادر التي وصلتنا حول الدارجات المستعملة في الأندلس إذ يصعب علينا حاليا الوصول إلى استنتاجات نهائية في الموضوع .

15) أسس بنو زهرى دولتهم في غرناطة واستمر حكمهم طوال عهد الطوائف حتى استسلم عبد الله بن بلقين للبرابطين سنة 443 هـ . . - 1090 م . « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 151 - 154 .

16) أبو الحسن هلي بن بسام الشتريني ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الثالث ، ج 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، ص 136 - 143 .

17 (أبو الحسن علي بن إسحاق الشنبري ، « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الأول ، ج 1 ، تحقيق . إسماعيل عباس ، ليبيا - تونس ، ص 181 .

وإبن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج 3 ، المصدر السابق ، صفحات 124 - 125 - 135 .

18 (عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيين » ، المصدر السابق ، ص 39 .

19 (نفس المصدر .

20 (هناك أوصاف مختلفة لهذه المجموعة من الوراثة في عدة مصادر منها : ابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص 185 و « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 16 . وأبو محمد عبد الواحد المراكشي ، « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة 1949 ، ص 37 .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبار ، « الحلة السيرة » ، ج 1 ، تحقيق حسن مؤنس ، القاهرة 1963 ، ص 37 .

21 (« الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 16 .

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، « كتاب العبر » ، ج 4 ، القاهرة 1284 ، ص 156 .

22 (نفس المصدر .

23 (ابن عذاري ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص 195 . والمراكشي ، « المعجب » ، المصدر السابق ، ص 61 . وأبو عبد الله محمد بن عبد الله لسان الدين ابن الخطيب ، « أعمال الإسلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتجر لذلك من شجون الصكلام » ، تحقيق إ . ليفي بروفنصال ، الرباط 1924 ، ص 178 . وأبنت الأبار ، « الحلة » ، ج 2 ، المصدر السابق ، ص 37 و « الذخيرة » ، القسم الأول ، ج 2 ، ص 486 .

24) ومن جهة أخرى ، كانت كل من مملكة ليون وانشاثة تحت حكم الفونسو السادس والغرب تحت حكم يوسف بن تاشفين أرقى من مجموعة دول الطوائف عسكرياً ، وقد أبرز (. لوري (El.ourie) أهمية البعد العسكري في إسبانيا المسيحية في مقالة تحمل عنوان « مجتمع منظم للحرب : إسبانيا في القرون الوسطى » :

E. Lourie, A Society Organised For War: Spain in the Middle Ages, Past and Present, n° 5. (1966) pp. 54-79.

وذهب د . أنجوس ماكاي في نفس الاتجاه في كتابه : « إسبانيا في القرون الوسطى » من منطقة حدود إلى إمبراطورية « 1000 - 1600 » :

Angus Mackay, Spain in the Middle Ages, From Frontier to Empire: 1000 — 1500

London and Basingstoke 1977 pp : 15 — 35 .

25) ومع ذلك ، هناك عوامل أخرى إضافة إلى المستوى الاقتصادي والثقافي المتطور دفعت يوسف بن تاشفين إلى احتلال دول الطوائف ومن أهمها العامل الديموغرافي ، ومن جهة أخرى ، يصعب تحديد الدافع الحقيقي لاتخاذ قرار احتلال دول الطوائف لأنه كان قليل الكلام . فقلبي سبيل المثال ، انظر جوابه المقتصر لرسالة الفونسو السادس تحذاه فيها لمواجهة عسكرية قبل معركة الزلاقة سنة 478 هـ - 1086 م (مؤلف مجهول ، « الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية » ، تحقيق إ . س . حاوش الرباط 1986 ، صحتا 28 - 20 وشهاب الدين عبود بن سليمان الخايمي ، « كتاب حسن التوصل إلى صناعة الترسيل » ، القاهرة 1208 هـ ، ص 4) .

26) يصف الأمير عبد الله بن بلقين رفض الأندلسيين للمشاركة في الشؤون السياسية وتردهم للانضمام إلى الجيوش . ويختال لذلك ، يذمهم المعاهدة بين المنصور بن أبي هاجر والتلاحين الأندلسيين بعوث أفعالهم المنصور من الخدمة العسكرية مقابل ضرائب سنوية ساهمت في مساندة الجيش (عبد الله بن بلقين ، « كتاب البيان » ، المصدر السابق ، ص 17) .

27) « الذخيرة . . . » ، القسم الأول ، ج 2 ، ص . 608 .

26) نظم يوسف بن النعمان مخطوطاً للاستيلاء على غرناطة (إلا أنه فشل في تنفيذه ، الأمر الذي أدى إلى ثورة العامة ومجزرة ذهب اليهود في غرناطة ضحية لها ، وذلك في يوم 10 من شهر صفر 469 هـ . . . 1089 م .) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيين » ، المصدر السابق ، صفحات 54 - 55 .

29) وكانت النتيجة أن عبد الله بن سلامة الذي شغل منصب صاحب المدينة عند وقوع هذه الحادثة في 18 من شهر ذي الحجة 482 هـ . . . 1079 م . باشبيلية ، استنجد بالمعتضد بن عباد الذي كان يوجد في قرطبة فكلف هذا الأخير وفداً هاماً بحل هذا النزاع ووضع نهاية للاضطرابات الاجتماعية الناتجة عنه (« الذخيرة . . . » ، القسم الأول ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص . 418) .

30) مثلاً ، وجهت اتهامات ضد المعتضد بن عباد بشأن فرضه ضرائب غير شرعية على زوجته وتعامله مع الملك المسيحي القونسو السادس مما دفع العلماء بتعريض يوسف بن تاشفين وأمره باحتلال إشبيلية (عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيين » ، المصدر السابق ، صفحات 169 - 170) .

31) كانت ثورة ليوسنة في دولة غرناطة الطائفية في عمقها عبارة عن احتجاج على الضرائب الثقيلة التي فرضها عبد الله بن بلقين على سكانها . وبجرد انتباه عبد الله إلى الأسباب المهيبة لهذه الثورة ، فضل مفاوضة زعمائها بحيث وافق على تحديد قيمة الضرائب (نفس المصدر ، ص . 181) .

32) إن مصطلح الصقالبة يعني المبيد البيض الذين عملوا في بلاطات حكام بني أمية بحيث تمتعوا بنفوذ سياسي كبير . وحكم الصقالبة في عدد دول الطوائف بعض الدول الطائفية في شرق الأندلس مثل المرية ودانية . وهناك دراسة حول هذه المجموعة للمؤرخ العبادي (أحمد مختار العبادي ، « الصقالبة في إسبانيا » ، مدريد ، 1983) .

33 (تطرق الأمير عبد الله بن بلقين لاستياد يوسف بن النفرالة بالحكم في عهد باديس بن زيري ولاعتيائه بلقين بن باديس (وهو والد عبد الله) نظراً للعداوة الذي أظهر بلقين نحو ابن النفرالة (عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 40) .

34 (يتناقض الشتم الذي لجأ إليه عبد الله كلما ذكر يوسف بن النفرالة) مثلاً يصفه بلقين ، نفس المصدر ، ص . 60 (مع إعجابه بأبي إبراهيم إسماعيل بن النفرالة والد يوسف (نفس المصدر ، صفحات 81 - 82) .

35 (نفس المصدر ، ص . 131 .

36 (ابن عذاري المراكشي ، « البيان المغرب . . . » ، ج . 8 ، المصدر السابق ، ص . 312 . وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 80 - 96 .

37 (« الذخيرة » ، القسم الأول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 610 . والقسم الثاني ، ج . 1 ، ص . 268 - 269 ، وابن الخطيب ، « أعمال الأعلام » ، المصدر السابق ، صفحات 178 - 174 .

38 (هناك حالات لاحتلال الفونسو السادس لطليلة سنة 478 . . . 1086 م . في عدة كبير من المصادر (أنظر مثلاً ألفونسو العشر وسانشو الرابع ، « أول تاريخ هام لاسبانيا » :

Alfonso X and Sancho IV, Primera cronica general de España, ed, by Ramon Menéndez Pidal, vol. 2, Madrid, 1955, pp. 530 - 51

و « الذخيرة » ، القسم الرابع ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 163 - 169 .
وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحات 76 - 77 .
وابن الكردبوس ، « كتاب الأكتفاء . . . » المنشور في كتاب « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط » ، تحقيق أحمد مختار المبادي ، مدريد ، 1971 ، ص . 78 - 87 ، وأبو العباس أحمد بن خلصان ، « ونهايات الأعيان في أنبياء الزمان » ، تحقيق ، إحصان عباس ، ج . 5 ، بيروت ،

1968 - 1972 ، صفحاتنا 37 - 38 . وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير ،
« الكامل في التاريخ » ، ج 5 ، بيروت ، 1967 ، ص 138 .

39 (عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، صفحاتنا
176 - 178 .

40 (« الذخيرة » القسم الرابع ، ج 2 ، المصدر السابق ، ص 84 .
وابن عذاري ، « البيان المغرب » ، ج 3 ، المصدر السابق ، صفحاتنا 182 - 184 .
والمراكشي ، « المعجب » ، المصدر السابق ، ص 81 . ومؤلف مجهول ،
« الخلل الموشية » ، المصدر السابق ، ص 86 .

41 (عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص 43 .

42 (نفس المصدر ، صفحاتنا 112 - 113 و « تاريخ رودريكي » ، مؤلف

مجهول الاسم :

**Anonymous, Historia Roderici, ed. by Ramón Menéndez Pidal
in La España del Cid, vol. 2, Madrid, 1929, pp 930-31.**

43 (أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، « صبح الأعشى في صناعة
الإنشاء » ، ج 5 (مصور عن طبعة المامية) القاهرة 1968 ، ص 185 .

44 (نفس المصدر .

45 (أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ ، « فتح الطب من نصيب الأندلس
الطيب وطهر وزهرها لعان الدين بن الخطيب » ، ج 1 تحقيق محمد عبي الدين
عبد الحميد القاهرة 1949 ، ص 210 .

46 (نفس المصدر ، ص 186 .

47 (نفس المصدر ، ص 185 .

48 (نفس المصدر ، صفحاتنا 186 - 187 .

49 (نفس المصدر ، ص 187 .

50 (نفس المصدر ، صفحاتنا 187 - 188 .

51 (نفس المصدر ، ص 188 .

52) يتحفنا ابن بشكوال في « كتاب الصلاة » بمسيرة مئات الأشخاص من الطرقة المثلثة الحضرية الأندلسية من مختلف المدن في عهد الطوائف ، فعلى سبيل المثال ، ذكر أكثر من سبعين فقهاً من إشبيلية .

53) القاضي عياض بن موسى السبتي ، « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » ج 1 تحقيق محمد بن تايوت الطنجي الرباط 1965 ص 27 .

54) ما تزال دراسة ميكيل اسين بلاثيوس حول ابن حزم التي ترجمها على فكره السياسي ومذهبه الشرعي أهم دراسة من نوعها (ميكيل اسين بلاثيوس ، « ابن حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأفكار الدينية ») :

Miguel Asín Palacios, Abenazzam de Cordoba y su Historia critica de la ideas religiosas, vol 1, Madrid, 1927)

55) انظر في موضوع الدور السياسي للفقهاء في الأندلس إلى نهاية خلافة قرطبة ، دور الفقهاء في الأندلس إلى نهاية الخلافة ، :

Hussein Monez, Les hommes de religion dans l'Espagne musulmane jusqu'à la fin du Califat, Studia Islamica vol. XX (1945), p p 47 - 88.

ونلاحظ أن حسين مؤنس بالغ في محاولته لإثبات فضل المذهب الشافعي على الأندلس واحتمال تأثيره في المذهب المالكي بالأندلس . كما أن هناك دراسة مماثلة حول دخول المذهب المالكي ورسوخه في الأندلس والمغرب للدكتور محمد العروسي عهد القادر تحمل عنوان :

Muhammad al-Aroosi Abdul - Qadir, The Reception and Development of Maliki Legal Doctrine in the Western Islamic World, unpublished Ph. D. thesis, Edinburgh, 1973 .

57) « الذخيرة » القسم الثاني ج 1 المصدر السابق ص 96 .

58) فعلى سبيل المثال ، أحرقت كتّاب ابن حزم علانية بإشبيلية

(« الذخيرة » القسم الاول ج 1 المصدر السابق ص 169 - 171) كما عبر عن فضبه إثر ذلك الحادث في أبيات شعرية (نفس المصدر ص 171) .

59 (مثلا « اشتكى عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة من الفقيه ابن سهل » ومن آخرين عندما شوه هذا الأخير صورته أمام يوسف بن لشين ورسم صورة سوداء للطريقة التي مارس بها عبد الله حكمة والوضوح في غرناطة عامة (عبد الله بن بلقين « كتاب التمهيد » المصدر السابق ص 189 - 170) .

60 (« واستطاع الهربر بزعامه بني حمود ، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن « على الثلث الجنوبي في شبه الجزيرة الاسبانية » وأن يقيموا لهم ملكاً وخطانة... وأسفر النزاع بين هذه القوى الحصينة ، بعد فوز الهربر برئاسة المناطق التي سبق ذكرها ، عن فوز الاسر العربية بمعظم القواعد الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية ومرسطة وبلنسية والمرية ، واستطاع الفتيان العامريون أن يسيطروا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى المرية لفترة قصيرة » (60) .

(محمد عبد الله عنان ، « دول الطوائف » الطبعة الثانية القاهرة 1969 ص 14) إلا أن بعض المؤرخين العرب اتقنوا المنهج العرقي لدراسة دول الطوائف منهم حسين مؤنس الذي قال : « هل يمكن تصنيف السالك حسب انتمائهم الاثني : طوائف عربية وطوائف بربرية وطوائف صقلبية ؟ ... لا يمكن اعتبار أي منهج من المناهج التي اتخذت إلى يومنا مقبولاً أو ملائماً... » .

« Se pueden clasificar los reyezuelos según su filiación étnica :
Tajfas árabes, Tajfas beréberes y Tajfas eslavos » . . .

Ninguno de los métodos seguidos hasta ahora es aceptable ni resulta adecuado » (Hussayn Monés ,

Sobre la época de los Reyes de Tajfas, Al . Andalus,

vol. XXXI (1969) p. 320 .

61 (لقد عمل سيستندو داقديث في البداية في بلاط المعتضد بن عباد ثم التحق فيما بعد ببلاط فرناندو الاول ثم الفونسو السادس ، حول سيستندو انظر « الكنت المستعرب سيستندو » هانيث وسياسة الفونسو السادس مع الطوائف »

أغريباً غومز ومنديث بيدال :

Ramón Menéndez Pidal and E. García Gómez, El conde mozárabe Stanando Davidiz y la política de Alfonso VI con los Tallas, Al-Andalus, vol. XII, (1947), p.p. 27 - 41.

(62) وصف بونيس بويكيس ابن حيان كالتالي :

« بصوت أغلبية المهتمين بدراسة التاريخ العربي - الأيباني ، يحتل هذا الكاتب العزيز الأنتاج منزلة مفضلة بين مؤرخينا المسلمين » :

« Por voto unanime de los que se han ocupado en el estudio de la historia geográfica arabigo - española, etc. Fecundo escritor ... ocupa el puesto de preferencia entre nuestros historiadores musulmanes » (Francisco Pens Boigues, Los historiadores y geógrafos árabe - españoles, repr. Amsterdam, 1972, p. 152).

وحتى نؤكد هذه القضية تشير إلى المقامات أبرز المؤرخين الأوربيين في الدراسات الأندلسية منها ما يلي :

« ابن حيان ، المؤرخ الحكيم للأندلس » :

« Abenbayán el judío historiador de la España musulmana » (Miguel Asir y Palacios, Abenázam de Córdoba y su historia crítica de la ideas religiosas vol. 1. Madrid. 1927 p. 208) -

و « يظهر المؤلف - ابن حيان - روحاً متطورة ومبدراً رحيماً وحرية ووشداً حتى أنني أذهب إلى القول إنها تقريباً مأخوذة من الروح العلمية الأوربية » :

« L'auteur (Ibn Hayyán) montre un esprit développé et étendu. libre et mâle. Je dirai presque il est emprunté de l'espér » (R. P. A. Dozy Bayano. l Mogreb, p. 73, cited by Claudio Sanchez-Albornoz En torno al Feudalismo, op cit. p 257)

(63) كلاوديو سانثيس البورتوث : « حول أصول الاقطاع » :

Claudio Sanchez-Albornoz En torno a los origenes del Feudalismo, opicit, p.p. 260 - 61.

64 (ذكر كارل بروكلمان أن نسخة من كتاب « المتين » في ستين جزء كانت موجودة في مكتبة تونس ولكنها ضاعت ولم يثر عليها بعد :

(Carl Brockelmann, Geschichte Der Arabischer Literatur, D I p. 338)

65 (نجد ذكر كتاب « المتين » ونقل اقتباسات منه في عدد من الكتب ومنها الكتب التالية : « الذخيرة » و « الحلة السور » و « المغرب في تلخيص أخبار المغرب » و « أعمال الاعلام » و « المغرب في حلى المغرب » و « نفع الطيب في حصن الاندلس الرطب » .. وإن هذه المتأثرين التي اخترناها تمكس التأثير العميق لكتاب « المتين » على مؤلفين في مجالات مختلفة عبر مدة تفوق خمسة قرون .

66 (« الذخيرة » القسم الأول ج 2 المصدر السابق ص 87 .

67 (نفس المصدر .

68 (انتج ابن حيان مقدمته بأسلوب يطمى عليه الشعور بالتقوى والتدين بحيث عبر عن علاقة الانسان بربه وما إلى ذلك .

(نفس المصدر ص 85 - 88) .

69 (نفس المصدر ص 87 .

70 (نفس المصدر ص 90 .

71 (« الذخيرة » القسم الثاني ج 1 نفس المصدر ص 26 .

72 (« الذخيرة » القسم الثالث ج 1 المصدر السابق ص 186 - 149 .

73 (« الذخيرة » القسم الثاني ج 1 المصدر السابق ص 94 .

74 (نفس المصدر ص 25 .

75 (« الذخيرة » القسم الأول ج 2 المصدر السابق ص 878 .

76 (ما زال المرحوم ملشور انطونيا يعتبر من أبرز المتخصصين في

ابن حيان ، راجع مثلاً مقالة « ابن حيان القرطبي وتاريخه للاندلس » ،

Melchor Antuña Iba Hayyan de Cordoba y su historia de la España musulmana , Cuadernos de Historia de España , vol IV (1945)

pp . 5—71

(77) « الذخيرة » القسم الأول ج 2 المصدر السابق ص 578 .
 (78) أبو المباس أحمد بن عذاري المراكشي « البيان المغرب في
 أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ج 3 تحقيق | . إيني بروفنسال باريس
 1980 ص 59 - 62

(79) نفس المصدر ص 50 .

(80) نفس المصدر ص 112 .

(81) « الذخيرة » القسم الأول ج 1 ص 481 - 482 .

(82) أشار (نرست إيني بروفنسال علق) « كتاب التبيان » إلى
 أهمية مذكرات عبد الله بن بلقين بالمبارات التالية : « يتعلق الأمر في
 الوقت ذاته بوثيقة سيكولوجية من الدرجة الأولى بحيث تمكنتنا أكثر
 من غيرها من التواريخ المتأخرة وأن نحكم على حالة التفكك الاجتماعي
 والسياسي لاسبانيا الإسلامية قبل معركة الزلاقة وعلى التطور الذي حققه
 خلال تلك الفترة ابطال حركة الاسترجاع المسيحي - وتعتبر رواية الأحداث
 التي سبقت محض الأمير عبد الله نفسه جديدة للغاية وكثيرة الأهمية .
 ويجب اعتبار مذكرات عبد الله أمير غرناطة منذ الفترة التي يشتمل
 فيها تاريخ ابن حيان صلة وصل عبر التاريخ المرتبك لملوك الطوائف ... » :

« C'est en même temps un document psychologique de premier
 ordre, qui permet beaucoup mieux que les chroniques postérieures,
 de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne
 musulmane avant la bataille d'el-Zalaga et des progrès accomplis
 à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne.
 Le récit, des événements antérieurs au propre règne de l'émir
 « Abd Allah est également fort nouveau et fort important. Les
 Mémoires du prince de Grenade doivent être considérés à partir
 de l'époque où ou prend fin la chronique d'Ibn Hayyan, comme
 un fil conducteur à travers l'histoire confuse

(« كتاب التبيان » المصدر السابق ص 5) :

des Tawaf (Abd-Allah b. Buluggin, Kitab et-tibyan, ep eit n.5

83 (نفس المصدر ص 69 - 79 - 95 - 100 - 124 - 138 .

84 (نفس المصدر ص 76 - 77 - 104 - 106 .

85 (وكان عبد الله واحداً بظلمة السلطنة التي يتمتع بها الفونسو السادس وباستغلاله الخلفات بين ملوك الطوائف أصله .
(نفس المصدر ص 89) .

86 (أصبحت الخلفات بين ملوك الطوائف واضحة وضوحاً تاماً عندما استمرت بعد انتصارهم على الفونسو السادس في معركة الزلاقة بالرغم من المحاولات التي قام بها يوسف بن تاشفين بهدف توحيد صفوفهم .
(نفس المصدر ص 106 - 107) .

87 (ولا يستغرب في حق عبد الله كان يعبر عن شكوكه ودوانه الخ... على المستوى الشخصي في كتابه اعتباراً لكونه كان يشكك مذكراته .

88 (نجد اقتباسات مباشرة توضح نوايا الفونسو السادس في إطار تطرق عبد الله لمفاوضاته المباشرة مع الفونسو . (نفس المصدر ، ص . 72 - 73) .

89 (مثلاً نقل كما اقتباساً مباشراً نسبة إلى سستانغو دافيديث الذي أخبره بنوايا الفونسو لاحتلال الأندلس : « وحكنا نحن نعلم هذا من مذهبه . على ما كان يخبر به وزراؤه . ولقد قال ذلك شيلاند في حال هذه السفارة . وشافنا بذلك . وقال : إنما كانت الأندلس تلزم في أول الأمر . حتى غلبهم العرب . والحقوم بأنفس البقاع : جليقية : فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلامتهم فلا يصح ذلك إلا بتصف الحال والبطولة . حتى إذا لم يبق مال ولا رجال . أخذناها بلا تكلف » (نفس المصدر ، ص . 73) .

90 (نفس المصدر ، ص . 136 - 138 .

91 (نفس المصدر ، ص . 88 .

- (82) « ومثى كان المعتمد يسمي في تعدين الامر » و«روم معه الصلح »
أو تنشأ مهابة » لا يناسم (ابن عمار) في نقضها وإشغال نار الفتنة » .
(نفس المصدر : ص . 72) .
- (93) نفس المصدر ، ص . 82) .
- (94) ابن عناري ، « البيان المغرب » ، ج . 8 ، المصدر السابق ، ص . 199 .
وعبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص . 90 - 95 .
- (95) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 610 .
وابن الخطيب ، « أحوال الاعلام » ، المصدر السابق ، ص . 106 - 107 .
- (96) عبد الله بن بلقين ، « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ،
ص . 106 - 107 .

الفصل الثاني

الاتجاهات الاقتصادية في الاندلس خلال فترة دول الطوائف

إن المعرفة المتوفرة لدينا عن العوامل الاقتصادية ، والتحويلات ، والاضطرابات التي أثرت في قاريخ الاندلس أثناء القرن الخامس للهجرة محدودة ، ومثل هذا يصح أن يقال أيضاً بالنسبة لتاريخ الاندلس بوجه عام ، ومن المسلم به أن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً أساسياً في تطور تاريخ الاندلس خلال فترة الطوائف ؛ فظهر أن الدراسات المتمحورة حول المعطيات الاقتصادية والمالية ومساهماتها في الوضع

العام فادرة . إلا أن أهم الاتجاهات الاقتصادية لتلك الفترة تتضح لنا أكثر كلما ازداد فهمنا للتاريخ السياسي وأكتمل مفهومنا عن المجتمع الأندلسي في ذلك العصر خاصة من خلال الدراسات التاريخية والأدبية المتأخرة . ونلاحظ أن المؤرخين الإسبان قد أولوا اهتماماً ملحوظاً للتاريخ الاقتصادي للأندلس حديثاً . ونشير إلى أن هذا الفصل سيحاول أن يبرز الاتجاهات الاقتصادية الأساسية التي ظهرت في القرن الخامس للهجرة وذلك على ضوء الخطوط العامة التي رسمها هؤلاء المؤرخون .

كثير من مؤرخي القرون الوسطى أغفلوا الواقع الهام للعوامل الاقتصادية وتأثير هذا الواقع في تطور التاريخ الأندلسي خلال عصر دول الطوائف وذلك لعدة أسباب يمكن تحديدها ، لذلك فالمؤرخ الذي يحاول أن يحلل الجوانب الاقتصادية لتلك الفترة لابد وأن تعترضه عدة صعوبات ، أهمها ندرة المصادر على الرغم من أنها إذا قيست بمصادرنا من فترة بني أمية كانت أوفر عدداً . ولا يمكن الحصول على المعلومات حول المعطيات الاقتصادية إلا بشكل غير مباشر . إن نقص المعلومات في المصادر التاريخية الأولية إنما هو ناتج أساساً عن شكل المعالجة التي تبناها مؤرخو العصر الوسيط ، سيما وأنهم قد أهملوا البعد الاقتصادي لاعتبارهم أنه لا صلة له بالموضوع ، مركزين اهتمامهم - في مقابل ذلك - على الجوانب السياسية والدينية للحياة الاجتماعية .

إلا أنه لا يصح لنا اعتبار مؤرخي العصر الوسيط مسؤولين كلية عن جعلنا النسبي في هذا الشأن ، ذلك أن المختصين الغربيين في

الدراسات الاسبانية كانوا غالباً عاجزين من تخطي صعوبة مهمة هي تناولهم المباشر للمصادر الأولية . ويعود ذلك إلى معرفتهم المحدودة للغة العربية أو جهلهم لها ، وبعبارة ذلك فالمؤرخون العرب الذين كان في متناولهم الوصول إلى المصادر الاممات لم يظهروا قدرة كبرى على الافادة من تلك المصادر في كتاباتهم . أضف إلى ذلك أن مؤرخي العصر الوسيط المحدثين بنقصهم التصكويين في المجال الاقتصادي وذلك ما يجعلهم يغفلون أهمية هذا البعد في البحث . ونجد في ذات الوقت أن الاقتصاديين وقد تسلموا بشكل أفضل لدراسة التطورات الاقتصادية المعاصرة يتجهون إلى دراسة التطورات الحديثة لأنها أمتع من دراسة تلك التطورات التي حدثت في القرون الماضية . ونحن ذوي الاهتمام - عادة - للتطورات والمشاكل الاقتصادية المعاصرة أكثر من نوليه للتطورات الاقتصادية التي حدثت في الماضي ، وذلك لأنها تمس بشكل مباشر حياتنا وذلك ينتفي بالنسبة للماضي . ونستطيع نظرياً أن فباشر دراسة العمليات الاقتصادية للعصر الوسيط بصفة أكثر ، ووخومية لاننا نمتاز بخصيصة التفات إلى الخلف : (Hind Sight) فالاحكام المسبقة واحكام القيمة . والافكار الجاهزة التي نطبع حتما كل تناول للاحداث المعاصرة ، لا تنطبق هنا على المسارات الاقتصادية الماضية . وحين يتعلق الامر في النهاية بالماضي فإن المتخصص في التاريخ الاجتماعي يمتاز بالقدرة على دراسة الاتجاهات الاقتصادية في شكلها الاعم ، أي حين نصل إلى مرحلتها النهائية أو على الأقل مرحلة يسهل تصورها بصفة شمولية .

وبما أن الاتجاهات الاقتصادية قد تكونت بعداً بالغ الأهمية في مجال التطورات التاريخية العامة خلال حقبة دول الطوائف فإنه يجب دراستها بصفتها عنصراً مكملاً للإبعاد الاجتماعية والسياسية لا ينبغي الاستغناء عنه . فشكل هذه الأبعاد تحدد العوامل الاقتصادية نظوره الداخلي الخاص بكل دولة - طائفية صكماً أنها تحدد العلاقات بين الأندلس - بإسبانيا كياناً - وإسبانيا المسيحية من جهة ، والمغرب الكبير من جهة أخرى . كانت دول الطوائف دولا هشة ومنقسمة داخليا لافتقارها قاعدة تضمن لها تكوين كيان سياسي صلب له وجود اجتماعي مستقل ، وبذلك كانت معرضة للهجوم سيما وأنها كانت غالباً ما تتبادل العداء ، وإنها برغم استقلالها الذاتي سياسياً فقد كان وجودها السياسي مهدداً باستمرار سواً على الصعيد المحلي أو الخارجي ، وكان تكوينها ذاته ضعيفاً ، إذ تعوزها الشروط الأساسية لدولة ذات سيادة دون أن تكون مرتبطة بسلطة مركزية بصفتها مناطق شبه مستقلة أو مرتبطة في شكل اتحادات . يعتبر سكان دول الطوائف - اجتماعياً - جزءاً من المجتمع الأندلسي مرتبطين به بسبب الإرث اللغوي والثقافي المشترك وبفعل تكوين بنيوي مشترك أيضاً ، بالإضافة إلى ذلك وبغض النظر عن الحدود الترابية التي تفصل مختلف دول الطوائف ، فقد كان يوحدتها شعور بهوية جماعية واحدة فأعضاء بلاط بني صباد في إشبيلية مثلاً وهيئة الفقهاء الذين كانوا يقيمون بهذه المدينة طيلة تلك الفترة ، شكل ذلك يعكس ، عند التفحيط ، التنوع الكبير لاصول الشخصيات المرمولة

التي كانت تقسم بالمدينة والتي وفدت من مناطق مختلفة من
الاندلس . وكذلك الامر بالنسبة لباقي دول الطوائف . وقد كانت
الهجرات داخل الاندلس ظاهرة عامة ، وانتشار الحركة الاجتماعية
العبودية ذاتها جد واسع في عهد ملوك الطوائف . وإذا كانت
التناقضات العديدة التي تجاذب تلك الدول قد أعطت المجال لظهور
وضعية عامة من عدم الاستقرار ، فإن ذلك لم يؤثر كثيراً على
الاندماج الاجتماعي ، غير أن ذلك إلا استقرار العام صاهم بطريقة لها
دلائلها في الاسراع في الانحطاط الاقتصادي .

وتعطي الاتجاهات السياسية والاجتماعية العامة (1) بوضوح في
السياق الشامل للعلاقات بين دول الطوائف والدول المسيحية في
الشمال الايبيري . لقد كان المجتمع المسيحي قروياً في حين أن
المجتمع الاندلسي كان - حضرياً - إلى حد بعيد ، ويبدو التمازج
بين المجتمعين أوضح فيما يتعلق بالتراث ومستويات العيش إذ كان
المجتمع الاندلسي يعد من أكثر المجتمعات تمدناً ورفاهية في العالم
الاسلامي . غير أن التمازج في المجال العسكري كان لصالح المسيحيين
إذ كانوا أفضل تجهيزاً واستعداداً للمعارك بفعل وحدة قوية تحققت
على الخصوص ، حول عرش ليون وقشتالة في حين أن القدرة
العسكرية لدى دول الطوائف ، وقد كانت محدودة إذ ذاك ، قد
تناقصت تدريجياً طيلة القرن الخامس نتيجة تفككها . وقد استنفذت
سياسة ابتزاز الجزية التي كانت تمارسها الدول المسيحية على دول
الطوائف طيلة الجزء الأكبر من ذلك القرن كل قوة تلك الدول

على الضعف المالي (2) .

وكانت النتائج السياسية والاقتصادية أخطر من ذلك إذ أدت بدول الطوائف إلى تفككها تمهيداً لغزوها ، إلا أنه إن كانت الجوانب الاقتصادية لهذه السياسة أوضح فإن للجوانب السياسية والعسكرية أهمية قصوى أيضاً. فنتيجة للقوة العسكرية المتصاعدة لألفونسو السادس وللسيد رودريكو ديات (Rodrigo V. Diaz) وكوث برشلونة برنغر الثاني (Bernger) تمكنوا من الضغط على دول الطوائف لترخيص فندع حزبة تتزايد شروطها قسوة وكذلك نتيجة للمنارات السياسية الذكية التي قامت بها الدول المسيحية وسلسلة المساومات التي كان ملوك الطوائف يستسلمون لها فيقبلون شروطاً غير معقولة بتاتاً . إلى جانب ذلك كانت سياسة فرض الجزية مريحة بدقة ومنفذة وذلك بقصد الوصول إلى أهداف قصيرة المدى هي الحصول على أقصى ما يمكن من النقرود من دول الطوائف بشكل انفرادي بدل أن يكون جماعياً ، وإما بغرض الوصول إلى أهداف بعيدة المدى تتمثل في إضعافها إلى درجة يصبح معها غزوها ضرورة مفروضة . ولم يستطع ألفونسو السادس أن يغزو دول الطوائف بسبب التدخل الخارجي الذي قام به يوسف بن تاشفين (موقعة الزلاقة سنة 479 هـ - 1086 م . وغزو الأندلس الذي تلاها) . غير أن ميزان القوى مال في تلك الأثناء لصالح إسبانيا المسيحية انطلاقاً من يوم احتلال طليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . بحيث انطلقت منها الحرب البعيدة المدى لاستعادة الأندلس .

وفي ختام هذه المقدمة يجدر بنا أن نشير إلى تحديد غاية هذه الدراسة . وهي تتمثل في مناقشتنا العوامل الاقتصادية وتحليلها غير أننا لانحوي اعتماد منهج نقدي ، أو مالي ، يفسر مصير دول الطوائف . من الصعب تقنياً أن تقوم ثقل العوامل النقدية بالنسبة لتقل العوامل غير النقدية فتناول مثل هذا يفترض أنه باستطاعتنا تحديد عملة المحاسبة التي تقدمها دولة طائفية ما حتى نستطيع حساب مجموع انخفاض القيمة ، ومبدئياً كان يمكن أن نفعل ذلك لو أن عملة المحاسبة لم توجد بصفتها عملة جارية ، وذلك باستخدام المعطيات المتعلقة بوزن القطع النقدية المتداولة وطبيعة معدنها ، وبعبارة أخرى فإن تزيف العملة يمكن أن يبرز لنا بدهاء انخفاض القيمة ، وفي هذه الحالة نستطيع أن نكون فكرة عن حصيلة التضخم في الأدلس مع اعتبار المتغيرات السكانية من وجهة أخرى .

غير أن مصادرنا الحالية لا تسمح لنا بالقيام بهذه المعالجة ، التي تتضمن خطر تحريف الحقيقة التاريخية ، وذلك بإخضاع التاريخ الوسيط للتحليلات الاقتصادية الكلاسيكية . وكذلك لن نستند إلى العوامل النقدية إلا لكي نلقي الضوء على الاتجاهات الاقتصادية في السياق الشامل للثقافة الاجتماعية والسياسية .

1 - الخصائص الاقتصادية الأساسية :

أ - اليد العاملة والثروات المادية .

لقد كانت اليد العاملة والثروات المادية طليعة القرن الخامس الهجري قادرة على توفير اقتصاد مزدهر ومتطور وكان المستوى

الرفيع من التعليم الادبي والعلمي في الاندلس سواء في الاوساط الدينية أو غيرها يساير المستوى الرفيع أيضاً في الحرف المخصصة ونقليات السقي ودنامية النشاط التجاري . وكان الرصيد القيم للاندلس إذن هو الامكانيات البشرية التي كانت تسمح باستغلال فعال للذروات المادية . وربما كان السر في الرخاء المسيحي الذي عرفه الاندلسيون يعود بدرجة أولى إلى مهاراتهم أكثر مما يعود إلى وفرة الموارد . وفيما يتعلق بالموارد البشرية والمادية كان الاندلس يمثل تناقضا مثيراً للدهشة مع المناطق المسيحية الجبلية غير الآهلة في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية - التي كانت مواردها الطبيعية نادرة - من جهة . ومع المناطق الشحيحة من المغرب الكبير من جهة أخرى .

غير أنه بالرغم من أن المجتمع الاندلسي كان متديجماً شبر أن وضعينه الاقتصادية كانت مضطربة مما كان يؤثر حتماً على الانتاج في الاندلس . وأسباب هذا الاضطراب نعزى إلى مختلف العوامل البشرية ولكن هذه المسألة نادراً ما ذوقشت في إطار لغة اقتصادية . وهكذا فطيلة القرن الخامس الهجري وبمعكس ما أدعي غالباً فإن السبب الرئيسي لاوان الصراع والانقسامات داخل المجتمع الاندلسي لم يكن هو الصراع العرقي (8) . فالعرب والبربر والصفالبة والعناصر الاسبانية قمازحت بصمة شامنة في مجتمع متجانس ثقافياً رغم انعدام التجانس العرقي فيه . والصراع الديني والايديولوجي كان مهماً في المواجهة بين ملوك الطوائف والملوك المسيحيين في الشمال ، ولكن

على المستوى الداخلي لم يسمح لليهود والمسيحيين اليهوديين في
الاندلس بممارسة شعائرهم الدينية فقط بل كانوا محترمين ومحميين
شرعياً، ومن وجهة نظر اقتصادية كانت مساهمتهم إيجابية خاصة
في القطاع التجاري والادارة العالية (4).

ويمكن أن نفهم بشكل أفضل الأهمية الاقتصادية للطاقة البشرية
في المجتمع الأندلسي إذا وضعنا في الاعتبار مختلف الشرائح الاجتماعية
واعتمدنا مستويات الحياة ومصادر الدخل والوضعية الاجتماعية معايير
لدراسة هذه الشرائح. كان كل من الطبقة المحظوظة (الخاصة)،
والطبقة المتوسطة وطبقة الدهماء المحرومة (العامة)، تسهم في نظام
اقتصادي مزدوج يركز على الزراعة والتجارة الحضرية.

وكانت مختلف الشرائح الاجتماعية تنعش مصالحها الخاصة
وتدافع عنها ولكن رغم الطابع التناقضي لهذه المصالح فإنها لم
تكن تتصادم بصفتها جماعات مصلحة ربما لغياب وصي جهامي.
وبالإضافة إلى ذلك فإن الصراع الاجتماعي كان يحد منه الطابع
المرن للمجتمع الأندلسي نظراً لكون الحركية الاجتماعية العمودية
كانت حد مهمة طيلة فترة اضطرابات دول الطوائف. وفي النهاية
كانت الاتصالات بين سكان مختلف أجزاء الأندلس جد متطورة
وكذلك العجزة خاصة إلى المدن الكبرى المتميزة بالاستقرار
والازدهار. وبشهد على ذلك عدد كبير من الشخصيات الأدبية
والسياسية والقانونية المرموقة والتي يدل ما نجده مقروناً بأسمائها
من نسبة لهذا البلد أو ذاك من بلاد الأندلس على مواطنها

الأصلية وهو ما أثر في تطور مجتمع أندلسي أكثر تفتحاً ونجاسة .
 وكانت العلاقات بين سكان المدن والمناطق القروية قوية
 ومتطورة أيضاً ، فرغم وجود مزارع مئرامية الاطراف في بعض دول
 الطوائف مثل فرناطة ، فإن صند القسرى المزدهرة والحصون في
 دول أخرى مثل إشبيلية ، يكشف عن أن المجتمع الأندلسي لم يكن
 مجتمعاً إقطاعياً . فالبنيت الاقتصادية لدول الطوائف كانت متنوعة
 واعتمادها كانت دائماً تؤلف اقتصاداً زراعياً وحضرياً حيث كان
 القطاع الزراعي والتجاري متكاملين . وكانت المناطق القروية توفر
 المواد الأولية الأساسية التي تجد سوقها في المدن ، والتعاون والتبادل
 بين المناطق القروية والحضرية كان يؤلف حافزاً إيجابياً في الازدهار
 الاقتصادي ، ويتعلق الأمر هنا مع ذلك بصورة عامة تختلف جزئياتها
 حسب تنوع مناطق الأندلس ؛ وهكذا ففي حين أن بعض المناطق
 مثل دولة إشبيلية الطائفية كانت قد متمدنة نجد أن مناطق أخرى
 مثل فرناطة كان يطغى عليها الصابع القروي ، بالإضافة إلى ذلك
 كان التعاون والتواصل غالباً محدودين ليس فقط بفعل حالة الحرب
 المستمرة بين دول الطوائف ولكن أيضاً بفعل العزلة السياسية
 والجغرافية التي كانت تعيش فيها تلك الدول . وبعبارة أخرى إن
 الاستقلال الذاتي السياسي لكل دولة طائفية يعني إلا حد ما كون
 نظامها الاقتصادي بالرغم من علاقتها التجارية ، نظاماً اقتصادياً يضمن
 الاكتفاء الذاتي . فالاستقلال الذاتي السياسي لدول الطوائف كان
 يواكب بالتالي، انعزالاً اقتصادياً فسيبياً مثلما كان الصراع العسكري

بينها ملازماً لصراعها الاقتصادي . وتعتبر الموارد المادية في الأندلس وفيرة نسبياً . ولم يعد ذلك إلى كون المناطق الأندلسية كانت محظوظة جغرافياً بالمقارنة مع مناطق المغرب العربي وشمال إسبانيا ، بل لأنها كانت تستغل بطريقة أفضل نظراً للدوّهلات الهائلة التي امتاز بها أهل الأندلس . وإذا استثنينا السهول الخصبة في جنوب غرب الأندلس المعروفة بمنطقة الغرب (Algarve) والمناطق المحيطة بضفتي الوادي الكبير ونهر الإبرو (Ebro) علاوة على الحزام المكون من الجزر الجنوبي والشمالي من شواطئ البحر الأبيض المتوسط والجزر الغربي والجنوبي من شواطئ المحيط الأطلسي ، فإن إسبانيا تغطيها الجبال في الغالب إذ يصل علو بعضها إلى أكثر من ألف متر كما تغطيها أراضي جبلية وعرة يتراوح علوها ما بين أربعمائة وألف متر .

لقد نتجت الثروة المترامية في الأندلس طيلة القرن الخامس الهجري إلى حد بعيد عن الأزدهار الذي كانت تعرفه الأندلس عندما كانت موحدة في ظل سلطة الخليفة الأموي ، وهكذا كان نظام الري المتطور في القرن الخامس الهجري مأسوراً عن القرون السابقة . وما زاد في تشجيع الاستغلال الفعال للأرض والمواد الطبيعية تسهيلات وسائل النقل البري علاوة على وسائل الاتصال النهرية ، خاصة عن طريق الوادي الكبير . وكانت التجارة بين دول الطوائف من جهة وبين الأندلس والمغرب الكبير وإسبانيا الشمالية من جهة أخرى ، تنعش النشاط الاقتصادي إلا أنه بالرغم

من استمرار الانتاج خلال القرن الخامس للهجرة فإن الموارد الاندلسية لم تكن مستغلة بطريقة مثلى ، ويعود ذلك إلى سببين أساسيين : أولهما غياب بنية اقتصادية شاملة تتيح فرصة التنسيق والتكامل بين مختلف المناطق حتى بطبيعتها سير ملتحم ، وكان ذلك ناتجاً عن التجزئة السياسية للدول الطائفية. والسبب الثاني للحد من الامكانيات الاقتصادية للاندلس هو النهب والتخريب وتحويل الموارد إلى الخارج بواسطة الضغوط السياسية والعسكرية التي كان يمارسها الملوك المسيحيون ، خاصة الملك الفونسو السادس والمغامرون الاقوياء مثل السيد القمبيطور رودريغو ديباش أو الكونت برنغير الثاني حاكم برشلونة .

(ب) النشاط الزراعي .

كان أهم قطاع في دول الطوائف هو القطاع الزراعي . وكان النشاط الزراعي قوياً في الاندلس ، غير أن الانتاج الزراعي كان يختلف كما وكيفاً من دولة طائفية إلى أخرى ، تبعاً لاختلاف الظروف الجغرافية ودرجة الاستغلال ونمطه .

والاوصاف التي يمدنا بها الجغرافيون والرحالة والأدباء تعكس المستوى الرفيع للانتاج في الاندلس . وهذه الاوصاف المفصلة والدقيقة تشكل في غالب الاحيان المصدر الاساسي لمعلوماتنا ، فبفضلها نستطيع أن نخرج بتصور لحالة النشاط الزراعي وطبيعتها وأهميتها على مر تاريخ الاندلس ، وإذا استطاع ليفي بروفسال

وصف النشاط الزراعي في حقبة بني أمية (5) ، وإذا وجدت راشيل آربي مادة عافية لكي تذر وفرة أشجار الزيتون والكروم في الفترة النصرية (6) ، فإن المؤرخ المهتم بدول الطوائف يجد هو الآخر مادة وفيرة عن ذلك النشاط .

إن غزارة الانتاج الزراعي طيلة القرن الخامس كان مردها جزئياً إلى نظام الري المتطور والذي كان يوفر استعمال العديد من مجاري المياه مثل الوادي الكبير ، وقد كان هذا النظام موضوعاً لعدة دراسات (7) ، غير أن دور اليد العاملة الماهرة التي كانت تقوم على تشغيله لم تدرس بشكل كاف ، لقد كانت الروح السائدة لدى الفلاحين والملاك العقاريين الأندلسيين تلعب دوراً مهماً في دوام الانتاج الزراعي وتزايدده . وهناك عدة أمثلة تشهد على تلك الروح الدينامية الأندلسيين : فقد كتب الأمير عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة أنه طيلة فترة حكم المنصور بن أبي عامر كان الفلاحون يرفضون الانضمام إلى الجيش بحجة عدم إمكانهم مغادرة أراضيهم ، وكانوا يتنازلون له عن حصة من محصولهم السنوي في المقابل (8) ، وفي نفس المصدر نجد باديس ، جد عبد الله بن بلقين ، يزيد مدخول حصن وادي آش ، ثاني حصن في غرناطة من حيث الأهمية ، وذلك بإبدال متصرفه على بن القروي بالوزير اليهودي يوسف بن نغالة . (9) .

وفي القرن الخامس للهجرة وضعت هذه الروح موضع التشكك ، لقد اضطرب النشاط الزراعي في الأندلس قبل ذلك إثر هجمات

البعثات العسكرية ، غير أن نهب المحاصيل الناضجة من طرف الملوك النصارى مثل الفونسو السادس ومن طرف ملوك الطوائف أنفسهم وصل في القرن الخامس العجري إلى درجة لم تعرف من قبل . إن تكرار هذا النعب ودوامه طيلة فترة ملوك الطوائف قد أدى إلى خسائر جسيمة ؛ ومن المدهش حقاً أن نلاحظ أنه رغم تخريب الأراضي المزروعة فإن الاندلسيين لم يفقدوا أبداً الروح الدينامية التي كانوا يعملون بها في الإنتاج الزراعي ، من المؤكد أن هذه الروح التي ظلت سائدة طيلة تاريخ الاندلس إلى فترة النصرين في غرناطة قد انتقلت بدورها إلى الموريسكين بعد أن استولى المسيحيون على الاندلس ، وقد عبر ديفغو هورتادو دي ميندونا (Diego Hurtado de Mendez) ، الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين ، عن إعجابه بالعمل الزراعي الذي كان الموريسكيون يواظبون عليه في فلاة أراضيهم (10) .

وإذا نظرنا إلى الموضوع نظرة أوسع نجد أن نهب المحاصيل الزراعية كان نصيب اقتصاد دول الطوائف بضربة قاسية ولكنها لم تكن مائتة لا يتجاوز ، ذلك لأن الحصول الزراعي يمكن تعويضه بعكس الاحتياطات المعدنية .

(ج) النشاط الصناعي .

كان دور القطاع الصناعي في نظم دول الطوائف الاقتصادية مكملًا لدور قطاعي الزراعة والتجارة . وكان الحرفيون يصنعون

منتجات تامة باستعمال المواد الاولية المتوفرة وبذلك يمدون الاسواق الداخلية المحلية بالعديد من تلك المنتجات وكذلك الاسواق الخارجية ولكن بنسبة أقل .

وليس لدينا تفاصيل عن تنظيم النشاط الصناعي في الاندلس سواً بالنسبة للقرن الخامس للهجرة أم بالنسبة للفترات الأخرى ، غير أن طبيعة ذلك النشاط وتنوعه ينعكس بشكل واسع في الانتاج الصناعي والذي تتوفر على معلومات أكثر بخصوصه فهذا القطاع - ولا ينبغي لنا أن نضخم أو نقلل من أهميته - كان موجهاً في البداية لتلبية طلب الاسواق الداخلية ، وقد كانت المنتجات الصناعية متنوعة في الكم والكيف : صناعة النسيج (صوف ، حرير) الخبز (الأواني الطينية والقرمود) وصناعة الجلود (السروج) صناعة التعدين (من التسليح إلى صناعة القطع النقدية خاصة الذهبية والفضية ، التي كانت ترمز في الوقت ذاته إلى قوة الحاكمين) البناء والهندسة المعمارية (من إقامة نظم الري إلى بناء المساجد أو القصور التي اعترف الكل بمعظمتها) فن المخطوطات (وتمعكس وفرتها النشاط المعم للناسخين) ، وقد بدع حرفيو بعض الدول في ميادين معينة : تشييد القصور البهية والعمارات العمومية بإشبيلية وبناء السفن الذي تطور كثيراً في دانية (التي بعث ملكها مجاهد ابن يوسف العامري أسطولاً لغزو سردينيا) ربيع الثاني 406 هـ . - غشت - شتمبر 1015 م . (11) ، لقد كانت إذن صناعة كل دولة طائفية موجهة لتلبية حاجات تلك الدولة أساساً : أما التبادل بين

مختلف الدول فقد استمر في الازدهار غير أن النشاط الزراعي يجب اعتباره جزءاً من اقتصاد مهني على الاكتفاء الذاتي والذي كان غالباً في كل دولة من تلك الدول المتمركزة حول ذاتها .

(٥) النشاط التجاري :

كان هناك تبادل دائم بين سكان المناطق القروية وسكان المناطق الحضرية ، وبالإضافة إلى النشاط السلمي المحلي في المدن والمناطق القروية المحيطة كانت التجارة أيضاً نشيطة بين مختلف المدن الأندلسية وقد أدى ذلك إلى تخصص مختلف المناطق بإنتاجات خاصة : إشبيلية كانت مشهورة بزيت الزيتون وصناعة الحديد (42) ولبسة بصناعة الزجاج (13) ، وقرطبة بالرخام الأحمر (14) ، إلا أن التبادل بين دول الطوائف لم يكن ينبس إلا بصفة تكميلية وذلك نتيجة العداً الذي كان سائداً بينها وكانت كل دولة تسمى لتكفي نفسها بنفسها ، وبالتالي كانت التجارة المحلية مكثفة ، إذ كل دولة تهدف إلى إشباع حاجاتها الخاصة قبل أن تفكر في التبادل مقابل منتوجاتها الفائضة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هم كل ملك من ملوك الطوائف أن يزيد ثروة تلك الدولة كان يثير حالة الحرب بين الدول مما أدى إلى إبطاء سير التجارة فيما بينها ، إلا أن تلك العوائق لم تكن عافية لايقاف التجارة نهائياً ، وكثافة النشاط التجاري سواءً في خارج دول الطوائف أو فيما بينهما في إطار المحيط التجاري المحكم تنظيمه كانت تعود أساساً إلى ازدهار المدن الكبرى مثل إشبيلية .

إن تعقيد النشاط التجاري بالاندلس قد أدى إلى تطوير قانون يحدد التنظيم وتوجد وسائل في الحسبة بالنسبة لمختلف الفترات التاريخية (15) ، ورغم أن وجود المحتسب وهو الموظف المكلف بمراقبة انتظام النشاط التجاري في أسواق الاندلس هو أمر واقع فإننا نفتقد التفاصيل التي نسمع لنا بدراسة سلطانه ومسؤولياته ، بكل عمق والقيام بمقارنات بين مختلف المدن في فترات مختلفة بهذا الصدد (16) ، وقد رسمت كثير من الدراسات الخصائص العامة لهذه الوظيفة (17) ، في حين أن الدراسات المتعلقة بالتنظيم الحضري في الاندلس قد ساهمت في إطلاعنا على الخلفية والسمات الغالبة للسوق (18) .

وفي نهاية الأمر نستطيع القول إن التجارة الدولية بين الاندلس والمغرب الكبير والمشرق وأوروبا كانت تكمل التجارة المحلية داخل المناطق الحضرية بالاندلس . غير أن تلك التجارة وطيلة القرن الخامس الهجري تعرضت لصدمات خطيرة ، ولكي نقيس أهميتها الحقبة يجب علينا تصورهما في إطار موسع للتجارة في العالم الإسلامي . لقد كانت الاندلس تشكل ملتقى طرق بين أوروبا والمشرق فيما يخص تجارة العبيد . وكانت تستورد كذلك الذهب من السودان ، المنطقة التي تمتد من السنغال إلى التشاد مروراً بالمراكز المغربية مثل سجلماسة . والمنتجات الأخرى مثل الفراء وخشب أوروبا وعلك إفريقيا الغربية كان أيضاً يأخذ مكانة مهمة . وفي المقابل كانت الاندلس تصدر المنتجات الزراعية مثل زيت الزيتون ، ومنتجات

الرفاهية مثل الملبد (نوع من القماش الحريري الملون) والقرمود (19) وكانت العلاقات الدينية والثقافية مكتملة للتجارة مع المشرق ، إلا أن تدهور التجارة في العالم الاسلامي برز خلال القرن الخامس الهجري . ونظراً لهيمنة التجارة الاندلسية على غيرها ، فقد كانت الاندلس أكثر المناطق تضرراً من ذلك التدهور وقد استفحل ذلك التدهور بل زاد في خطورة المشاكل الاقتصادية الداخلية في دول الطوائف .

وإن تقوية الممالك المسيحية في شمال إسبانيا وأردهار مملكة ليون وقشتالة خلال القرن الخامس يجب أن نضيفها أيضاً إلى بروز قوى اقتصادية هائلة على الصعيد الاوربي وإلى الوحدة الروحية التي كانت تقودها روما والتي ساهمت في تطوير تلك القوى . وكذلك تأثرت العلاقات التجارية الاندلسية مع إفريقيا خلال تلك الفترة من جراء ازدهار دولة المرابطين في المغرب . إن تغير مراكز القوى الذي حدث في العالم الاسلامي مع توسع الفاطميين في مصر وتنافسهم مع العباسيين في بغداد قد أثر في المسارات التجارية سواءً في المشرق أو بين إفريقيا الشمالية والاندلس (20) . ومع ذلك إذا كانت طبيعة التجارة بين الاندلس وأوروبا وإفريقيا والمشرق قد تغيرت جوهرياً فإن التجارة في مجموعها ظلت قائمة ولم تنوقف .

(3) الانحطاط الاقتصادي الداخلي

إن عصر دول الطوائف الذي تلا فترة رخاء حكم بني أمية والفترة الوسيطة لبني أبي عامر ، قد طبعها انحطاط اقتصادي مستمر

وتدريجي ، وإن نحن أخذنا في إطار منظور أوسع فإن الإطار العام لنظام دول الطوائف كان هو ذاته مطبوعاً بالهشاشة اقتصادياً وسياسياً . لقد كان يحتوي ذلك النظام إذن في ذاته على بذور انهياره الذاتي ، فغياب سياسة اقتصادية عقلانية في الدول الطائفية كان أيضاً يشكل داهماً على كل منها ، وساهمت الصراعات السياسية الداخلية وحالة الحرب المستمرة بين الدول الطائفية التي كانت الغنيمة هي الحافز الاقتصادي الأهم بالنسبة إليها ، في تفاقم الضعف المالي والإسراع في الانحطاط الاقتصادي الداخلي . وبما أن نظام دول الطوائف كان اقتصادياً وسياسياً ، فلم يستطع أن يكون كياناً صلباً ولم يستطع الحفاظ على البقاء إلا بصفة مؤقتة ، فعدم الاستقرار كان يجعل تحديد سياسة اقتصادية على مدى بعيد أمراً مستحيلاً . وكان طبيعياً إذن أن يبلغ تزايد النهاية القصوى بما فيها استحالة الحفاظ على تطور اقتصادي .

ورغم أن نظام دول الطوائف كان يتوفر على العناصر الأساسية الخاصة بتحديد دولة ذات سيادة ، فإنه كان يحمل في ذات الوقت عناصر خفية كانت تجعله عاجزاً عن التوسع وعن إقامة كيان قوي يستطيع الصمود إلى مدى طويل أمام الضغوط الداخلية والخارجية . فأولاً ، إن كانت الحدود بين دول الطوائف محددة فإن مساحة كل منها كانت صغيرة . وأكبرها مثل دولة إشبيلية وبلطوس وسرقسطة وطيطة لم تكن واسعة بالقدر الذي تستطيع به أن تكون دولة قوية . وكان على تلك الدول بالإضافة إلى ذلك أن تواجه قوة

توسعية وفعلي بها مملكة ليون وقشتالة واندولة المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين فيما بعد ، وثانياً ، كان نكل دولة طائفية على حدة عدد محدود من السكان . فكانت الاندلس في مجموعها كثيفة نسبياً ، ولكن إذا نظرنا إلى الدول الطائفية الصغيرة مثل : شلب وقرمونة ورندة وأركوش ، أو الجزيرة الخضراء ، سوف ينكشف لنا أن عدد سكانها محدود جداً . والدول الطائفية التي كانت تعتبر دولا كبرى طبقاً لمعيار الدولة الاندلسية النموذجية خلال تلك الحقبة كانت تنقصها الباهية الضرورية التي يمكن أن تجعل منها كياناً اقتصادياً صلباً ودائماً .

وثالثاً ، إن حكومات دول الطوائف كانت غالباً دولا أو نووقراطية (حكم الاقلية) ، باستثناء بني جهور في قرطبة (422 - 463 هـ - 1031 - 1070 م .) ، فملوك الطوائف كانوا يكونون صميم نظم دولهم الطائفية إذ كانوا يسيطرون على جميع سلط التقرير علاوة على وضعهم للقوانين وإشرافهم على تنفيذها . وكان الجهاز العسكري والسياسي يوجد رهن إشارتهم كما كان الهدف الرئيسي منه يتجلى في حمايتهم ، وكانت النظم الحكومية الأكثر تعقيداً في دول الطوائف القوية مبنية على نماذج أخرى خاصة نموذج نظام دولة بني أمية . لكن تلك النماذج لم تكن تطابق الحاجات الحقيقية للسكان ؛ بل كانت تخدم قضية الزيادة من هيمنة الحاكم ، والمبالغة في سلطاته الحقيقية . وانتشرت هذه الصورة في الاندلس على نطاق واسع . ورابعاً كانت الحكومة عاجزة عن فرض سلطتها كاملة على

السكان داخل حدود الدولة الطائفة . وكان على ملوك الطوائف أن يواجهوا التمردات الداخلية علاوة على مجابهة التهديد الخطير للتدخل العسكري الخارجي ، فسيادتها كانت إذن معرضة للانقطاع والتجزئة وبالتالي إلى الاندثار النهائي . ولم تكن خطورة النتائج الاقتصادية لهذه الدولة نسائي خطورة أبعادها السياسية ، فالانحطاط الاقتصادي إذن كان يمثل تطوراً عادياً لتلك الدول ذلك أن الشرط الأساسي لبقاء أي نظام اقتصادي كان هو الاستقرار في كل أشكاله . وقد كان الاقتصاد العيش لدول الطوائف مهتماً للفشل .

ومما كان ينقص ملوك الطوائف سياسة اقتصادية شاملة مرفقة على حاجات السكان ومصالح الدول في المدى البعيد ، وقد شكل ذلك بالفعل أخطر ضعف عانت منه دول الطوائف . ومع ذلك ظل السير الاقتصادي عادياً على المستوى الداخلي . ومن بين الخصائص الاقتصادية الأساسية في دول الطوائف يمكن ذكر وجود أسواق حضرية ، محلية وعلاقات تجارية بين المناطق القروية والمناطق الحضرية ، وأخيراً نذكر نظاماً تقديماً خاصاً بها . لكن بعد فترة حكم بني أبي تامر (370 - 399 هـ . - 880 - 1069 م .) حين بدأت تجزئة الأندلس ، لم تعد تلك المراكز الاقتصادية المحلية مدرجة في البنية الفوقية الاقتصادية العامة للأندلس التي تعظمت فلم يهتز الجهاز الاقتصادي الشامل فحسب بل اهتز المناخ السلمي الذي كان سائداً في فترة بني أمية إذ فلاه عدم استقرار واختلال الأمن دائمين من جراء التقسيم السياسي والاقتصادي لدول الطوائف .

ويمكننا - في إطار جوهر السهاسة التي اتبعتها ملوك الطوائف والتي تعكس فشلهم الذريع في حفاظهم على الحكم - أن نلتبس عجزهم عن استيعاب الاوضاع الاقتصادية الشمولية في الاندلس وعن تحديد اتجاهاتها المختلفة إلى جانب ذلك كان النظام الاقتصادي يعاني من إدارة ضعيفة ، وكان يخضع للضغوط الخارجية الساحقة . إن تمركز ملوك الطوائف حول ذاتهم أدى فعلا إلى سقوط اقتصادهم وجعل من دويلاتهم لقممة سائفة تسيل لعاب ملك ليون وقشتالة ، وغيره مثل : ككونت برشلونة ، بل حتى المغامرين المسيحيين المستقلين ، خاصة السيد (le Cid) رديغو دياث وكانت ميزانية دول الطوائف توجه إما إلى نفقات غير منتجة وإما إلى استثمارات قصيرة المدى وليس فيها مغامرة كبيرة وبهدف الحصول على ربح أكيد سريع . ونرى ملوك الطوائف يبذرون أموالهم في بلاطاتهم وقصورهم وفي الترفيه وغير ذلك مما يشبع رغباتهم وشهواتهم الخاصة . والانتاج الادبي الرائع لهذه الفترة يعكس مستوى الحياة الرخدة المترفة للطبقة الحاكمة وأسلوب حياتها الرفيع . وكان العديد من الشعراء البارزين في خدمة بلاطات ملوك الطوائف في القرن الخامس ويعكس شعرهم الحياة في البلاط ، تلك الحياة التي كانت تفوق في بعض الحالات نرف بلاطات الخلفاء الامويين . ولا مجال هنا لاعطاء وصف مفصل عن قصور أقوى ملوك الطوائف وثنافسهم في هذا المجال ، ولكن تجدر الإشارة في إطار هذه الدراسة ، إلى أن نفقاتهم كانت تشكل عبئا ثقيلا على الخزينة غالباً ما تتجاوز إمكاناتها .

وكانت الإدارة - خاصة في دول الطوائف الكبرى - تشكل أيضاً عبئاً ثقيلاً على الميزانية . بالإضافة إلى ذلك كان العديد من الموظفين يعينون لاهداف غير وظيفية وهكذا كان عدد كبير من الوزراء في بلاط بعض الحكام من دولة بني عباد إشبيلية مثل المعتضد ابن عباد أو المعتمد بن عباد يعينون اعتباراً لمؤهلاتهم الأدبية وشعرتهم . وكانت العواقب السياسية والاقتصادية لهذه الاتجاهات وخيمة في الغالب ويتمثل ذلك في حالة ابن عمار الذي استغل نفوذه في إشبيلية بطريقة علنية لتوجيه السياسة الخارجية نحو تحالفات غير مجددة ومكلفة مع الفونسو السادس عاهل مملكة قشتالة وليون (21) . وقد كان لهذه السياسة دور في إضعاف بعض الدول الطائفية مثل غرناطة من جهة ، وتقوية مملكة قشتالة من جهة أخرى ، وقررت هذه الأخيرة محاولة إلحاق كل دول الطوائف بها بما فيها إشبيلية ، وإثرائتيلاً الفونسو السادس على طليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . (22) ، ولكن رغم نقصان فعالية البنية الإدارية فإنها كانت تلعب دوراً مهماً ، وهذا يعنى بالنسبة للإدارة الإشبيلية التي كانت معقدة ومتدرجة هرمياً والتي تشتمل العديد من الموظفين الوسطاء والوزراء والمتصرفين والكتاب إلخ . . . وتنطبق هذه الملاحظة على الإدارات في دول طائفية أخرى كانت تميزها البساطة بشكل أوضح حيث كان الحاكم فيها يشرف على إدارة شؤون دولته بصفة مباشرة (23) .

وحين اضطر ملوك الطوائف إلى اتخاذ قرارات تجاه مواقف غير متوقعة فعلوا ذلك بطريقة مرتجلة - ودون تحليل وتفكير جدي مما

كان له وقع على السير الاقتصادي للدول الطائفية . ولدينا عدة أمثلة عن قرارات مهمة اتخذها ملوك الطوائف بسرعة أو تحت تأثير الانفعال ولكن ما يهمنا هو الاساس اللاعقلاني لتوجيه سياستهم الاقتصادية العامة على الصعيد الداخلي أو على صعيد الدول الطائفية الأخرى . فعلى الصعيد الداخلي كان ملوك الطوائف يرفعون نسبة الضرائب إلى درجة لا يمكن أن تؤدي في النهاية بالافراد المتضررين منها إلا إلى التمرد . وسنتناول بالتفصيل السياسة الجبائية فيما يلي ضمن هذا الفصل .

أما فيما يخص الآثار المباشرة للصراعات والحروب الداخلية فيما بين دول الطوائف على الانهيار الاقتصادي فيمكن تقييدها على مستويات عديدة . وكانت الدول التي تقوم بمبادرة هجوم عسكري واقتصادي ضد الدول الأخرى يكلفها ذلك أثماناً باهضة ، وقد كانت جيوش تلك الدول تتكون عموماً ، كلها أو أغلبها ، من المؤيدين المحليين للملك : كما هو الامر في غرناطة ومانقة ، وقرمونة وأغلب الدول . أما بالنسبة للدول الأكثر قوة مثل دولة إشبيلية ، في عهد بني عباد ، ودولة طليطلة في عهد بني شي النون فقد كانت تعتمد على عناصر أخرى ، ففي سنة 414 هـ . - 1023 م كون القاضي ابن عباد جيشاً يتشكل في أغلبه من المرتزقة والعميد الذين كان أصل غالبيتهم من المغرب وإفريقيا (24) .

وأما على المستوى الاقتصادي فقد عانى عدد من ملوك الطوائف من حالة التبعية للمرتزقة المسيحيين القادمين من الشمال الاسباني .

ويصف الامير عبد الله بن بلقين التحالفات المستمرة بين دولة
إشبيلية وبين الفونسو السادس التي أدت إلى الهجوم والنهب المتكرر
للفرق الاشبيلية ضد غرناطة (25) . وأصبحت مشاركة الجنود المسيحيين
أكثر خطورة حين كان هؤلاء يساندون إحدى الفصائل المتقاتلة
داخل الدولة الواحدة . وقد حدث ذلك في طليطلة حين اعتمد القادر
ابن ذو النون على فرق الفونسو السادس لقلب حكم المنوكل بن
الافطس بطليطلة (26) .

وبالإضافة إلى المصاريف الضرورية للحفاظ على جيوشهم النظامية
والالتزامات السنوية التي يفرضها الملوك المسيحيون . كانت
الشروط المالية والسياسية التي تفرضها الفرق العسكرية المسيحية
عند القيام بحملات عسكرية من هذا النوع ، وهي شروط كان
لابد من التفاوض حولها على حدة . ولنشر إلى أن تلك التحالفات
لم تكن تبنى دئماً مقصدها وكانت تؤدي إلى فرض قهر مالي على
دول الطوائف التي كانت تعقدها وبذلك كانت ضحية لها دون أن
تحصل على أي منفعة من ورائها . وكان المسيحيون هم المستفيدين
الوحيدين منها .

إلى جانب العبء المالي الذي كان مفروضاً على دول الطوائف
لكي تحافظ على جيوشها . كانت الحروب تؤدي إلى خسائر كبيرة
للدول التي كانت تتعرض للهجمات والنهب المستمرين . وكان
بنو عباد في إشبيلية يقومون بتصديات مستمرة ضد الدول الصغيرة
المجاورة وبذلك أدت إلى ابتلاعها نهائياً : كما هو الامر بالنسبة

لرندة ، وقرمونة والجزيرة الخضراء ، ومورورو وأرقوش وشلب .
ولم تكن الحروب مجرد حدث هجوم الدول الأقوى على من هي
أضعف منها ، ذلك أن الصراعات كانت توجد دائماً حتى بين
الدول الضعيفة ذاتها . وكانت الاسباب مختلفة ولكن الآثار الاقتصادية
الداخلية لهذه الحروب لم تكن أقل ضرراً . وهكذا كان الامر بالنسبة
للمواجهات العسكرية بين غرناطة ومالقة (27) . وتجب الإشارة إلى
أن الاضرار المترتبة عن الحروب لم تكن تلحق الدول الضعيفة فقط :
فدول الطوائف الأقوى كان لا بد أن تخضع هي الأخرى لردود فعل
سلبية نتيجة هجوماتها ، وهكذا نذكر معركة باجة سنة 421 هـ . -
1030 م . التي دارت بين جيش بطليوس وجيش إشبيلية ، ونذكر
أيضاً انتصار ابن الأفطس سنة 425 هـ . - 1033 م . ببطلبيوس على
جيش إشبيلية الذي كان يقوده وليد القاضي ابن عباد (28) . وفي
وقت لاحق سنة 442 هـ . - 1050 م . نجد جيش إشبيلية يلحق خسائر
قادحة بالمظفر بن الأفطس في لبله (29) ، من جهة أخرى فشلت
هجمات ابن ذو النون ضد قرطبة حين لجأ الحاكم القرطبي إلى
مساندة المعتمد بن عباد سنة 461 هـ . - 1070 م . (30) .

إن الاستيلاء على الغنائم الذي كان أحد دواعي الحرب بين
دول الطوائف كان حافزاً اقتصادياً ، ولكن إذا كانت الغنائم مصدراً
لمداخل إضافية بالنسبة للبعض فقد كانت تساهم أيضاً في تحطيم أو
إضعاف البعض الآخر على الصعيد الاقتصادي . إلى جانب ذلك لم
تكن الغنائم مصدراً أحياناً للمداخل لعملية الهجوم واللاحق لم تكن

لتتابع بشكل نهائي ومن جهة أخرى كانت المصاريف التي تستلزمها البعثات الحربية والحفاظ على الجيش النظامي لم تكن قيمة الغنائم المحصل عليها تعويضها . إن نجاح الاسلحة كان له الفضل في نصحيم نفوذ ملوك الطوائف المنتصرة لكن البعثات لم تكن مربحة اقتصادياً ، والنتيجة الخطيرة لسياسة الحرب هذه كانت على أية حال هي الاضعاف الجماعي لدول الطوائف بقدر ما صكفت الحروب نشن على حساب سياسة اقتصادية شاملة متطورة على مدى طويل مرنكرة على المصلحة الاقتصادية للاندلس ككل ، وعلى الدفاع المشترك ضد الاخطار العسكرية والاقتصادية المهددة من الجنوب والشمال .

(8) المشاكل النقدية :

إن النظم النقدية التخنية في دول الطوائف هي انعكاس للانقسام السياسي والاقتصادي الموجود داخل الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة . وكان ملوك الطوائف الأقوى يسكون عملانهم لاطهار استقلالهم الاقتصادي ، وتسجيل حيثياتهم على القطع النقدية لنشر صورتهم كحكام خارج دولتهم (31) . والنقود المختلفة التي وصلتنا عن تلك الفترة تعطي لنا مادة كافية وضرورية للقيام بدراسة نقدية شاملة فيما يخص دول الطوائف . وبالرغم من أنها تكل رؤيتنا للوضع السياسي والاقتصادي وتطوره في الاندلس في القرن الخامس الهجري فإن تلك النقود لا يمكن أن تعطينا معلومات عن وجود نظام نقدي قوي وقار أو عدمه ورغم أن قطعة النقود تحمل

إسم أو لقب المعتمد بن عباد أو المظفر ابن الاطلس ، فنحن نعرف أن قيمتها لم تكن تتعدى سوى بطبيعة الممدن الذي صنعت منه ويشق له ، ذلك أن ليس هناك ضمانات أخرى للمعدنة وغطاء المطلوب فالعملة إنما تعمل احتياطاً قيمياً (Alored Value) .

وكانت العملة التي يسكها أحد ملوك الطوائف يمكن بالتالي أن تتداول خارج الاندلس إلى أن نصل إلى إسبانيا الشمالية أو إلى المغرب الكبير . وفي نهاية فترة ملوك الطوائف كانت النقود التي سكها المرابطون تتداول هي أيضاً في الاندلس .

وطيلة المرحلة الاولى من عهد دول الطوائف كانت المعادن وفيرة بالاندلس خصوصاً الذهب والفضة ، فإن النظام النقدي كان سليماً . وإلى حد القرن الخامس الهجري كان الاندلس قد جلب من الخارج كميات كبيرة من الذهب ومعادن نفيسة أخرى ، وكان يستجلبها من السودان (المنطقة بين السنغال والتشاد) . ولكن عند نهاية فترة دول الطوائف كانت الجزية المفروضة عليهم من طرف الملوك والرؤساء المسيحيين سبباً في انتقال القسط الاوفر من المعادن النفيسة إلى خصومهم ووجد ملوك الطوائف أنفسهم في وضع لا يستطيعون معه أن يواجهوا متطلبات الجزية حتى ولو لجأوا إلى فرض الضرائب أو غير ذلك من الوسائل . وهكذا كان معدن النقود يخالط بمعادن أخرى أقل جودة وبذلك تنقص قيمتها كلما زادت نسبة ذلك الخلط . وعلى المستوى الداخلي كان ثمر هذه القطع النقدية شائعاً غير أنها رفضت من طرف مبعوث الفونسو السادس

إلى المعتمد بن عباد . إن تناقص قيمة العملة في دول الطوائف كان أول مؤشر على نهايتها .

وليس من السهل أن نقدر بالضبط قيمة العملة في الأندلس خلال القرن الخامس رغم أن بعض المحاولات تمت في هذا الاتجاه (32) . وبالإضافة إلى ندرتها فإن المعلومات المتوفرة متناقضة فأسعارها لم تكن ثابتة وقيمة البضائع تتغير بشكل واضح حسب الظروف . إن الطابع المتغير لنظام الأسعار كان راجعاً إلى ثلاثة عوامل أساسية : أولاً ، انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي كان له نتائج سيئة على الأسعار وقيمة البضائع ، فقد كانت هناك ثروات تولد وأخرى تندثر بسرعة كبيرة جداً . وفي جو انعدام الأمن السائد كانت الأسعار ترتفع عبثاً دون أي تناسب مع قيمة البضائع ، وثانياً ، قراصم ثروات ضخمة لدى ملوك الطوائف وحاشيتهم في فترات زمنية قصيرة جداً . وكان ينفق الجزء الكبير من تلك الثروات بطريقة غير منتجة أو بيلدر تبذيراً . لقد كان المعتمد بن عباد يعاني لشعرائه هدايا تصل إلى 500 مثقال (33) . وثالثاً ، وحوالي نهاية فترة الطوائف تعرضت الأندلس لتخفيض قيمة عملتها مما أدى إلى الإسراع في تضخم الأسعار . وأخيراً كانت المبالغ المالية التي نخرج من الأندلس نفوق المبالغ التي تدخل إليها . وكان ذلك يرجع من جهة إلى ارتفاع قدر الجزية التي طالب بها الملوك المسيحيون ملوك الطوائف ، ومن جهة أخرى بفعل الهجومات العسكرية التي يقوم بها «المستردون» المسيحيون . وبعبارة حديثة يمكن القول إننا نستطيع في هذه

الوضعية استكناه عناصر الاتجاه التضخمي المفرط في أبسط مظاهره : التشكك، وازدياد النقود المتداولة دون نمو مقابل للطاقة الانتاجية مما أدى إلى ارتفاع أسعار المنتوجات وبالإضافة إلى ارتفاع المبالغ التي كانت تؤدي في شكل جزية وكانت هذه الجزية التي فرضها الملوك المسيحيون تمثل عبئاً مالياً ثقيلاً على اقتصادها وفي ذات الوقت تعتبر مؤشراً على قوتها الاقتصادية كلها . وكانت تستخلص من المداخيل الصافية بعد تأدية كل المصاريف الحيوية، وكان ذلك لايزال في مستطاعهم . وفي مقابل أداء الجزية كانت تقدم لهم الحماية وتحالفات يحاولون من خلالها ضمان مصالحهم بطرق مختلفة . من بينها معاجمة دول طائفية أخرى واحتلال بعض حصونها غير أن مقدار الجزية المفروض تزايد إلى أن وصل إلى حد يتجاوز مقدرتهم . ولم يكن أمامهم أي حل سوى تأديتها أمام التهديد الذي كانت تمارس عليهم الجيوش المسيحية المستعدة لاصابهم بأضرار خطيرة في حالة رفض التأدية . وقد تجاوز مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف مداخيلهم مما أدى إلى تدهور اقتصادها إلى درجة لم يسبق مثيلها وأوصلهم إلى الإفلاس . فكم كان مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف ؟ لقد كان يختلف باختلاف الظروف التي فرضت فيها ، ذلك أنه حين كان بعض ملوك الطوائف يتدمرون من العبء المالي الذي لم يعودوا يتحملونه، كان آخرون يزيدون في عروضهم مقابل مساعدة عسكرية أو سياسية . وهكذا نجد وزير المعتمد بن عباد ، ابن تمار ، في مفاوضة مع الفونسو السادس يعده بـ : 50,000 منقال

ليقنعه بالانضمام إلى القوات الاشبيلية في محاربة هذه الأخيرة لغرناطة (34) ، وهذا يدل على أن إشبيلية كانت قادرة على دفع ذلك المبلغ بسهولة ، أو أن المساعدة العسكرية لمملكة ليون وقشتالة كانت ستتيح لاشبيلية فرصة الحصول على فوائد تساوي : 50.000 مثقال على الأقل ، غير أن هذا الاستدلال يرتكز على فرضية وهي أن مبعوثي حكام إشبيلية كانوا يفاوضون على أساس قوة دولتهم المالية لتحقيق مصالحها . ولم تكن هذه هي الوضعية الحقيقية : فالمبالغ الضخمة التي يعرضها المفاوضون كانت في الواقع موجهة لتحقيق الطموحات الشخصية لابن عمار ورغبته في اضعاف إشبيلية . وذلك هو الاتهام الموجه ضده من طرف عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة ، وإن الصراع الذي قام بين هذا الأخير والمعتمد بن عباد لدلائل على ذلك (35) . أضف إلى ذلك أن ابن عمار زيادة على كونه عرض المبلغ المشار إليه على الفونسو السادس فقد قبل أن يتخلى عن الغنيمة العينية والنقدية التي قد يحصل عليها في حالة الهجوم على غرناطة (36) . وبمكس ذلك كان عبد الله بن بلقين أكثر تردداً فيما يتعلق بالجزية التي سيعرضها على الفونسو السادس . وبعد أن رفض تأدية مبلغ 10.000 مثقال سنوياً لالفونسو تعرض لضغوط عسكرية ونفسية ، إلى أن أرغم على دفع 30.000 مثقال (37) . لقد استغل الفونسو السادس طموح ابن عمار في الاستيلاء على غرناطة بقصد زيادة ضغوطه على حاكم هذه الدولة الطائفية وبذلك حصل على جزية قيمتها أكثر ارتفاعاً من تلك والتي طلبها من عبد الله بن

بلقين في البداية . والتمن المرتفع الذي عرضه ابن عمار على الفونسو مقابل مساعدته العسكرية ضد غرناطة خلال الفترة الاولى من حقبة دول الطوائف كان يبرر أساساً باعتبارات سياسية وبالاسنيلا على الحصون التابعة لدولة غرناطة الطائفية مما سيؤدي إلى تدعيم صورة إشبيلية وتحسين سمعتها بصفتها دولة طائفية قوية . لكن الآثار المالية لهذه السياسة ومضموناتها على المدى الطويل لم تؤخذ في الاعتبار ، ثم إن الوضعية تغيرت سنة 478 هـ . - 1086 م . حين أدت الجزية المفروضة على إشبيلية بنقود مغشوشة ، وقد رفضت تلك النقود بصرامة من طرف السبعوث اليهودي لالفونسو السادس ابن شالب مما دفع بالمعتمد بن عباد إلى قتله (38) ، وبذلك قام صراع مباشر بينه وبين الفونسو السادس نتج عنه أن لجأ ملوك الطوائف إلى الاستتجاد بيوسف بن تاشفين .

وقد تغيرت قيمة العملة بتغير الظروف السياسية ، وهكذا رغم أن النقود نقصت قيمتها طيلة فترة ملوك الطوائف ، فإن توحيد الاندلس نحت لواء المرابطين جعل حداً لتناقص قيمة النقد وانخفاضه ، وهذا التوالي للانخفاض والارتفاع من النقد يجعل من الصعب مقارنة الأرقام طيلة المراحل المختلفة للقرن الخامس الهجري . وهذه المعايير ربما تفسر بشكل أفضل فوضى الأسعار ، فكان مبلغ 50 مثقال مثلاً هو السعر المعروف مقابل المشاركة في مؤامرة لقلب حاكم ، وكذلك مقابل نظم قصيدة رائعة (39) ، وهناك مثل آخر حاكم مالقة تميم بن بلقين بن زيري بعث إلى القاضي بن سهل مبلغ

50 مثقالا كرشوة لدفعه إلى تشويه سمعة أخيه عبد الله بن بلقين لدى يوسف بن قاشفين إذ كان يرغب في كسب تقديره (40). وقد رفض ابن سهل هذا المبلغ لأنه غير كاف ولكن لرفضه المبدأ. وعدم انتظام الاسعار، هذا طيلة القرن الخامس الهجري يظهر من خلال عدة مقارنات يمكن القيام بها، فطيلة الفترة الاولى من عصر ملوك الطوائف كانت لمدينة وادي آش في دولة غرناطة الطائفية مدخول سنوي من 15 000 دينار حين كان يديرها علي بن القروي خلال حكم باديس بن زيري جد عبد الله بن بلقين. ولكن حين كلف حاكم غرناطة وزيره اليهودي أبا يوسف بن نقرالة بإدارة هذه المدينة تضاعف مدخولها ووصل إلى 100,000 دينار (41). والمدخول الزهيد لوادي آش خلال إدارة علي ربما يعود إلى أن هذا الأخير كان يحتفظ لنفسه بغالبية الارباح إذ كان الولاة على المدن والحصون يتمتعون بكل السلطات. ومن جهة أخرى كان الوالي اليهودي أكثر كفاءة، ومهما كانت الاسباب في ذلك فإن التزايد كان كبيراً، وأكبر المبالغ التي تشير إليها المصادر تصل إلى 150,000 مثقال، نضاف إليها خمسمائة مدي من طعام ضافية لكل ليلة مدة مقامه - الفونسو - عليه، مقابل إعادة تولية القادر بن ذي النون حاكماً على طليطلة (42) وكان ذلك سنة 478 هـ. أي قبل أن يستولي الفونسو على طليطلة بقليل، فبلغ النقود الذي كان الملوك المسيحيون يستحوذون عليه من ملوك الطوائف إما على شكل جزية أو كشرط للتحالف وصل إلى القمة في الحالة هذه،

ويوضح هذا المثال الثروة المتراكمة لدى ملوك الطوائف وكذلك الانفاق الذي كانوا يبذرون به تلك الثورة ، ومبلغ 16,000 مثقال الذي ربما تركه الامير عبد الله بن بلقين بعد خضوع غرناطة لجيش يوسف بن تاشفين يكون تناقضاً فاحشاً مع القدر الذي قدمه القادر ابن ذي النون لالفونسو السادس (43) .

والخلاصة أن النقود بصفتها حافزاً على الانتاج الزراعي والحرفي قد كان له إسهام هام في اقتصاد دول الطوائف ، خاصة حين نعتبر أن أساس هذا الاقتصاد هو السوق الذي يقوم إلى حد ما على التخصص في العمل ، إن ذلك النظام النقدي كان يخلق الظروف اللازمة لانعاش، لحفز الفعالية الاقتصادية ، ولكن كانت هناك قوى أخرى مهيمنة هي التي حددت في النهاية المسار العام نحو الانحطاط الاقتصادي في الأندلس .

4 (التبعية الخارجية أو عهد الجزية)

إلى جانب هشاشة نظام دول الطوائف الاقتصادي وإلى جانب غياب سياسة اقتصادية داخلية ، والصراعات الداخلية بين دول الطوائف كان استخلاص الجزية من طرف ملوك وزعماء إسبانيا الشمالية يكون أخطر دافع في الاسراع بالانحطاط الاقتصادي في دول الطوائف ، وهذه الجزية التي كانوا مرغمين على تأديتها لمسيحيي الشمال تزايدت تدريجياً طبقاً لتزايد قوة أولئك المسيحيين وخاصة قوة الفونسو السادس . وكانت آثار تلك السياسة مهمة بالنسبة

للممالك المسيحية خاصة مملكة ليون وقشتالة وأيضاً بالنسبة لدول
الطوائف ، فمسيحيو شمال إسبانيا طيلة القرن الخامس للهجرة ازداد
نمو ثروتهم وقوتهم ، ولكي نقدر أهمية هذا الانجاء علينا أن نذكر
خلفتها ولو باختصار. فوراً تلك التطورات كانت توجد قوى
اجتماعية داخلية في مملكة ليون وقشتالة ودول الطوائف على السواء .
لقد دعم الفونسو في مملكة ليون وقشتالة قوته بالتحالف مع الكنيسة
الكاثوليكية ، بعد أن أعلنت هذه الأخيرة أن كنيسة المستعربين
المحلية يجب اعتبارها كنيسة غير شرعية . ولم تستطع المدن أن
تزدهر بشكل واسع في الممالك المسيحية لأنها كانت تفتقد إلى
الأراضي نظراً لاستيلاء الرهبان الكاثوليكين على أراضي شاسعة .
وقد أدت الضغوط والصعوبات الداخلية إلى البحث عنه فرص أفضل
يعني عن طريق حركة الاسترداد المسيحي للاندلس (*recoquista*) .
وقد اتخذت إسبانيا المسيحية نموذجاً اجتماعياً لنفسها مبني المجتمع
المنظم لشن الحروب إذ كان هدفها الأخير احتلال الأندلس حيث
قراحت الثروات في ظل حضارة وثقافة مزدهرتين وهكذا بدأت
الممالك المسيحية تبحث عن أراضي جديدة ، وبدأت الحدود المسيحية
تتزل نحو الجنوب إثر هجرة جديدة للسكان ، وقد اتخذت حرب
الاسترجاع إيديولوجياً ، طابعاً دينياً في شكل حرب صليبية ضد
المسلمين ، أما سياسياً فقد انطبعت بالسياسة التعسفية والواقعية في
ذات الوقت لالفونسو السادس الذي جمع حوله قوات مسيحية مختلفة .
واجتماعياً كانت حرب الاسترداد يحفرها البحث عن أراضي خصبة

جديدة . واقتصادياً ، وهنا العامل الأكثر أهمية ، كان الحافز هو الرغبة في الحصول على الثروة بمقادير كبيرة وبسرعة . والوسائل التي اتخذت من أجل استرجاع الاندلس كانت أساساً عسكرية وسياسية ، وكان الحافز الاقتصادي الذي حفز المجتمع القشتالي طيلة القرن الخامس الهجري مهيمناً حتى أن الحرب أصبحت أمراً حيويًا بالنسبة إليه (44) ، وبغض النظر عن أصل الأفراد ومركزهم الاجتماعي فإن درجة المشاركة العسكرية في حرب الاسترجاع أصبحت أساسية للحصول على وضعية اجتماعية أرقى وأصبح الرجال الاحرار (Villanis) عامة يصعدون السلم الاجتماعي في المجتمع القشتالي ليصبحوا فرساناً من نوع (Caballeros Villanos) و(فرسان من عامة الشعب) في حين أن هؤلاء الآخرين كانوا يصيرون (hidalgos) (رجالاً من طبقة النبلاء الصغار) ما أن يمتلكوا الحصان والدرع المناسب ويتمون الخدمة العسكرية . وهكذا يبرز السيد (infangon) (وكان infangon بحكم ميلاده عضواً من طبقة النبلاء الصغيرة دون الشجاع جدارة مثل أمراء كاريون Carrion (45) . وقد كتب الدكتور ماكاي في هذا الصدد وعلاوة على هذا ، هناك عدد كبير من الناس في إطار النبلاء الاصليين يعود نساعدهم الاجتماعي إلى الفرص الاقتصادية والعسكرية التي منحها لهم الحياة والحروب في الحدود مع الاندلس (46) .

وكانت الحرب إذن تؤدي وظائف حيوية في المجتمع القشتالي الوسيط : للصعود والرقى في السلم الاجتماعي . وكانت تبرز سيطرة

طبقة النبلاء الحربية وتهيء الوسائل العديدة لتحسين المعيشة أو الحصول على الثروات. ويذهب ما كاي بعيداً حين يستنتج أن الحرب في قسناالة الاقطاعية لم تكن اختياراً بل « ضرورة عضوية » (47). ولا مجال هنا لتناول التفاصيل المتعلقة بطبيعة حرب الاسترداد ومشاكلها. والاستيطان و« الحدود المتحركة ». لنقتصر على القول بأنه إذا كانت حرب الاسترداد ترمز إلى نهضة إسبانيا المسيحية، فإن نتائجها على الأندلس كانت وخيمة.

وبالفعل فإن تآدية الجزية كانت وبالا على اقتصاد دول الطوائف لسببين: الأول أنها كانت تشكل عبئاً زائداً على كاهلهم. لقد كان في إمكان بعض الدول القوية مثل إشبيلية أن تواجهها دون صعوبات كبيرة. أما الدول الأضعف والتي لها اقتصاد هش، فلم تكن لتتحمل ثقلاً لا تقدر عليه. وكانت المبالغ المفروضة عليها تمثل أقصى ما يمكن أن تؤديه دون أن يسبب ذلك الانهيار المباشر لنظامها الاقتصادي أما الخسارات التي تسببها تلك الوضعية على المدى الطويل فقد كانت هي بدورها تشكل مشكلاً خطيراً. أضف إلى ذلك أن طرق الضغط الممارسة عليها هي ذاتها مصدر للخسارات: كانت عبارة عن حملات عسكرية من جملة أهدافها القضاء على محاصيل القرى حتى يؤدي ذلك إلى انفجار النظام الاقتصادي: إن الوصف الذي يعطيه عبد الله بن بلقين حول المفاوضات مع الفونسو السادس ومبعوثيه وحول التخريب الذي تعرضت له غرناطة لأرغامها على قبول الشروط المفروضة عليها لوضع جيداً جسامة الصدمات المرعبة

التي كان على اقتصادها أن يتحملها (48) .
 وهناك جاذب آخر من الخسارات التي لحقت اقتصاد دول الطوائف من جزاء دفع الجزية وهو استمرارية تلك السياسة ودوامها طيلة فترة دول الطوائف ، لقد كان فرندو أول من سلب الدول الطائفية القوية . وقد تابع ابنه سانشو السادس تلك السياسة وطورها ابنه الآخر الفونسو السادس الذي كان يتوصل بجزية غرناطة ودول أخرى حتى بعد انهزامه في معركة الزلاقة سنة 479 هـ . - 1086 م . (48) ،
 وحين قرر يوسف بن تاشفين سنة 491 هـ - 1088 م . أن ينهي حصار ليسيط (Alcedo) والرجوع إلى المغرب طالبه ملوك الطوائف بأن يترك في عين المكان بعض الجنود ليدافعوا عنها ضد هجمات الفونسو السادس ، ولكن كان رده : « أصلحوا ذياتكم ، تكفروا عدوكم ! » (50) .

إن التخوفات التي أبدتها ملوك الطوائف لم تكن دون مبرر . ويتجلى ذلك في التفسير الذي أعطاه عبد الله بن بلقين لحمالات الفونسو السادس التي كان هدفها أساساً اقتصادياً إذ يقول :
 « فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب . كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأنى طالباً للمال ، متجنباً على من خالفه أن يفسد بلاده . وعاهد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرف ، فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .
 وبلغني الخبر ، وزاد في غمي ، وعلمت أنني فيه كراكب الاسد : » (51) .

لها غيرنا(36)، إلا أن وجود هذه العناصر الإيجابية لا يمنعنا من تقديم بعض المآخذ عليه، بصفته مؤرخاً للأندلس في عهد دول الطوائف ومن أهمها :

أ. تأثر ابن الخطيب بالمنهج السردى والترتيب الزمني (الكرونولوجي) وبعض التقاليد الإسلامية في التاريخ مثل كتب السير والتراجم. ورغم القيمة التاريخية للتاريخ السياسي ولوصف الأحداث وضبطها هناك مناهج تاريخية أخرى تعتمد على التحليل بالدرجة الأولى لم يلجأ إليها ابن الخطيب كثيراً.

ب. لم يصل ابن الخطيب إلى مستوى بعض المؤرخين الأندلسيين من الذين أرخوا للأندلس في عهد دول الطوائف، ومن بينهم ابن حيان الذي تخصص في كتابة التاريخ الأندلسي إلى وفاته، ولم يهتم بعلوم أخرى فأبدع في هذا المجال.

ج. تعتبر قيمة كتابات ابن الخطيب التاريخية محدودة بالنسبة لدراسة عهد الطوائف إذا قارناها بالمصادر المعاصرة، فمنها ما هو أكثر توسعاً وعمقاً وتنوعاً، كما أن ابن الخطيب لم يأت بجديد في تاريخ الأندلس في عهد دول الطوائف، بقدر ما أكد ما جاء به غيره.

د. على الرغم من أهمية المعلومات التاريخية الهامة التي قدمها ابن الخطيب، فإنه لم يستغلها في قالب تحليلي، فهو ضعيف من هذه الناحية

(36) مثلاً راجع المقالات التالية :

الأستاذ محمد زبير، «ابن الخطيب والتجديد في المناهج التاريخية»، مجلة كلية الآداب (الرباط)، العدد الثاني (1977)، ص 79 - 126.

د. أحمد مختار العبادي، «لسان الدين ابن الخطيب وكتابه التاريخية»، «عالم الفكر»، العدد الثاني، يوليو - أغسطس - سبتمبر (1985)، ص 29 - 62.

د. وهيلم هونباخ، «ابن الخطيب المؤرخ : الشعب والحكومة والدولة» :

Wilhelm Hoenerbach, *El historiador Ibn al-Jatib Pueblo : Gobierno - Estado, Andalucía Islámica, Textos y Estudios, n° 1. (1980). pp. 43-64.*

تجاولة للمقاومة الموحدة وكانت ترسخ اتجاه الخضوع أمام الشروط التي كان يملها الفونسو السادس (55) .

وهناك أيضاً أثر سلبي لهذه السياسة وهي الخسارات البشرية والمادية الناجمة عن الحملات العسكرية التي تنظم ضد دول الطوائف . لأسبابها وتعليلاتها كانت متنوعة كما تنوع شكلها ومدنها . لكن ضررها كان جسيماً ليس فحسب لارتفاع عدد تلك الهجمات وتكرارها ولكن أيضاً بسبب دوافعها إذ استمرت طيلة فترة ملوك الطوائف . ولا نستطيع أن نقيم تلك الأضرار بدقة . ولكن من الواضح حسب الأساليب المعتمدة من طرف المؤرخين المعاصرين والمتأخرين في وصفها أن دول الطوائف تعرضت لعمليات واسعة من الهدم والتخريب ، وأن مخلفات ذلك النهب على المستوى الاقتصادي لا يمكن عددها : تطرق عبد الله بن بلقين لدرجة النهب الذي قام به الفونسو السادس على إشبيلية خلال حملات الضغط ضد الحكام الذين شاركوا في حصار لبيط (56) ، وعند نهاية فترة ملوك الطوائف وصلت قوة الفونسو السادس حداً استطاع معه شن هجوم على بعض ملوك الطوائف دون موافقة الآخرين كما كان عليه الأمر سابقاً . وهكذا فخلال الحملات الأولى لفرض الجزية على غرناطة كانت فرق الفونسو السادس مدعمة بفرق المعتمد بن عباد (57) . وقد كان عبد الله يأمل أن يحصل على مساعدة بعض ملوك الطوائف غير أن هؤلاء ظلوا غير مباليين . واتص التالي بوضع الممارسات المؤذية لملوك الطوائف : «... وابن ذي النون في هذا بتوسط له بالأمر ، ويسعى

في تصبير المال إليه ، ويرضيه بذلك وينتظر فساد مملكتنا ، فيفترسها هو أو يأخذ منها حصته فكان - على ما قدمنا ذكره - عدواً في الباطن ، صديقاً في الظاهر ، (58) .

إن الهدف المزدوج للحملات العسكرية بصفتها وسيلة للهدم المادي من جهة ، ووسيلة ضغط للحصول على الجزية من جهة أخرى لينجلى في حالات أخرى . فأهداف تلك الحملات كانت اقتصادية ولكن المناورات السياسية والضغوط النفسية التي تصاحبها كانت تساهم بشكل قوي في إرغام ملوك الطوائف على قبول شروط الفونسو السادس . إن التهديد كان يمكن الفونسو من التوصل إلى مقاصده دون اللجوء إلى إحداث هدم مادي على مستوى واسع ، ولكن هذه الطريقة الأخيرة كانت تستخدم دون تردد حين تفشل الطريقة الأولى . أضف إلى ذلك أن اللجوء إلى النهب المحدود كان الغرض منه تدعيم مصداقية الفونسو السادس عند انطلاق المفاوضات .

وكان الفونسو السادس يبني سياسته لغرض الجزية على أساس ضعف حكام دول الطوائف . وهوؤلاء رغم أنهم لم يكونوا واعين بالخطر الذي كان يهددهم من جراء مشاحناتهم على المدى الطويل فقد كانوا واعين بالاستغلال الذي يقوم به الفونسو لصالحه . وهكذا يطلعنا عبد الله بن بلقين على انطباعاته حول الحسابات السياسية لانفونسو السادس : «... وأما - الفونش ، لما نيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من أكبر سعادته وأعظم فرصه في طلب الاموال . فأرسل إلينا رسوله : أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ؛ فأتى باطر

شولش - بيدرو أنسورث - يطلب منا ضريته . ، (59) .

وقد اطلعنا عبد الله على مخططات الفونسو لضم بعض الدول الطائفية عن طريق مبعوث الملك القشتالي سيسناندو دافيديث :
 « إنما كانت الافدلس للروم في أول الامر، حتى غلبهم العرب ،
 وأحقوهم بأنحس البقاع : جليقية : فهم الآن عند التمكن ، طامعين
 بأخذ ظلاماتهم ! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاوطة ، حتى إذا
 لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف ! ، (60) .

ومع ذلك ، فإن كان عبد الله واعياً بأهداف الفونسو في المدى
 البعيد كما رأينا في الاقتباس السابق ، فقد تحدث عن سياسة
 الفونسو بعد سقوط طليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . بالعبارات التالية :
 « وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة وأخذه لطيطة ،
 وقلة رفته بعدما كان يقنع منا بالجزية و صار يروم أخذ القواعد ،
 وأن أخذه لطيطة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام ؛ وكذلك
 كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألا ينازل معقلا ،
 ولا يفسد أجناده على مدينة ، لبعده مرامها ومن فيها من مخالفين ملته ،
 وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام ، ويعنف عليها بما شاء من
 التعلي إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فعلت ، (61) .

وبالإضافة إلى الغزوات المسيحية ضد دول الطوائف هناك
 الصراعات بين تلك الدول ذاتها والتي ساهمت أيضاً في الانهيار
 الاقتصادي المتوالي . وبعبارة أخرى فالى جانب الضغوط الخارجية
 والعسكرية للملوك المسيحيين في الشمال فإن الصراعات المسلحة

المستمرة بين دول الطوائف تشكل عاملاً إضافياً للانهايار الاقتصادي لتلك الدول . وكانت تلك الصراعات تسعمل معمة الملوك المسيحيين وتساهم في إضعاف حكام دول الطوائف إما بطريقة غير مباشرة أو بكيفية مباشرة . وتجد تحالفات عسكرية مع المسيحيين تقودها دول طائفية ضد بعضها الآخر . ويجب أن نضع النشاط الحربي لتلك الدول في هذا السياق العام ، ولم يكن الفونسو السادس يتوجه إلى حكام دول الطوائف بصفتهم كجماعة واحدة بل بالعكس كان يستغل خلافاتهم الشخصية بتشجيع طموحاتهم المباشرة . وفي ذات الوقت كان يقوم بعدة ضغوط على كل حاكم على انفراد إلى أن يقبل هذا شروطه ثم يتجه إلى الحاكم الآخر مع التأكد من أن الآخرين لن يتدخلوا في حملاته ومفاوضاته .

وهكذا ينهم الامير عبد الله بن بلقين وزير المعتمد بن عباد ابن عمار بالتآمر مع الفونسو السادس ضد غرناطة (62) .

والضغوط الاقتصادية الدائمة لاسبانيا المسيحية تجاه دول الطوائف دفعت هؤلاء إلى الزيادة تدريجياً في مبالغ الجزية ، وقد أثقل هذا كاهل السكان وزرع تدمراً كان يجد تعبيره أحياناً في حركات العصيان . وحين يصل التدمر إلى درجة معينة يصبح الحكام غير قادرين على السيطرة على النمرات التي تعم البلاد والتي كان سببها الرئيسي الضرائب المرتفعة . وهذا هو الحال الذي كانت عليه غرناطة كما ذكر ذلك عبد الله بن بلقين : « وتسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تعدداً وعصياناً أنكرناه ، لا تتم به مملكة ، ولا

ينتهي معه قضاء حاجة ، (64) .

إن الإفراط في فرض الضرائب كان أمراً خطيراً ولكن بحيث أن سكان دول الطوائف كانوا واعين بذلك الظلم ، وكانوا يحاولون تغيير الأوضاع فيما بعد كما يبين ذلك عبد الله بن بلقين ، ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الاقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الانفاق ما قلق به وساء الظن من أحله : جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف متوالية ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة نوجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصال ، كالذي جرى ، (65) .

ومن الواضح من خلال تلك الرضعية التي جاء وصفها على ذلك النحو أن سكان دول الطوائف لم يكونوا فقط واعين بالظلم الذي لحقهم من جراء رفع الضرائب ولكنهم رفضوا ذلك الظلم ، ولم يكن ليتم ذلك إلا بمساندة المرابطين الصريحة أو الضمنية الذين كانوا يضعون أحكاماً تشريعية تتضمن أن الضرائب يجب أن تلغى في دول الطوائف ؛ وإنما وحست نفسي من الرعية اطعمهم في حط المغارم ، والذي شاع من الزكاة والعشر عند المرابطين ، (66) .

ولكن الدافع الاخلاقي المحض لتدخل يوسف بن تاشفين في الأندلس تحول إلى رغبة في الحصول على ربح مادي فإلى جانب الهدايا الثمينة التي كانت تقدم للمرابطين اضطر عبد الله بن بلقين

إلى قبول المتطلبات المالية للقائد العسكري المرابطي غارور والذي كان يقبض أحياناً مبالغ تتراوح ما بين 500 و 1000 دينار مرابطي. غير أنه إلى جانب ذلك كان عبد الله يرسل إليه مبالغ ضخمة أخرى قال عبد الله : « وأما الذي صار إليه في سفرة بطليوس ومدة كونه على لبيط مع الرسل ، فأكثر من أن يحصى » (67) .

وقد كان الإفراط في الضرائب سبباً في الاستياء الذي عم دول الطوائف . إن ذلك الاستياء الذي يعود إلى أصل اقتصادي وسياسي قد وصل إلى أقصى مدى إثر موقعة الزلاقة سنة 479 هـ . 1086 م . ذلك أن الأندلسيين عاينوا قوة يوسف بن تاشفين واعتبروه بديلاً من حكامهم الفاسدين . وقد انتشرت صورة يوسف بن تاشفين كحاكم تقي ونزيه وقوي بين مجموع مختلف السكان خاصة لدى القواد العسكريين والفقهاء (68) . وأمام الانقسامات العديدة لحكام دول الطوائف نجلت صورة يوسف بن تاشفين كقوة موحدة ، ولم يكن لتلك الصورة سوى أن تجذب إليه سكان الأندلس .

ولم تغب العوامل الاقتصادية لتلك التطورات السياسية عن بال يوسف بن تاشفين . واتهم ملوك الطوائف بتجاوزهم الحد في فرض الضرائب على السكان إذ وضع المشكل في إطار قانوني . وقد كان العديد من الضرائب في دول الطوائف ليس إسلامياً وبالتالي غير شرعي . فآلح على إلغائها . وهذا اجراءً استقبله السكان بكل ترحاب . غير أن هذا الإلغاء كان مستحيلاً نظراً لقوة الضغوط العسكرية الممارسة باستمرار من طرف الفونسو السادس ضد دول

الطوائف : فقد كانت الضرائب ضرورية لضمان دفع الجزية . ولكن يوسف بن تاشفين كان يعتبر تلك الجزية أمراً مهيناً ولا شرعياً ، متعمداً ملوك الطوائف بالتآمر مع الكفار . لقد كان لديه إذن مرر شرعي للاستيلاء على دول الطوائف لصالحه ، إلى جانب ما كان يتمتع به لدى السكان الاندلسيين من مكانة ، علاوة على القوة العسكرية التي كانت تتوفر له لكي يحقق غرضه . وقد كان يوسف بن تاشفين قادراً على وضع نهاية مؤقتة للانحيار الاقتصادي للاندلس باستيلائه على دول الطوائف باستثناء مملكة سرقسطة التي ظلت تحت حكم بني هود . وظليطة التي ظلت في يد المسيحيين . غير أنه لم يوفق في وضع استراتيجية على مدى طويل كان من الممكن أن تكون قاعدة للتطور الاقتصادي للبلاد . إن الغزو المسيحي كان قد انطلق وكان يحركه قوباً إذ فات الأوان على إيقاف مجرى الاحداث .

الخلاصة :

إن أهمية العوامل الاقتصادية طيلة فترة ملوك الطوائف أمام العوامل الأخرى مأخوذة في منظور شامل ، لنقدم لنا تفسيراً أساسياً لسقوط دول الطوائف المفاجيء وكانت القوة الاقتصادية لدول الطوائف قد وصلت حداً أقصى من التحلل حوالي 478 هـ - 1085 م . بعد استعادة الفونسو السادس لظليطة . ومن ناحية أخرى كانت العوة الفاصلة بين مملكة ليون وقشتالة وبين دول الطوائف في

الميدان الاقتصادي قد وصلت هي أيضاً إلى أقصى مداها .
وقد تصور الفونسو السادس أن سياسة رفع الجزية لم
تعد مجدية وأن قوته العسكرية أصبحت كافية لتسمح له بغزو دول
الطوائف واستعادتها . غير أنه لم يدرج في حساباته لجوء ملوك
الطوائف إلى نجدة يوسف بن تاشفين مما أدى إلى انهزامه في
موقعة الزلاقة سنة 479 هـ . - 1086 م . وقد كان الاخطر على
الفونسو السادس استهباته بالقوة العسكرية ليوسف بن تاشفين ،
وباتجاهه وحدسه السياسي وطموحه الشخصي وصفاته كحاكم
مقتدر ، ولم ينتبه إلى أن يوسف بن تاشفين انجذب نحو الاندلس
بفعل نفس الامتيازات المادية التي جذبتة هو . وكرد فعل على
سياسة الفونسو السادس العدوانية تجاه دول الطوائف استنجد ملوك
الطوائف بيوسف بن تاشفين للتدخل في الاندلس . وبعد أن استوعب
الانقسامات والضعف المفرط الذي عاناه ملوك الطوائف شرع في
الاستيلاء على دولهم . وقد استولى المرابطون على كل الدول
باستثناء سرقسطة . غير أن فشلهم في الاستيلاء على طليطلة كانت
له نتائج حاسمة فقد حافظ المسيحيون على وضع استراتيجي
ممتاز : فمن طليطلة انطلقت الحرب المسيحية لاسترداد الاندلس .

الهوامش

1 (هناك دراسة مقارنة وشاملة حول إسبانيا الإسلامية والمسيحية . انظر :
Thomas Glick Islamic and Christian Spain in the Early
Middle Ages Princeton 1979

2 (لمعالجة مثيرة للمساواة انظر مؤلف :
Jose Maria Lacarra Aspectos economicos de la sumision de
los reinos de Taifas «1010 — 1102» in Homenaje a Jaime Vicens
vol I Barcelona 1965 pp 255—77

3 (راجع الفصل الاول من هذا الكتاب حول العصبية والعلاقات
الاجتماعية في الاندلس طيلة فترة دول الطوائف .

4 (إن الكفالات الادارية لابي ابراهيم بن نغرلة اتاحت له منصب وزير
في غرناطة (عبد الله بن بلقون) « كتاب التبيان » . نشر ليفي بروفسال .
القاهرة 1955 ، ص : 30 - 32 . وابن يوسف بن نغرلة خلفه كوزير ومتصرف
(نفس المصدر ص : 206 - 36 - 39) . وهاتين الحاتين هما مثالان نموذجيان
للبيهود الذين نبأوا اعلى مستوى في السلطة السياسية في الاندلس . ولمقارنة

التأثير اليهودي في الممالك المسيحية لاسبانيا في الشمال وفي الأندلس راجع :
Glich . المصدر المذكور ص : 172 - 176 .

5) Evariste Levi - Provençal , Histoire de L'Espagne musulmane , vol . 3 .
Paris , 1953 , pp . 260 - 93 .

6) Rachel Arié , Grenade aux temps des Nosrides , Paris , 1973 , p . 346 .

7) إن نظام الري كان جد منظور طيلة فترة حكم بني أمية (ليفي
بروفنصال ، «تاريخ اسبانيا الاسلامية» ، ج ١ ، باريس 1960 ص . 278 - 82) وظل
سائداً خلال فترة ملوك الطوائف ، كما كان نظام الري متطوراً خلال فترة
بني نصر في غرناطة (أنظر المصدر المذكور لراشيل أريي . ص 346 - 848)
ولمقارنة نظام الري في الأندلس وفي إسبانيا المسيحية راجع كتاب : Glick .
نفس المصدر ، ص : 86 - 78 .

8) « كتاب التبيان » الطبعة المذكورة سابقاً ص : 17 .

9) نفس المصدر ص 38 - 39 .

10) «غرناطة في عهد بني نصر» نفس الطبعة المذكورة سابقاً ، ص 346 .

11) انظر ص . 11 .

12) أبو العباس أحمد المقرئ «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» الجزء الأول ، القاهرة ، 1387 هـ - 1949 م .
ص . 188 .

13) نفس المصدر ، ص . 186 - 187 .

14) حول الحملات البحرية لمجاهد بن يوسف العامري حاكم دانية
(400 هـ . . 1002 م . . 446 هـ . . 1044 م .) في سردينيا ، راجع محمد
عبد الله عنان : « دول الطوائف » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1969 ، ص .
190 - 94 .

15) بالنسبة للقرن الخامس الهجري راجع أبو محمد عبد المجيد

ابن عبدون : « رسالة في القضا والحسبة » ، نشر ليفي بروفنسال بعنوان :
Trois traités hispaniques de Hiaba : Documents inédits sur la vie sociale et
économiques en Occident musulman au moyen age , le Caire , 1955 , pp. 3-65.

16) هناك عدة دراسات حول التعمير في الأندلس ، راجع مثلا كتاب :
Ira Lapidus , Muslim Cities in the Later Middle Ages , Cambridge , Massachuse-
ttes , 1967 .

و :

The Early Revolution of Muslim Urban Society , in Comparative Studies in
History and Society , no. 20 , (1965) , pp. 1015 - 37 .

Leopoldo Torres Balbas , Ciudades Hispano-musulmanas , 2 vol. , Madrid ,
1972 .

و :

Plazas , zocos y tiendas de las ciudades Hispano-musulmanas , in Al-Andalus
vol. XII (1947) , pp. 437 - 76 .

و Glick المصدر السابق .

17) من المؤلفات القيمة حول الموضوع كتاب بدرو شلاميطا :

Pedro Chalmeta , El senor del zoco en Espana , Madrid , 1973 .

ويبرز هذا المؤلف الخواص العامة للمحتسب في إسبانيا الوسيطة ، غير
أن النصف الأول من الكتاب يدرس المحتسب في الإسلام وفي المجتمع
المكي قبل الإسلام في حين أن الربع الأخير منه يخصصه لدراسات المحتسب
في إسبانيا المسيحية . ونظراً لقلّة المصادر فإن الصفحات 357 - 484 هي التي
يعالج فيها المحتسب في الأندلس . ويرى فيه الخواص العامة خلال فترة سبعة
قرون في حيز جغرافي في طور التناقص وشهد العديد من النظم السياسية
والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتعارضة . ومن المؤسف أن هذا العمل جد
نظري . فوصف المحتسب والقومات الأخرى لهذه الوظيفة يدرجها المؤلف
طيلة بعض الفترات المحدودة جداً . فمثلاً بالنسبة لفترة ملوك الطوائف نجد
فقط 5 صفحات مخصصة بموضوع gobierno del zoco في ممالك الطوائف .

18) راجع الدراسة القيمة عن الطرق التجارية الرئيسية في العالم

الاسلامي من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر . وذلك لدى
MAURICE LOMBARO - L'islam dans frontieres grandeur.
باريس ، 1971 - ص 204 - 34 .

(19) « نفع الطيب » . الطبعة المذكورة سابقاً . ص 187 - 88 .

(20) Willion Montgomery Watt, L'influence de l'islam sur l'Europe medievale , traduit de l'anglais par G. Humbery . Paris 1974 . p. 28-29 .

(21) « كتاب التبيان » . المصدر السابق . ص 79 .

(22) إن الكلام عن غزو طليطلة جاء في عدة مصادر : أبو الحسن علي ابن بسام الشنقريني ، « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » ، القسم الرابع ج 1 تحقيق د . إسمان عباس ، ليبيا - تونس ، 1979 ، ص 163 - 169 و« كتاب التبيان » . المصدر السابق ، ص 176 - 177 والفونسو العاشر وسانشو الرابع : « اول حولة عامة لاسبانيا » . (Primera cronica general de Espana) تحقيق رامون مننديث بيدال (Ramon Menendez Pidal) بمساهمة :

T. G. Palez , M. M. Cartes , A.C. Solalinde ج 2 ، مدريد ، ص 530 - 531 .

(23) « كتاب التبيان » . المصدر السابق . ص 86 .

(24) أبو الحسن علي بن بسام الشنقريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، ج 1 . نشر إسمان عباس - ليبيا - تونس 1978 . ص 16 - أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب . ج 3 . نشر ليفي بروفنسال باريس 1930 ، ص : 196 - 97 .

(25) الفونسو السادس وابن عمار توجه في نفس اتجاهنا . وقد آلمنا ذلك غاية الألم . وقد أخبرنا فيما بعد أن الهدف الوحيد من اختراقه كان هو الاستيلاء على مملكتنا . (كتاب التبيان ص 74) وكل النصيوص المأخوذة من كتاب التبيان ، وكذلك المصادر الاخرى هي ترجمة خاصة بهذه الدراسة . وقد قدمت الترجمة الانجليزية الكاملة هذا المؤلف كأطروحة المدكتوراه (امين توفيق الطيبي ، The TIBYAN of Abdullah B. Buitgin last ، Zirid of granada . أطروحة دكتوراه ، اكسفورد 1972) . نشرت هذه الدراسة مؤخرًا في هولندا عند الناشر بريل سنة 1986 .

- (26) كتاب التبيان ، ص 77 ، الذخيرة ، قسم 4 ، ج 1 ص 157 - 60 .
(27) نفس المصدر ، ص : 38 - 95 .
(28) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 19 - 22 . و «البيان
المغرب» ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص : 202 - 203 .
(29) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 33 - 36
و «البيان المغرب» ، ج . 3 ، المصدر السابق ، ص : 210 - 211 .
(30) «الذخيرة» القسم الثاني ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 268 - 269 .
و «الذخيرة» ، القسم 1 ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص . 67 و «اعمال الاعلام»
المصدر السابق ، ص . 171 - 172 .

(31) انظر انطونيو بريمو ANTONIO Prieto Y Vives

Los Reyes de Taifas estudio historico numismatico de los musulmanes
spanoles en el siglo V de Hégira (XI de . G . C) . Madrid , 1976 et Georges
Miles , coins of the spanish Muluk at - TAWA , if , New York 1954 :

32) A. Ashtor , Prix et Salaires dans l'Espagne musulmane aux et
XI Siécles , in Annales , Economies Civilisations vol X X , (1965) P. 664 - 79 .

(33) ابو نصر الفتح بن خاتان ، قلائد العقيان في ابنا الزمان ، القاهرة
1283 هـ ، ص : 1 - 10 .

(34) يشتكي الأمير عبد الله بن بلقين بدرارة من اضطرابه الى دفع
مبالغ كبيرة الى القونسو السادس («كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص : 76) .

(35) نفس المصدر ، ص : 72 .

(36) نفس المصدر .

(37) نفس المصدر ، ص : 75 .

(38) مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية نشر ،
ا . س . علوش ، الرباط 1936 ، ص : 29 .

(39) اعطي 50 ديناراً لشيوخ يدعى نرقان لقا* مشاركتهم في مؤامرة دبرها
يدير لقلب بادص حاكم غرناطة («كتاب التبيان» ، ص : 32) . وقبل ان
يسلم الأمير عبد الله بن بلقين غرناطة ليوسف بن تاشفين ضغط القائد
المرابطي غارور على عبد الله لكي يجبره على دفع مبالغ تتراوح بين 500
و 1000 دينار . (نفس المصدر . ص : 115) بصفة دورية . ومن سخرية القدر
ان 500 دينار كانت هي المبلغ الذي دفعه المعتمد بن عباد إلى شاعر
اعجبه تصيده . («قلائد القيان» . المصدر السابق . ص : 9 - 10) .

(40) «كتاب التبيان» المصدر السابق . ص : 116 .

(41) نفس المصدر . ص : 38 - 39 .

(42) نفس المصدر . ص : 77 .

(43) نفس المصدر . ص : 56 . إلا ان الأمير عبد الله بن بلقين ربما
لم يذكر حقيقة المبلغ الذي ترك له إذا اعتبرنا انه كان يكتب مذكراته
أثناء وجوده اسيراً لدى يوسف بن تاشفين وأم يستطع ان ينقذه .

(44) بيرز (لوري) الخصائص العامة للحياة العسكرية في إسبانيا الوسطية .

E. Lourie, A society organised For War: Medieval Spain, in Past and
Present, N° 1 1966, P. P. 54 - 76) .

ويحلل مقال حديث مختصر كتبه مختصر في المجتمع القشتالي الوسيطي

دور الحرب بصفاتها معنة في المجتمع الوسيطي : ANGUS MACKAY

Laguerra como oficio: Significado Y funcion de los guerras in la sociedad
feudal castellana entre los Siglos IX y XIV in, Historia 16, Madrid No 34, Feb
1979. P. P. 45 - 54.

وحول نفس الموضوع انظر القسم المعنوي :

The Militarisation of Social Grouping in Angus Mackay, Spain in the
Middle Ages, From Frontier Empire, 1000 - 1500, London and Basingstoke

1977 - Pp. 45 - 57

وحول أهمية الحرب داخل دول الطوائف ودورها راجع كتاب «التاريخ

السياسي لإشبيلية في عهد دول الطوائف» للدكتور امحمد بن عبود ،
قطوان ، 1983 ، ص : 235 - 269 .

(45) من ملحمة السيد يعبر عن (infanson) الشجاع مفضلاً على
النبلاء الغير المستحقين مثل أمراء كاريود سعيد هو سيدي الفارسي Comfeador.
شقي هم أمراء كاريوس . (The Poem of the Cid) ترجمه إلى الانجليزية
ل . ب . سبسون Simpson, Berkeley, لوس أنجلس، لندن، 1957 ، ص : 133) .
ورغم ان تلك الملحمة المشهورة هي مصدر أدبي أكثر من تاريخي ، فإن
كثيراً من الأسماء والمراجع المذكورة دقيقة على المستوى التاريخي ويمكن
تمحيصها بالرجوع إلى مصادر موثوقة «عاصرة لذلك .

46) Spain in the Middle ages, op . cito P. 51

(47) نفس المرجع .

(48) «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص 69 - 76 .

(49)

(50) نفس المصدر ، ص : 122 .

(51) نفس المصدر .

(52) نفس المصدر ، ص : 123 .

(53) نفس المصدر ، ص : 126 .

(54) نفس المصدر .

(55) عبد الله بن بلقين عن هذه الفكرة حين كتب ، لقد كنا في
نفس الحال في هذا ، فكلما أعطى واحد منا المال ألقى جيش ما وحاول آخر
أن يضع حداً لهذا التفوق كان السؤل يعطي قدرًا أكبر ويغني سبيله ؛

نفس المصدر ، ص : 70 .

(56) نفس المصدر ، ص : 114 - 115 .

(57) نفس المصدر ، ص : 72 - 77 .

- (58) نفس المصدر . ص : 71 .
- (59) نفس المصدر ، ص : 69 .
- (60) نفس المصدر ، ص : 78 .
- (61) نفس المصدر ، ص : 101 .
- (62) نفس المصدر ، ص : 72 .
- (63) نذكر هنا كمثال على ذلك تمرّد ابوسنة (نفس المصدر، ص: 130-135)
- (64) نفس المصدر ، ص : 110 .
- (65) نفس المصدر ، ص : 109 .
- (66) ص : 120 من نفس المصدر . إن السياسة الجباية لبعض دول الطوائف كانت جد قاسية حتى في بداية القرن الحادي عشر . فمثلا سنة 401 هـ . - 1010 - 1011 م . وصلت الضرائب مستوى مبالغاً في الإفراط نبي بلنسية « لقد وصل حد 120000 دينار شهرياً ، 7000 دينار في بلنسية و 60000 دينار في حانية (شتية) . وكان يقبض في تسوة كبيرة . . . » (ابو حسان علي بن بسام الشنتوريني . « الذخيرة في معاصر اهل الجزيرة » . القسم الثالث . ج . 2 . تحقيق إحسان عباس ، ليبيا - تونس . 1975 ، ص : 115 .
- (67) « كتاب التبيان » . نفس المصدر ، ص : 115 .
- (68) في حالة المعتمد بن عباد قام يوسف بن قاشفين بكل انواع الضغوط لإرغامه على الاستعانة بالفونسو السادس الذي لم يسعفه في شيء على أي . إلا ان يوسف بن قاشفين وجد نفسه في موقف المنعم (بالكسر) تجاه حكام آخرين ومواخذتهم على تعاونهم مع الكافرين . وقد أعطتها مساندة الفتح لهذا الانعام مشروعية اكبر . « فلما تبين للأمير خلافه وقعوده عنه ، شاور القمحا في امره ، فأشاروا عليه بغزوه . فكان غزوه بعد إبلأ غدر : ولهذا ما اخر به ليهلك من هلك عن بينة ولتكون له الحجة على من يريد إخراجهم . فأمر الامير سير بالخروج إليه . ونهض ونحن بمكناسة . ونارله مدة طويلة : ومعاقله قد ذهب اكثرها بالطاعة » . (نفس المصدر ، ص : 169 - 170) .



الفصل الثالث

الدور السياسي والاجتماعي للعلماء الاندلسيين في عهد دول الطوائف

هل يمكن لنا أن نخرج بتصور كامل وواقعي للمجتمع
الاندلسي في القرن الهجري الخامس دون اعتبار للدور الهام الذي
قام به العلماء بصفتهم شريحة حية وجزءاً لا يتجزأ من المجتمع؟ لقد
تداخلت السياسة والدين بعضها مع البعض الآخر في العالم الاسلامي
بما في ذلك الاندلس، خلافا للعالم المسيحي حيث فلاحظ انفصالاً
تاريخياً للكنيسة عن الدولة في العصر الوسيط. نتيجة لذلك، شكل
العلماء الاندلسيون في القرن الهجري الخامس مجموعة ملتحمة ثقافياً

اجتماعيا وحتى سياسيا ففي بعض الظروف . ربما كانت فكرة انفصال الكنيسة عن الدولة السبب الرئيسي ، مهما كان خفيا ، وراء تركيز المؤرخين مؤخرا (مهما كانت جنسيتهم) على العناصر والابعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية للتاريخ الاندلسي مع اهمالهم للبعد الديني . ليس هذا مكانا مناسبيا لمناقشة قيمة انفصال الابعاد الروحية عن المادية للتاريخ الاندلسي . إلا أنه يجب تأكيد أهمية العامل الديني الذي كان يمثلها العلماء لكونه شكل عنصرا حاسما في عقلية ومزاج الاندلسيين والمجتمع الاندلسي (وكذلك المجتمع المسيحي في شمال إسبانيا) خلال تلك الحقبة التاريخية . ويعكس هذا في المعتقدات واللغة المتداولة والسلوك والقيم الثقافية والحضارية الشائعة خلال تلك الفترة التاريخية

ليس الهدف من هذا الفصل اثبات أهمية العنصر الديني بمعزل عن بقية العناصر في الاندلس كما أنه لا يرمي الى اظهار أهمية العناصر المادية بمفردها ، بل سوف نحاول أن نبين أن العلماء شكلوا شريحة اجتماعية يطبعها الالتحام الديني بالدرجة الاولى ومع ذلك فقد ساهمت بوضوح في توجيه السير التاريخي في الاندلس في عهد دول الطوائف اجتماعيا وسياسيا ونلفت نظر القارئ الى أنه ينبغي ألا ينسى ان الاحكام والاستنتاجات التي سنخرج بها من هذا الفصل تخص فترة زمنية محددة ونعني عصر الطوائف (و نتيجة لذلك فقد تنسحب أو لا تنسحب على العصور الاخرى من التاريخ الاندلسي) كما عليه أن يتذكر أن الدور

الاجتماعي والسياسي للعلماء الاندلسيين قد تطور وتحول خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة نفسها إذ انها تقدر بحوالي ثمانين سنة . وربما يعود السبب الرئيسي لخلافات المؤرخين القوية حول القضايا المرتبطة بالتاريخ الاندلسي (بما فيها المسائل الدينية والاجتماعية) وانقسامهم الى تيارات متعارضة الى كون نقاشاتهم دارت حول نفس المواضيع خلال عهود مختلفة من التاريخ الاندلسي (1) . فقد نجد في نهاية الامر أن الاطراف المختلفة أصابت جزئيا . إلا أن خطأهم جميعا يعود الى محاولة كل طرف اعتبار الحق بجانبه وحده وبكيفية شاملة ومطلقة . إلا أن مجال البحث التاريخي واسع إذ هناك متسعاً للتعاون ولتكميل الباحثين لمجهودات غيرهم . أما المواجهة ، فكثيرا ما تشكل مسعى غير ضروري وغير مشر ولا طائل من ورائه وأخيرا نرجو لهذا الفصل أن يدل على الكيفية التي شكلت بها الابعاد الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية أجزاءً مختلفة لنفس الواقع التاريخي .

لا تشكل فكرة التحام البعدين الديني والمادي في الحياة الاجتماعية الاندلسية في القرن الهجري الخامس موقفا اديولوجيا ثابتا بالنسبة لنا . ولم يكن هدفنا الاصلي اتخاذ هذه الفرضية واثبات انطباقها على المجتمع الاندلسي خلال فترة معينة بل على عكس ذلك . يعود سبب اقتناعنا بالدور الرئيسي الذي لعبه العلماء في الاندلس على المستوى الديني والاجتماعي ثم على المستوى السياسي الى فحصها للمصادر التاريخية العربية المعاصرة للقرن الخامس

الهجري والمتأخرة في إطار الدراسات التي قمنا بها حول جوانب أخرى في التاريخ الأندلسي ، خصوصا تاريخ إشبيلية في عهد بني عبّاد (2) . وبعبارة أخرى ، كان موقفنا هذا نتيجة البحث التاريخي في جوانب مادية من التاريخ الأندلسي خلال فترة محددة . لهذا فالسؤال الذي يجب أن يطرح ليس هو هل نرى أن البعد الديني يكتسي أهمية كبرى وذلك بصفتنا مؤرخين عاصرين بل علينا أن نتساءل هل تأثرت الشخصيات المعاصرة للفترة التي ندرسها في القرون الوسطى في مكان معين خلال فترة معينة بالدين في حياتها الاجتماعية وفي صورتها لهذه الحياة . بعبارة أخرى ، ربما أخذت العلوم الاجتماعية التي تطبق اليوم طابعا تغلب عليه المادية إن لم يسيطر عليها ، ولكن عندما نعالج مشاكل تاريخ القرون الوسطى لابد للمؤرخ الجلي أن يأخذ بعين الاعتبار الدرجة المرتفعة للوعي الديني التي سيطرت في جميع أنحاء العالم الإسلامي والعالم المسيحي . إن المصادر التاريخية الرئيسية الإسلامية والمسيحية منها تشير دون أدنى شك إلى هيمنة البعد الديني في التاريخ الأندلسي في عهد دول الطوائف (3) .

ولكن رغم الوجود الفعلي القوي لهذا البعد لم يحظ موضوع العلماء بالاهتمام والدراسة التي يستحق . لقد أصدر عدد من أبرز المؤرخين الأوربيين على الأندلس أحكاما جد سلبية حول العلماء الأندلسيين . فعلى سبيل المثال ، نلاحظ أن ليفي بروفنسال ، المؤرخ الفرنسي اللامع للعصر الأموي والمحقق الدقيق لأبرز

المخطوطات العربية للتاريخ الأندلسي . قد وصف المذهب المالكي في الأندلس بعبارات قديمة ومنها «المالكية القاسية عدوة التجديد» (La malikisme rigoriste et ennemi des innovations) أو «المذهب الجامد» (doctrine immobile) . ولعل الاقتباس التالي يعكس تصور ليفي بروفنسال المنعرج للمذهب المالكي في الأندلس بوضوح، خصوصا على عهد بني أمية :

«... استطاعت المالكية القاسية وعدوة التجديد أن تحفظ المملكة الأموية من الخلافات والمنافعات الدينية التي كانت قد بدأت تظهر في باقي مناطق العالم الإسلامي . واكن القمع كان سريعا ولم نستثن منه أية طبقة في المجتمع ولم يخضع لأية مناقشة في التراب الأيبيري بفضل الوحدة المذهبية التي فرضتها المالكية . كانت الفتاوى تحظى بالتأييد الضمني لمحاكم الذي لم يكن بوسعها هو الآخر أن يتعنّت دون أن يؤدي ذلك إلى استنكار الفقهاء فقط ، بل وحتى إلى ردود فعل الجماهير الجاهلة من رعيتهم . وهكذا ظهرت الدولة الإسلامية الأندلسية منذ أبعده جذورها بصفتها الحامية والمدافع عن المذهب السني المتمسك بمبادئه بزاد نجرها في الاحترام الاعلى لمذهب جامد ، تشك وتحرّم مسبقا أدنى محاولة في التأمل العقلاني (4) .

يمثل هذا الاقتباس مواقف عدد من المؤرخين الأوربيين حول المذهب المالكي في الأندلس وذلك للأسباب التالية : أولا ، إنه يقدم المذهب المالكي كقوة جامدة يطبعها التعصب الديني . ثانيا ،

يعتبر أن هذه القوة بلغت منتهى القمع نظرا للدعم الذي ناله من طرف الدولة ونظرا لانفرادها وتتميزها بالطابع الرسمي . ونتيجة لذلك ، أصبحت جميع المدارس والمذاهب الأخرى تعاني القمع . ثالثا ، وكان نتيجة هذه الأوضاع أن الأندلس حرمت من الحيوية والعقلانية .

نعتبر طريقة التفكير التي قدمناها أعلاه خاطئة تماما وإن المصادر الأولية تشير إلى اتجاه مخالف تماما . أولا ، لم يشكل المذهب المالكي في الأندلس قوة جامدة الجمود . فإذا قمنا بمراجعة المبادئ المالكية نجد أنها تتميز بدرجة هائلة من المرونة والتكيف مع الواقع الاجتماعي وبعد ذلك من الأسباب الرئيسية التي مكنت المذهب المالكي من اكتساب نجاح دام مدة طويلة في الأندلس . إن كتب سير وطبقات العلماء والفقهاء الأندلسيين تعكس شريحة اجتماعية جد ديناميكية ومنتجة بفزارة كما وكيفا .

ثانيا ، تمتع العلماء المالكيون بجذور شعبية متميقة في الأندلس كما أنهم كانوا يؤطرون اجتماعيا ضمن الطبقة الوسطى أو حلقة العامة . فعلى سبيل المثال . يعكس العدد الكبير للعلماء في عهد الطوائف شريحة اجتماعية ذات سند ودعم اجتماعيين هائلين .

ثالثا ، تمتع المذهب المالكي فعلا بدعم من طرف الدولة ويعود سبب ذلك بالذات إلى الشعبية التي حظي بها هذا المذهب في الأندلس . بعبارة أخرى ، كان الهدف من إعلان المذهب

المالكي مذهباً رسمياً سنة 170 هـ - 786 - 787 م عبارة عن وسيلة اعتمدها الدولة لتبني المذهب الذي خطي بشعبية أكثر في الأندلس.

رابعاً ، إن الموقف القائل بأن المذهب المالكي إعرقل تطور الاتجاه العقلاني ليست مبنية على أسس متينة هي الأخرى . فإذا كان التاريخ الاقتصادي والسياسي للأندلس في القرن الهجري الخامس يعكس اتجاهها سلبياً ، فإن التاريخ الثقافي في نفس الفترة قد تميز بالازدهار في عدد من الميادين كما طبعه مفكرون من طراز عالمي .

خامساً . جاءت الأحكام والاستنتاجات الخاطئة بشأن المذهب المالكي والعلماء في الأندلس عامة نتيجة للانحيازات والأفكار المسبقة التي ميزت عدداً من المستشرقين ومنهم ليفي بروفنسال . لقد طبعت مجهوداتهم الجبارة ومساهماتهم في الدراسات الأندلسية بطابع أكاديمي متميز ومحترم . إلا أنهم تأثروا من جهة أخرى بأفكارهم المسبقة .

نذكر من بين المؤرخين الأسبان ميغيل آسين بلاثيوش Paacios الذي أنجز دراسة عميقة حول ابن حزم (5) ، إلا أن السر الذي يكمن وراء اهتمامه بابن حزم يعود لما كان يتصف به هذا الأخير من فكر حر وكعالم ظاهري معارض للمذهب المالكي في الأندلس . أما برونشفيك Brunschwig فقد نشر مقالة حول المذهب المالكي (6) ، وهناك دراسة مقارنة حول ابن حزم وأبي الوليد

الباجي (7) . كما درس غرسيا غوميث الفقيه الأندلسي (8) . وتثير
مقالة حسين مؤنس حول فقهاء المالكية في العصر الأموي قضايا هامة
وتتميز بتفكير عميق (9) . إلا أنه كان مدفوعاً برغبته في إثبات
تأثير الشافعية في المالكية ويعود ذلك إلى انتمائه إلى المذهب
الأول بصفته مغربياً . كما كان المذهب المالكي في المغرب
الإسلامي موضع الدراسة في أطروحتين لنيل الدكتوراه (10) . إلا
أنهما لم نركزا على الدور الاجتماعي للعلماء المالكيين في الأندلس
وفي المغرب . كما كان ينبغي ؛ بل اهتمنا أساساً بالعقيدة في
المذهب المالكي . أما نشر كتاب الصلة ، لابن بشكوال فكان
بإمكانه أن يخلق اهتماماً شديداً بالأدوار التي لعبها الفقهاء الأندلسيون
في القرن الخامس للهجرة ومع ذلك لم يستغل هذا المعجم الحيوي
لسير الفقهاء في القرن الخامس الهجري استغلالاً تاماً وربما يعود
ذلك إلى كونه لم يترجم إلى أية لغة أوروبية فلم يتمكن
المؤرخون الأوروبيون من دراسته ، أو قد يعود السبب إلى الإهمال
الذي عانى البعد الديني للتاريخ الأندلسي عموماً . ومع ذلك ، هناك
دراسة حديثة متميزة حول العلماء والتي اتخذت موقفاً موضوعياً تجاه
العلماء المالكيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين (11) .
كان الهدف الرئيسي من دراسة أورفوا دومينيك تطبيق المنهج
الرياضي والإحصائي على العلماء في القرنين الخامس والسادس
لهجرة . لذا تكتسي هذه الدراسة أهمية خاصة لأنها تشكل تجربة
في تطبيق منهج سوسيولوجي عصري على فترة من القرون الوسطى .

ومع ذلك . فإن قوة هذا العمل تقع أيضا في كون المؤلف اثبت مقدرته على استغلال المصادر التاريخية الاولية استغلالا تاما، خصوصا « كتاب الصلوة » لابن بشكوال (12) . نتيجة لذلك فإن آراءه وتفسيره «بنية على برهان تاريخي متين كما تتجلى مساهمة أورفوا (Urvo) في فحصه لتوزيع العلماء الاندلسيين في القرنين الخامس والسادس للهجرة ثم تصنيفه للتخصصات الثقافية واتجاهات هذا العصر .

ما مدى انعكاس وجود العلماء في المصادر العربية التاريخية في الأندلس في عهد دول الطوائف؟ بطبيعة الحال، يعتبر ابن بشكوال مصدراً رائعاً لدراسة العلماء خلال هذه الفترة (13) . وفعلا، اعتمد دومينيك أورفوا (Urvo) على هذا المصدر في دراسته السوسولوجية إلا أن هذا المصدر ما يزال عبارة عن منجم بكر من المعلومات (14) . أما معاجم السير المتأخرة مثل كتاب ابن خلكان الهام (15) فتتجلى قيمتها في كونها مصادر تكميلية . ويعتبر كتاب « نفع الطيب » للمقري (16) مصدراً فريدا وغنيا جدا ليس فقط لدراسة العلماء ودراسة عهد دول الطوائف بل لدراسة التاريخ الاجتماعي العام في الأندلس . أما أعمال المؤرخين المتأخرين مثل « البيان المغرب » لابن حذاري (17) و « المعجب . . . » للمراكشي (18) و « الروض المعطار . . . » للحميري (19) أو « الحلل الموشية . . . » لمؤلف أندلسي مجهول الاسم (19 مكرر) وغيرها من المصنفات القيمة والتي تفيد في معرفة التاريخ العام لعهد الطوائف وبدرجة أقل دراسة دور

العلماء في عهد الطوائف . ومع هذا فإننا نصادف من بينها مصدرين تاريخيين أساسيين لدراسة عهد دول الطوائف عامة ، كما سنرى في القسم الثاني من هذا الفصل ، تنجلى أهميتهما أيضا في دراسة الدور السياسي للعلماء الأندلسيين خلال هذا العصر ، ونعني مذكرات عبد الله بن بلقيس الزيري المسماة « كتاب التبيان » (20) . والاقتباسات التي وصلتنا من كتاب « المتين » لابن حيان (21) ثم « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام (22) يعتبر كل من عبد الله بن بلقيس وابن حيان شخصيتين معاصرتين لعهد الطوائف بينما عاش ابن بسام في النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس للهجرة . لا توجد المعلومات حول النشاط السياسي لعدد من العلماء والفقهاء الواردة في هذه المصادر في أي مصدر آخر . إذا ، كيف قام هؤلاء المؤرخون بدراسة الدور السياسي للعلماء والفقهاء الأندلسيين في عهد الطوائف ؟ سوف نتطرق في القسم الأول من هذا الفصل الى مناقشة الدور الثقافي والفكري للعلماء كما سنركز على دورهم السياسي في القسم الثاني . يستحق الدور الثقافي مناقشة دقيقة ومطولة ، ولكن هدف هذا القسم ينحصر أساسا في طرح مجموعة من الاسئلة وتبسيط الاضواء على بعض الجوانب الهامة لهذا الدور الثقافي الذي نرجو أن يحظى بدراسة دقيقة في المستقبل من طرف غيرنا من الباحثين . إن بعض المصادر التي ذكرناها أعلاه معروفة ، خصوصا لدى المختصين . ومع ذلك ، يكتسي ذكرها أهمية كبرى في إطار مشكلة المصادر التاريخية

العربية لدراسة عهد الطوائف . لقد كان عصر الطوائف شأنه في ذلك شأن جميع تصور التاريخ الوسيط أكثر تعقيدا من تصورنا له اعتمادا على المصادر الاولية . ولا يمكن للعلماء المهتمين بتاريخ هذه الفترة إلا أن يرحبوا باكتشاف مخطوطات جديدة لدراستها . ومع ذلك ، خلافا للفترات التاريخية الاخرى التي لا تتوفر إلا على مصادر قليلة وفقيرة من حيث نوعيتها فإن بعض المصادر لدراسة عصر الطوائف تنفرد بطابع متميز وبالرغم من كونها خطيت بتحقيق ممتاز من لدن علماء مقتدرين فلم تستغل كليا في الكتابة التاريخية .

وبعبارة أخرى ، لا يعود السبب لكوننا نعرف أقل مما يمكننا أن نعرفه حول عهد الطوائف - أو ؛ فقط إلى ضياع بعض المصادر الاولية الثمينة لدراسة هذه الفترة مثل النص الكامل ، لمتين ، ابن حبان الذي لم يعثر عليه الى يومنا هذا ، بل ويعود أيضا الى كون تلك المخطوطات التي خطيت بالعناية والتحقيق مثل ، كتاب النبيان ، و ، ذخيرة ، ابن بسام ، لم تستغل إلا بكيفية سطحية بالنسبة لتاريخ عهد الطوائف .

الدور الثقافي والفكري

قبل مناقشة الدور الاجتماعي والسياسي للعلماء يجب علينا أن نتساءل بشأن طبيعة هذه الشريعة الاجتماعية. إن الشريعة الاجتماعية التي نريد دراستها هي النخبة الثقافية والدينية في الانداس في القرن الهجري الخامس . فهل يجب علينا أن نطلق عليها مصطلح العلماء أم الفقهاء ؟ إن مصطلح العلماء هو جمع عالم ومصدره العلم ، يعني المعرفة . أما مصطلح الفقهاء فهو جمع فقيه ومصدره الفقه بمعنى الشرع الاسلامي مع أن ابن منظور حدده في معجم لسان العرب . بـ « العلم بالشيء والفهم له » ، ورغم الارتباط الديني القوي لهذا المصطلح نجد استعماله في إطار غير ديني كما هو الشأن مثلا في فقه اللغة ، ومع هذا فالامر الذي يهينا أساسا هو استعمال مصطلح الفقهاء ومصطلح العلماء لتحديد شريعة أو شريعات إجتماعية ، إذا حاولنا تحديد كل شريعة إجتماعية على حدة نواجه مشاكل نظرا

لتدخلهما . يمكن القول إن نظام التعليم في الاندلس كان موحدًا إلى حد بعيد . فبعد حصول طالب العلم على التعليم العام الاساسي يختار ممارسة دراسته لفروع مختارة من المعرفة مثل فرع من فروع الفقه أو النحو أو الحديث إلخ . . . وامل حقيقة وجود عدد كبير من الشخصيات الادبية في الاندلس تطرح تساؤلًا وهو هل كان الادب (خصوصا الشعر) يدرس في المساجد التي قامت بدور المدارس (23) ؟ قد يكون الجواب الصحيح بالنفي ، ولكن يحتمل جدا أن العالم الذي حصل على المبادئ الاساسية في النحو واللغة ، ثم اهتم بالادب استطاع أن يتابع دراسته في هذا الميدان بطريقة حرة، إما اعتمادا على مجهوده الشخصي أو مع اصدقائه ومن المحتمل أن انتشار الادب كان يعتمد على النقل الشفوي . لقد أصبح الشعر العربي شائعا في الجزيرة العربية اعتمادا على تقليد شفوي وذلك منذ عهد الجاهلية قبل ظهور الاسلام كما تطور الشعر نظورا ملحوظا في الاندلس في إطار عملية التعريب التي وصلت الى درجة جد منطوية في القرن الخامس الهجري كما ذرى من خلال كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام مثلا . وتعتبر الكتابة وسيلة أخرى لإشاعة الادب العربي . لقد كانت المكتب التي ظهرت في القرن الهجري الخامس هامة جدا من حيث العدد كما تعتبر من أرقى المستويات وذلك في جميع ميادين المعرفة المعروفة آنذاك (بما فيها الأدب) .

كثيرا ما يصعب التفريق بين العلماء والفقهاء لانهم جميعا من انتاج نفس النظام التعليمي بالرغم من كونهم تخصصوا في فروع معرفية مختلفة . ومع هذا كان بإمكان العلماء أن يتخصصوا في أكثر من فرع ميدان من ميادين المعرفة . كما نجد أن بعض العلماء تخصصوا في كل من فروع المعرفة الدينية والملاذينية في آن واحد . ولعل مثال ابن حزم من أبرز الامثلة على ذلك . فقد ألف في ميادين مختلفة كمقارنة الاديان (24) والنسب (25) والادب (26) والفقه (27) وميادين أخرى (28). ومع هذا لم ينفرد ابن حزم بالتأليف في ميادين متعددة . فقد كان عدد من العلماء الانداسيين شعرا ماهرين (29) . كما كان تصور التخصص شائعا وعاديا . فعلى سبيل المثال ، يعتبر ابن حيان مؤرخا وابن بسام جماعة أدبيا وناقدا وأبو الوليد الباجي فقيها بالدرجة الاولى وابن زيدون شاعرا . بعبارة أخرى لقد كان التخصص موجودا إلا أنه كان بإمكان العالم أن يتخصص في أكثر من ميدان لان المعرفة كانت تصور كذات واحدة لها فروع متعددة . وأخيرا ، من المهم أن نلاحظ أن التعليم في الانداس كان يشمل علوماً دينية وغير دينية مع أن البعد الديني طبع نظام التعليم ككل . بعبارة أخرى ، كانت المعرفة مرتبطة بالدين ارتباطا قويا كما شجع الدين على الحصول على المعرفة وانتشرها في اشكالها المختلفة باعتبارها واجبا دينيا .

ومما يجعل أمر التفريق بين الفقهاء والعلماء صعباً طابع تعدد الابعاد للتعليم في الانداس في عهد دول الطوائف . ربما سوف يتضح

المشكل أكثر إذا فحصنا الكيفية التي نظر بها الاندلسيون المعاصرون لهذه الفترة الى هذين المجموعتين أو كيف استعملوا المصطلحين معا لتحديد نفس الشريحة الاجتماعية . تشير المصادر المعاصرة الى الفقهاء والى الفقيه . وهكذا نلاحظ أن هناك إشارات الى الفقهاء بصفهم يشكلون شريحة اجتماعية ملتزمة ثم هناك إشارات إلى أفراد ينتمون الى هذه الشريحة (30) . يعبر مصطلح العلماء عن مركز أو وضعية . ومع ذلك ، هناك إشارات أيضا الى العلماء بصفهم يشكلون شريحة اجتماعية ، هناك اشارات الى « عالم ، والى « العلماء » للدلالة على الطبقة المثقفة (31) . ولكن كان الفقهاء من جهة أخرى علماء في ميادين غير الميادين الدينية . بعبارة أخرى ، كانوا علماء بالمفهوم الحديث للكلمة ، لان اهتماماتهم الثقافية كانت تضم الفروع الفقهية إلا أنها لم تستثن بالضرورة المذاهب العلمية غير الدينية . في الختام ، بإمكاننا أن نختار واحداً من المصطلحين أو كليهما لوصف النخبة الدينية الاندلسية في القرن العجزي الخامس بعد تحديدنا لكل من المفهومين ولمعناه . فيما يخص هذا الفصل ، فسوف نستعمل المصطلحين بصفتهما مرادفين . وربما يمكن تبرير هذا الموقف لان ابن بسام استعمل المصطلحين مشيراً الى نفس الشخص . فعلى سبيل المثال ، وصف ابن الفرضي فئته بمصطلح « . . . الفقيه » ثم أشار إليه في نفس الفقرة قائلاً « شاعر مقل ، هو في العلماء أدخل منه في الشعراء » . . . (32) . إلا أن هذا المثال لا يحل المشكل بصفه نهائية ،

لان ابن بشكوال استعمل المصطلحين (العلماء والفقهاء) في نفس العنوان لكتابه حول سير العلماء والفقهاء الاندلسيين وذلك كالتالي:
« كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم... وفقهاءهم... »
وبشير استعمال المصطلحين في عنوان واحد الى اعتبار المؤلف الفرق بينهما بسيطاً باختصار ، لقد استعمل بعض المؤلفين المصطلحين بصفتيها مرادفين ولكن علينا أن نتذكر أنه لا يوجد مرادفين لهما نفس المعنى والدلالة بالذات .

لقد أخذ المؤرخون من مختلف الاتجاهات العلماء في الاندلس مأخذ السهولة . فعلى سبيل المثال ، اعتبروهم جزءاً من المذهب المالكي والحركة المالكية دون أخذ خصائصهم الفردية بعين الاعتبار وبالجدية .

بل أكثر من هذا ، لم ينتقد المؤرخون الغربيون المذهب المالكي في الاندلس بموضوعية إلا القليل منهم . ومن هنا فلاحظ أن الأحكام والتعميمات التي خصصت للمذهب المالكي قد ارتبطت بالعلماء الاندلسيين فكانت هذه الأحكام إما إيجابية جداً أو سلبية إلى أقصى الحدود . بعبارة أخرى ، بينما تهجم البعض على المذهب المالكي . كما طبق في الاندلس - وشوّهه وذلك يعني نشويها ضمناً للعلماء الاندلسيين ، فقد مدحه آخرون الى أقصى الحدود . فبينما اعتبر البعض المذهب المالكي قوة تاريخية جامدة ورجعية في الاندلس ، اعتبره آخرون قوة اجتماعية مرنة ومحركة ومنشطة . وهكذا فقد حظي العلماء أيضاً بأحكام قاطعة . فقد رأى البعض

أنهم كانوا يمثلون وبجسدون قوى رجعية ومتأخرة ومتشددة ، بل ومتعصبة ، بينما اعتبر آخرون أنهم كانوا يشكلون قوة تقدمية ودينا ميكية بل ومتنورة . إن أسباب وجود هذه الآراء المتعارضة والمتضاربة تعود الى كون مشكل العلماء وأدوارهم الاجتماعية والدينية والثقافية والسياسية لم تحدد بدقة علاوة على ذلك ، نجد عدداً من الاحتمالات والافتراضات الخاطئة وراء المواقف المختلفة تجاه العلماء بصفتهم شريحة اجتماعية منظمة . وملتحة . وربما كان أخطر افتراض خاطئ هو القائل أن العلماء الأندلسيين شكلوا شريحة دينية ملنحة كانت تتصف دوماً بنفس الخصائص وتهدف الى تحقيق أهداف معينة معها كانت الفترة التي تناقش في التاريخ الأندلسي ومهما كانت أفعال الأندلس التي يعني بها الدارس . بعبارة أخرى ، لقد نظروا الى العلماء بطريقة مجردة لا ترتبط بالواقع الذي كونه هؤلاء العلماء . ومع هذا ، فمن الواضح أن العلماء اختلفوا عن بعضهم من مدينة لاخرى ، مثلاً من قرطبة الى إشبيلية . ومن الواضح أيضاً أنهم تطوروا عبر عهود وأزمنة مختلفة .

رغم وجود استشهادات وإحالات وافرة للعلماء والمفقهاء في المصادر الاولية ورغم أهمية الدور الذي قاموا به في الأندلس في عهد دول الطوائف فلم يحظوا إلا باهتمام محدود وبدراسة قليلة (33) . على كل ، تعتبر المعالجة التي خصصت لهم غير موازية لأهميتهم كما ظلت جوانب متعددة من هذا الموضوع مجهولة لم تر النور بعد . لماذا بقيت الامور على هذه الطريقة ؟ تتعدد أسباب هذا الهمال .

أولاً ، لم يحظ التاريخ الاجتماعي للانديس عامة بما يستحقه من عناية الدارسين ولا يمكن إبراز أهمية العلماء إلا بعد دراستهم في إطارهم العام .

ثانياً ، لقد أيقظ عدد من العلماء البارزين من القرن الهجري الخامس خصوصاً ابن حزم اهتمام الدارسين لأسباب مادية وفكرية ونتيجة لهذا فقد أهملت وبخست أبعادهم الدينية والاجتماعية .

ثالثاً ، لقد غطت الاصطدامات السياسية والاضطرابات الاجتماعية في الانديس على المساهمة الثقافية والفكرية الايجابية للعلماء الانديسيين في القرن الهجري الخامس .

رابعاً ، لقد افترض أن العلماء كانوا يشكلون شريحة اجتماعية محكمة ومدمجة يتجلى هدفها الاساسي في الدفاع عن المذهب المالكي «الرجعي» في الانديس كما سبق أن ذكرنا أعلاه ، لقد افترض أن هذه الشريحة الاجتماعية تمثل قوى الرجعية ونتيجة لذلك فهي لا تستحق اهتماماً كبيراً . كما أن احتمال قيام هذه الشريحة الاجتماعية بدور ايجابي سياسياً وثقافياً وحضارياً قد رفض مسبقاً .

خامساً ، لقد اعتبرت بعض الاحكام التي طبقت على العلماء ، خصوصاً في المغرب ، صالحة أيضاً للعلماء في الانديس . فعلى سبيل المثال ، اعتبر مفهوم «الاسلام الشعبي» و «الاسلام الرسمي» اللذان أطلقهما بعض المؤرخين والانثروبولوجيين الفرنسيين خلال عهد الحماية على المجتمع المغربي صالحين للعلماء في الانديس أيضاً (34).

ويمكن انتقاد هذا الموقف على مستويين . فمن جهة ، لا يعكس مفهوم «الاسلام الشعبي» (ثم الاسلام الاندلسي والاسلام المغربي ، إلخ . . .) الواقع التاريخي . ومن جهة ثانية ، فإن تطبيقه على المغرب الأقصى . المغرب العربي عامة لا يبرر في حد ذاته صلاحيته بالنسبة للاندلس . فالقول بأن المجتمعين المغربي والاندلسي يشتركان في خصائص إسلامية مشتركة شيء ، والقيام بمقارنتهما بناءً على فرضيات لم تثبت علمياً شيء ثان . لقد اتخذ بعض المؤرخين الفرنسيين هذا الموقف خلال عهد الحماية لانهم كانوا يهتمون بالاندلس أساساً لكونها ساعدتهم على فهم المغرب أكثر . ومع هذا يجب على المؤرخ المهتم بالاندلس أن يدرس التاريخ الاندلسي دون أفكار مسبقة . ليس هذا بالمكان المناسب للجدال بشأن مفهوم الاسلام الشعبي . فهذا الاخير هو عبارة عن مصطلح مذهب للتعبير عن «الاسلام القبلي» أو الاسلام كما كان ممارساً لدى القبائل المغربية . ولكن قبل تطبيق هذا المفهوم على الاندلس علينا تحديد مدى قبلية المجتمع الاندلسي أن نتساءل هل كان المجتمع الاندلسي قبلياً وإذا كان كذلك فإلى أية درجة ؟ إننا نرفض هذا الموقف بالنسبة للاندلس في القرن الخامس للهجرة (35) .

تمتع العلماء الاندلسيون في القرن الخامس الهجري بمركز اجتماعي متميز لعدة أسباب . ودون مناقشة هذه العوامل مناقشة دقيقة سوف نشير فيما يلي إلى أهمها :

أولها تتجلى في كونهم كانوا مسؤولين عن توجيه التعليم وتطبيق السياسة التربوية التي كانت تنظم في المساجد الأندلسية كما كان الشأن في سائر أنحاء العالم الإسلامي . أما تطور المدارس فهو ظاهرة ظهرت بعد القرن الخامس في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي . إلا أن هذا لم يؤثر في الروابط المتينة بين التعليم والدين . بالنسبة للأندلس في القرن الخامس الهجري كانت الدراسة مع أشهر أساتذة العصر تعتبر مفخرة . وقد ذكر ابن بشكوال أسماء عدد من العلماء الذين درسهم وعدد أساتذتهم (36) . كما حصل عدد من العلماء على شهرة واسعة النطاق كأساتذة بارزين في ميادين معينة . فبعد تقاعده بمنزله قرب لبلة ، تفرغ ابن حزم للتدريس (37) . ويشير ابن بسام إلى أن عدداً صغيراً من الطلبة تبعوا ابن حزم لأن الفقهاء الآخرين أدانوا أفكاره (38) . وربما يشير هذا إلى أن أعداداً كبيرة من الطلبة تجمعت حول الأساتذة في المدن الأندلسية الكبرى ، خصوصاً قرطبة التي حافظت على تفوقها العلمي والثقافي رغم ما عانته من تخريب وفتن (39) ، أو إشبيلية التي تعتبر أسرع المدن نمواً في الأندلس على عهد دول الطوائف (40) . وربما كان التعليم بالمجان في الأندلس إلا أن المقري يشير إلى اتجاه معاكس عندما قال : . . . ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارية ، فالعلم منهم بارع لأنه يطلب العلم بباعث من نفسه يحمله على أن

يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ . . . (41). ومع هذا، اعتبارا لانتشار التعليم الواسع في الأندلس الذي يتضح من العدد الكبير للأساتذة الذين تذكرهم المصادر، ونظراً للمستوى الثقافي والفكري الرفيع الذي انصفت به كلام من الميادين الدينية والدينية، من المحتمل أن هذه الأجور كانت قليلة ولا شك أن الهدف الرئيسي لهذه الأجور لم يتعد تغطية مصاريف الأساتذة وبعض حاجاتهم. ولم تكن مهنة التعليم قط وسيلة للحصول على الأموال بهدف الغنى.

ثانياً، يجب علينا أن نؤكد بالخاص على تمتع العلماء الأندلسيين في القرن الخامس للهجرة بمركز ومكانة اجتماعية متفردة. وكان هذا المركز كما سبق القول أعلاه، مبنياً بالدرجة الأولى على درجة معرفتهم ولكن حتى على استقامتهم وأخلاقهم وسلوكهم ودورهم بصفاتهم كانوا يمثلون القيم والممارسة والتعاليم الإسلامية، هذه هي الخصائص والصفات التي وجب على العلماء الحصول عليها ولم تحقق بواسطة الوراثة أو أشكال أخرى من الامتيازات الاجتماعية. طبعاً، نجد علماء كانوا أبناء لعلماء آخرين، نذكر على سبيل المثال، حالة أبي محمد عبد الله بن عبد البر ابن الفقيه الشهير أبي عمر بن عبد البر النمري (42). ومع هذا، تعود أسباب مثل هذه الحالات بالدرجة الأولى إلى البيئة الثقافية البلازمة وإلى رغبة المثقفين في نقل علمهم إلى أبنائهم. فالعالم كان يكسب سمعته أساساً اعتماداً على قدرته الشخصية والاستحقاق مهما كان نسبه

أو نسب أبيه . وكان على العلماء أن يكسبوا اعتراف معاصريهم من العلماء بعم وهكذا نلاحظ أن المؤرخين ومؤرخي سير العلماء كانوا نقادا خصوصا المدح المطلق لمن استحقه . إلا أنهم لم يترددوا في انتقاد آخرين بأسلوب مدمر ومقذح (43) .

ومن أهم الأسباب التي تفسر نمنع العلماء بمركز اجتماعي متميز وبدرجة كبرى من المصادقية أن أهدافهم الأساسية في الحياة لم تكن مادية . مثلا لم يكن الحصول على العلم مرتبطا بدخول مرتفع وبشهوة عظمى أو بأرباح مادية بل على عكس ذلك . اصبر واجبا دينيا وأخلاقيا كما اعتبر العالم بطبيعة الحال امتيازاً . فدون أن ينبذ العالم عن جميع أشكال الحياة الدنيوية مثل الصوفيين كانوا يرضون أساسا في الحصول على المعرفة ونقلها وفي حياة نظيفة تعكس درجة عليا من القوى والاستقامة والإلهام الروحي بطبيعة الحال ، لم يوفق جميع العلماء في ذلك ولم تنطبق المقاييس التي ذكرناها عليهم بحيث انتقدوا بشدة في مثل هذه الحالات . علاوة على ذلك ، لم تنطبق هذه المقاييس عليهم بنفس الكيفية أو بنفس الدرجة . ولكن عموما ، تمتع العلماء بمركز اجتماعي متميز لم يحصلوا عليه بطريقة تلقائية ، فكان مركزهم الاجتماعي عموما مبنيا على مقاييس الاستحقاق بكسب ولم يورث . نتيجة لذلك ، كان بإمكان شخص أن يتحول الى عالم بعد ممارسته لحياة تعارض الشريعة وتبعد كل البعد عن العلم ، معوضا هكذا ما فاتته في الماضي (44) .

لم ينحصر الدور الاجتماعي للعلماء الأندلسيين في المجالات التعليمية والدينية بل إنهم شغلوا مناصب إدارية . ومن أهم الأدوار التي قام بها العلماء تدريبهم للأطر التي شغلت مناصب إدارية مختلفة لأنهم احتكروا وسيطروا على نظام التعليم .

وتجلى أهمية هذه القضية خاصة في المدن الكبرى المتطورة مثل إشبيلية حيث كان للإدارة دور هام نسبيا . ومع أن المناصب السياسية كانت تحفظ بالدرجة الأولى للعسكريين وللشخصيات الأدبية ، فقد مارس العلماء درجة معينة من النفوذ السياسي .

كما تجدر الإشارة إلى أن العلماء لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الحركة الأدبية المنتشرة والافتتاح الفكري المبدع في الأندلس في القرن الخامس للهجرة . ومن أبرز الدوافع التي دفعت بابن بسام إلى اتخاذ قراره بشأن جمع مجموعة الأشعار الأندلسية العربية في عهد دول الطوائف ، رغبته الشديدة في إثبات وإظهار وإشهار تساويها الأدبي إن لم نقل تفوقها الأدبي على الشعر العربي المشرقي (45) . لقد ضم ابن بسام أبيات بعض العلماء الأندلسيين في كتابه وذلك في إطار إظهار مقدرتهم الإبداعية والأدبية . وهكذا اتخذ ابن بسام نفس المنهج والتحليل المقارن الذي طبقه على الشعراء الأندلسيين العرب على الفقهاء الأندلسيين والمشاركة الذين تمتعوا ببوهبة شعرية . وما تجدر الإشارة إليه أنه أشار إلى صنف من الأدباء أطلق عليهم مصطلح « العلماء الشعراء » (46) . ومن الطريف

أن نلاحظ أنه مع احتفاظة بالمدح السخي لبعض العلماء المشاركة الذين صنّفهم ضمن رتبة «العلماء الشعراء»، فإنه لم يتروّد في إقتاد غيرهم بشدة. وهكذا فقد ذكر ابن بسام أسماء أبرز العلماء الشعراء المشاركة. ثمّ وصل إلى الاستنتاج التالي: «هؤلاء أعيان العلماء الشعراء بالمشرق، ممن علا شعرهم دياجة ورونقاً، فأما من سواهم كيونس والافش وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء وسائر أصحابهم فأكثر الرواة لم يسمع لهم بشعر» (47). كما ختم إقتاداته كما يلي: «والكسائي الذي يقول: «إنما النحو قياس بتبع»، له شعر ضعيف، بين التكلف، فأما أبو عبيدة فله شعر يضحك...» (48). ومن المدهش حقاً أن ينتقد ناقد أدبي أندلسي شعراء عرب بمثل هذه الجراءة.

وقبل تقديمه للعلماء الشعراء الأندلسيين في القرن الخامس للهجرة أشار ابن بسام أنه لم يشمل العلماء الشعراء الذين عاشوا قبل عهد دول الطوائف وذلك حسب منهجية شرحها فيما يلي:

«وأما العلماء الشعراء بأنقنا هذا الأندلسي من حين استفتحت الجزيرة إلى آخر دولة بني عامر، فقد تقدم المصنفون قبلي إلى تدوين نثرهم ونظمهم، فأغنانني عن ذكرهم، وإنما شرطت ذكر أهل عصري ممن شاهدته بعصري، أو لحقه بعض أهل دهري» (49).

إن منهج ابن بسام الدقيق الواضح في تحديد اهتمامه ليس لشخصيات أدبية من النوع الذي رسمه فحسب ونعني للشعراء،

بل واللفترة التي اخنار أن يركز عليها . ولم ينحصر هذا الاختيار المنهجي في دراسته للشخصيات الادبية التي عرفها مباشرة وبعمق ، بل أيضا حتى بجانب التكرار .

لقد أبرزنا بعض خصائص العلماء الأندلسيين بصفاتهم قوة إجتماعية متحركة بحيث سلطنا الأضواء عليها . وكانت هذه الأخيرة توحد كشريحة إجتماعية ملتزمة في الأندلس ، ولكنها لم تكن منظمة بطريقة منهجية . لم يوجد مفهوم البنية المنظمة تنظيما هرميا كما هو الشأن بالنسبة للرهبان الكاثوليكين أو البلاة الشيعيين . بل شكل العلماء شريحة ملتزمة بمعنى أنه كانت لهم خصائص مشتركة كما انطبقت عليهم مقاييس مشتركة . فعلى سبيل المثال ، شاركوا بعضهم في تدريب ثقافي وديني وتعليمي مشترك كما جمعتهم عقائد دينية مشتركة وعملوا جميعا على نشر تعاليم مشتركة وتمتعوا بمرکز اجتماعي مشترك بحيث تمتعوا باحترام واسع بصفاتهم مدافعين عن الإسلام ومعلمين له .

ومع ذلك ، فهذا لا ينبغي وجود خلافات بين علماء وفقهاء كأفراد . تبرهن كتب سير العلماء الأندلسيين مثل كتاب الصلة، لابن بشكوال أن اهتمامات العلماء الثقافية كانت تختلف لأنهم تخصصوا في فروع مختلفة من الفقه والشريعة الإسلامية كما نلاحظ وجود بعض الخلافات العقائدية بينهم إلا أن هذه الأخيرة لم تشكل ظاهرة أو اتجاها عاما .

ومن المعم جدا تأكيد طبيعة العلماء بصفتهم طبقة حضرية .
شكل العلماء أساسا ظاهرة حضرية لان دور المساجد في المدن
كان أكثر أهمية بصفته مصدرا للتنظيم الاجتماعي مما كان في
المناطق الريفية وذلك بالرغم من كون المناطق الريفية كانت
تتمتع بتطور في أندلس القرن الخامس الهجري لم تعرفه نظيراتها
في شمال إسبانيا والمغرب خلال نفس الفترة . قام دوهينيك أوفوا
(Urroy) بدراسة توزيع العلماء ، ولكن علينا أن نهتم أيضا بدراسة
مركزهم الاجتماعي ودرجة حركتهم الاجتماعية التصاعدية والتنازلية
في إطار الطبقة الوسطى الأندلسية . كما كانوا يتعبرن بحركة
قوية فسافروا الى المشرق ليس لاهداف تعليمية ودينية فحسب ، بل
ولأسباب مادية وسياسية بحثا عن رفع مستوى معيشتهم وعن أمن
أعظم وحرية أكثر .

وأخيرا ، لم يتخذ العلماء الأندلسيون في القرن الخامس الهجري
موقفا محايدا أمام قضايا عصرهم الكبرى وعلى رأسها انقسام الأندلس
الى دول طائفية وفساد عدد من ملوك الطوائف ومؤيديهم والضرائب
الثقيلة والضرائب غير الشرعية ، والعلاقات الأندلسية مع ممالك
شمال إسبانيا المسيحية والمغرب . لم تكن مواقفهم ثورية ، إلا أنهم
ساهموا بالتأكيد في التطورات السياسية العامة كما سنرى في
القسم الآتي .

يتجلى الهدف الأساسي لهذا الفصل في تأكيد دور العلماء
الأندلسيين في القرن الهجري الخامس بصفتهم قوة اجتماعية ديناميكية .

لا يجب علينا بأي وجه من الوجوه أن نربط العلماء والمذهب المالكي بالتقسيم والفوضى والفتنة التي أصابت الأندلس في عهد الطوائف لقد كانت القوى وراء تقسيم الأندلس إلى دول طائفية والاتجاه الانتحاري التي اتخذته هذه الأخيرة يعود أساسا إلى عوامل اقتصادية داخلية وخارجية (50). وكانت التطورات السياسية في الأندلس تخرج إلى حد بعيد عن نطاق سيطرة ونفوذ العلماء. ورغم دور العلماء السياسي المحدود، لم تكن لهم مساهمة في سيرورة اتخاذ القرارات في الدول الطائفية. وفيما يخص حالة البحث الحالية في هذا الموضوع، فإننا نواجه صعوبة كبرى في محاولتنا لفهم طبيعة تاريخ الدول الطائفية (51)، ولكن من الواضح أنه رغم الانهيار الاقتصادي والسياسي العام للأندلس استطاع العلماء المحافظة على وحدة المجتمع الأندلسي والتحامه.

الدور السياسي للعلماء الأندلسيين

لم يفهم المؤرخون الدور السياسي للعلماء في الأندلس في القرن الخامس للهجرة أو تجاهلوه بكل بساطة ، وذلك نظراً لتناقضاته الظاهرية ولتعميده . ونظراً للدوار السياسية البارزة التي قامت بها عناصر أخرى ، خصوصاً القواد العسكريون وملوك الطوائف (ومساعدوهم) . كما عتمت التعميمات والتصورات الخاطئة التي شاعت على نطاق واسع الدور السياسي للعلماء الأندلسيين ولم يجهد إلا القليل من المؤرخين نفسه في دراسة المصادر الأولية بجدية قبل الوصول إلى استنتاجات عامة . كان الدور السياسي للعلماء يتصف بعدد من العناصر والخصائص الذاتية الداخلية .

أولاً ، انقسم العلماء على بعضهم سياسياً بحيث اتخذوا مواقف مختلفة وأحياناً متناقضة عندما واجهوا حالات وتطورات معينة . فمن جهة ، عكسوا الطابع المتناقض والمتعارض لملوك الطوائف .

بعبارة أخرى ، كان ملوك الطوائف في صراع مستمر مع بعضهم . وكان العلماء موزعين في مختلف أنحاء الدول الطائفية في الاندلس . ونتيجة لذلك ساندت بعض المجموعات من العلماء حكماً معينين في الدول الطائفية التي عاشوا فيها . ويعني ذلك ضمناً أنهم لم يكونوا في موقف مناسب لمساندة ملوك الطوائف الآخرين الذين اصطدموا بملوك دولهم الطائفية فكثيراً ما فرض عليهم موقف معارض لهم . فعلى سبيل المثال ، شكلت خطبة الجمعة أساساً تقليداً دينياً مع مواقف سياسية هامة وكانت في غالب الأحيان تقرأ باسم حاكم الدولة الطائفية التي وجد بها المسجد إلا في حالة تخلى الحاكم الطائفي عن نفوذه وعن ممارسته لسيادته على تلك المنطقة المعينة (52) من هذه الناحية إذا ساند العلماء بعض ملوك الطوائف وعارضوا آخرين طوال عهد دول الطوائف .

ثانياً ، اتخذ العلماء مواقف سياسية تطبعها المرونة والواقعية . اتخذوا مواقف معينة في بعض الأحيان عندما صعب أو استحال عليهم اتخاذ مواقف أخرى ، إلا أنهم لم يترددوا في تغيير مواقفهم وتبديلها بأخرى عندما مكنتهم من ذلك التطورات العامة . فعلى سبيل المثال ، حصر جل العلماء نشاطاتهم في مسؤوليات دينية وثقافية وتربوية وقضائية في عهد دول الطوائف ذراهم أحياناً يدينون ملكاً طائفاً معيناً (وكثيراً ما يكون ذلك من تراب دولة طائفية أخرى) وأصدروا فتاوى لصالح ملك طائفي آخر حيث عاشوا في دولته . ومع ذلك لم يهدد العلماء ملوك الطوائف من الداخل وهكذا مثلاً أعطيت

للأمير عبد الله بن بلقين وعود بأن العلماء لن يعارضوه في غرناطة
بينما تأكد المعتمد بن عباد بأن العلماء لن يعبروا عن معارضتهم
له في إشبيلية ، وهكذا . ومع ذلك ، فإن الصمت طبع موقف العلماء
خلال جل عهد الطوائف فلم يترددوا في معارضة ملوك الطوائف
علانية عندما استبد ألفونسو السادس بقوته ونهج خطة عسكرية
وسياسة متعسفة تجاه ملوك الطوائف بحيث أصبح يعدد بطرد الاسلام
والاندلسيين المسلمين من الاندلس . وقد أصبح ذلك وشيكا إثر
احتلال ألفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ . - 1085 م .

ومن أهم الدوافع والقوى المؤثرة وراء التغيير المفاجيء لموقف
العلماء تجاه ملوك الطوائف ظهور يوسف بن تاشفين وانتصار الجنود
المغاربة في تحالف مع الاندلسيين على المسيحيين في معركة
الزلاقة سنة 479 هـ . - 1086 م . ومع ظهور يوسف ابن تاشفين بصفته
قوة بديلة وعنصرا موحدا ذا مصداقية ، لم يتردد العلماء في التعبير
عن شكاوى واحتجاجات الجماهير الاندلسية المثقلة بالضرائب وفي
اعلان مساندتهم المطلقة ليوسف بن تاشفين بصفته أملهم الوحيد
لانقاذ الاندلس كدولة إسلامية موحدة .

ثالثا ، من المهم أن نؤكد على أن الدور السياسي للعلماء
كان في نفس الوقت مبنيا على معتقداتهم الادبولوجية والدينية في
إطار أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة . وفي هذا المجال ،
كانت المواقف السياسية للعلماء تختلف عن بعضها مع أنهم اشتركوا
في المبادئ العامة المشتركة المنبثقة عن الاسلام .

بعبارة أخرى ، كانت معتقداتهم ومبادئهم وأحكامهم التقييمية وأفكارهم السياسية مشتركة ، إلا أنهم لم يتفقوا دائما على الوسائل والخطط وطرق تحقيق الأهداف المشتركة .

وهكذا نلاحظ أن العلماء شكلوا شريحة اجتماعية كانت أحيانا قتشعب وأحيانا أخرى تتحد ، فبممكن لنا أن نحدد مواقف سياسية متعددة اتخذها العلماء في عهد دول الطوائف . فقد ساند بعضهم ملوكا طائفيين معينين وعارضوا آخرين . كما عارض بعض العلماء جميع ملوك الطوائف ونظام دول الطوائف في حد ذاته بطريقة دبلوماسية بينما عبر آخرون عن رفضهم المطلق لدول الطوائف . هناك أيضا أولئك الفقهاء والعلماء الذين زعموا أنهم يساندون ملوك الطوائف ولكنهم عملوا في الواقع على تشويه سمعتهم في الخارج وحاولوا القضاء على حكمهم نهائيا . إن هذا التعدد في المواقف السياسية ظهر في الأندلس عندما طغى عليها الانفصال السياسي والاصطدامات والانهيار الاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية . ولكن بمجرد أن أصبحت الأندلس مهددة تهديدا خطيرا وبمجرد ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة بصفته قوة موحدة ، اتخذ الفقهاء موقفا موحدا ومشتركا . بعبارة أخرى ، أصبح موقفهم السياسي يمثل موقف الجماهير الأندلسية والطبقة الوسطى .

وهكذا لم يقف العلماء الأندلسيون مكتوفي الأيدي أمام الغليان السياسي في عهد دول الطوائف . فقد اتخذوا مواقف سلبية أو عملية وساندوا أو عارضوا هذا الملك الطائفي أو ذاك ، ولكنهم كانوا

واعين دوما بموقفهم السياسي . كما يهمننا أن نشير الى تغيير مواقفهم السياسية تجاه حكام معينين أو الى ملوك الطوائف عامة مع تطور الحالة السياسية العامة في الاندلس في القرن الهجري الخامس .

بل قد نكون أقرب الى الصواب إن تحدثنا عن المواقف التي اتخذتها مختلف المجموعات من العلماء بدلا من موقف موحد للعلماء بصفتهم مجموعة ملتزمة منظمة . لقد كانت هذه المواقف السياسية والادبولوجية للعلماء تجاه ملوك الطوائف واقعية بحيث إنهم نجسوا أية مواجهة مع ملوك الطوائف في الوقت الذي احتكر هؤلاء السلطة السياسية والعسكرية في الاندلس . ومع ذلك ، لم يسمح العلماء لملوك الطوائف بأن يتدخلوا في الشؤون القضائية والدينية . لقد دافعوا عن المذهب المالكي فكربا وذلك من خلال إنتاجهم الضخم لعدد كبير من المؤلفات في هذا المجال بحيث أصبحت أعداد منها مشهورة في الاندلس وخارجها كما ساهبو في توجيه المذهب المالكي في الاندلس وترسيخ مبادئه وتطبيقها . بعبارة أخرى ، حافظوا على وجود هذا المذهب خلال عهد الطوائف بحيث مكنوه من القيام بالمهمة الاجتماعية التي كان يستهدف الحصول عليها . وبعد نجاح المذهب المالكي وتطبيقه على عهد الطوائف من الاسباب الرئيسية التي دفعت يوسف بن تاشفين الى اختياره واتخاذ مذهبها رسميا إثر احتلاله للاندلس وضماها الى المغرب .

اختلف العلماء الأندلسيون في القرن الخامس للهجرة في مواقفهم المؤيدة أو المعادية لملوك الطوائف ولنظام دول الطوائف ، اعتمد ملوك الطوائف على العلماء يعني أهل العلم وخاصة على الفقهاء نظرا للدور الممتاز الذي ميزهم عن غيرهم في المجتمع ثقافيا وفكريا وروحيا خصوصا بصفتهم مشرفين على التعليم وعلى العدل ومع ذلك، ظل ملوك الطوائف بحاجة الى الفقهاء لاعتبارات سياسية . لقد مارس ملوك الطوائف نفوذهم السياسي في إطار نظام كان يقع على أسس شرعية ضعيفة . فبعد انقراض دولة بني أمية ونهاية المرحلة الانتقالية في عهد بني أبي عامر ، جاء تأسيس دول الطوائف نتيجة وجود فراغ سياسي . واعتمد ملوك الطوائف على القوة لتدعيم وتنفيذ سلطتهم كما كانوا يفتقرون لمبرر شرعي لحكمهم ومشروعيته . لم نخلص في التعبير إن قلنا بانهم كانوا يفتقرون إلى أسس شرعية لنظامهم لان هذا الحكم كان بكل بساطة غير شرعي . كانت الشرعية في الأندلس مبنية على الاسلام وبصفة خاصة على المذهب المالكي . وكان ملوك الطوائف بحاجة ماسة الى مساندة الفقهاء والعلماء إهم في هذه النقطة بالذات بحيث حاولوا دائما مجانبة معارضتهم .

ومن جهة أخرى ، لم يتمتع العلماء بنفوذ وسلطة وقوة كافية لمعارضة ملوك الطوائف معارضة فعلية وذلك لأسباب متعددة .

أولا، كان هناك فراغ سياسي لم تؤهل أية مجموعة لملئه إلا ملوك الطوائف .

ثانياً ، افتقر العلماء الوسائل المادية لمجابهة ملوك الطوائف عسكرياً . ونتيجة لهذا ، اختار العلماء المحافظون مساندة ملوك الطوائف كالاختيار الواقعي الوحيد في أيديهم بينما اختار آخرون مواقف الحياء السياسي مركزين مجهوداتهم للحصول على أهداف في ميدان التعليم والثقافة والعدل الى أن تتغير الأوضاع فيمكنهم ذلك من اتخاذ موقف سياسي موحد .

أ) المواقف السياسية الفردية للعلماء : بعض الأمثلة .

قبل مناقشة التطور العام للدور السياسي الذي قام به العلماء ، يجب التركيز على خصائص العلماء الفردية . لعل مقارنتنا لبعض العلماء كافية لإظهار مدى اختلافهم مزاجياً وسياسياً . ويخص الأمر العلماء الآتين : الهوزني ، وابن الملح ، وابن عبد البر ، وابن القصيرة ، وابن حزم .

تعرض ابن بسام لهؤلاء الفقهاء في «الذخيرة» وقد اهتم بهم أساساً بصفتهم أدباء وشعراء متميزين . ومع ذلك ، عندما تعرض ابن بسام لسيرهم قدم لنا صورة واضحة لأمزجتهم المتنوعة ولمواقفهم السياسية والادبولوجية المختلفة تجاه ملوك الطوائف .

الفقيه الهوزني : كان له أثر عظيم في الحياة الفكرية والثقافية

يبين مثال الفقيه أبي حفص بن الحسن الهوزني بوضوح نام
الشجاعة والروح النقدية المستقلة الحرة التي اتخذها بعض العلماء
الاندلسيين تجاه ملوك الطوائف . ونرى من خلال قتله الشنيع على
يد المعتضد بن عباد مدى خطورة عواقب مثل المواقف التي
اتخذها الهوزني .

كان الفقيه الهوزني من الشخصيات الاشبيلية البارزة كما
ربطته بالمعتضد علاقة قبل صعود هذا الاخير الى الحكم بحيث ساءت
علاقتهما بعد ذلك غادر الهوزني اشبيلية بعد استئذان المعتضد
وبموافقته سنة 440 هـ - 1047 - 1048 م . (53) سافر إلى صقلية وسورية
والعراق ومصر ومكة حيث ألقى محاضرات ودروساً خصوصاً في
الحديث النبوي عبر هذه الاقطار ليعود في نهاية المطاف الى الاندلس
حيث استقر في مورسية التي حكمها آنذاك ابن طاهر وكل ذلك
باذن من المعتضد (54) . تأثر الهوزني تأثراً عميقاً بالهجوم المسيحي
على ببشتر سنة 456 هـ - 1063 - 1064 م وتآلم للبذبح والمعاناة
والمآسي التي عانى منها السكان الاندلسيون المسلمون فبعث إلى
المعتضد رسائل ملتهبة تحتوي على مقاطع أدبية عاطفية رائعة
- شعراً ونثراً - يعرضه فيها على تزعم الجهاد ضد الكفار الظالمين
والمتعسفين (55) . إن القيمة الادبية في وصفه للمآلام التي عانى منها
الاندلسيون مؤثرة حقاً ، ولعكسه بالغ في عاطفيته وحماسه ونفي

صراحته المطلقة فنسي أنه كان يخاطب شخصاً كان ينتظر منه المدح والاعجاب بدلا من النصائح والانتقادات مهما كانت هذه الأخيرة مفيدة وبناءة . علاوة على هذا ، كان توسله للمعتضد وتحريضه له للدفاع عن الاسلام في الأندلس مصاحبا باستشهادات من القرآن الكريم تذكره بواجباته الدينية والخلقية مما حمل إشارة ضمنية إلى ابتعاد المعتضد عن التعامل الدينية وكان كذلك بالفعل (56) . باختصار ، لم ينفعل المعتضد في أول الأمر بطريقة سلبية ، بل رحب بالهوزني في إشبيلية سنة 468 هـ . - 1065 - 1066 م . ومع ذلك ، ربما لم يغفر له المعتضد صراحته وفي يوم الجمعة 11 ربيع الأول 480 هـ . 1070 - 1071 م . سكر وأمر بأن يحضر الهوزني أمامه . ثم أمر خديمين له بقتله وعند امتناعهما عن ذلك باشر قتله بيده : « فلما كان الجمعة يوم لحدى عشرة ليلة لربيع الأول سنة ستين أحضره القصر ، وقد غلب - زعموا - عليه السكر ، وأمر خادمين من قتيانه بقتله ، فكلاهما أشفق من سوء فعله ، وفر ، لا يبالي سيء عباد أو سر فقام إليه هو بنفسه وبأشرف قتلته بيده . . . » (57) .

ابن الملح :

كان أبو بكر بن الملح فقيها من شلب استقر في إشبيلية ثم ارتقى ليصل إلى منصب الوزارة (58) . فعاطى ابن الملح في بداية حياته للسكر واللاهو إلا أنه أصبح تقيا مهتديا وعالما محترما (59) .

بحيث ارتقى الى درجة فقيه من أبرز فقهاء المدينة . ولقد خصص له ابن بسام مدحا ثم ذكر أن ابن الملح كان على قيد الحياة وهو يؤلف كتابه «الذخيرة» سنة 500 هـ . - 1106 - 1107 م . وأنه توفي في رمضان من نفس السنة (60) . ويشير مدح ابن ملح لكل من المعتمد والمعتضد ابن عباد أنه كان فقيها محافظا لم يتطرق لسلوكهم الاباحي والمخالف للتعاليم الدينية (61) . وما يلفت النظر ان ابن الملح اعتمد على تصور ديني في مدحه للمعتد (62) ومع ذلك، ربما كان هذا العالم مقربا عند حكام بني عباد لمقدرته الادبية وليس لاعتبارات سياسية . ولقد خصص ابن بسام التعليق التالي على أبيات ابن الملح الشعرية عندما قارنها ببعض الابيات لابرز الشعراء العرب والانديسيين : «قال ابن بسام : ولم أسمع بمثل هذا البيت لمن سبق فإن كان إتباعا فما أحسن ما أرق ، وإن كان اختراعا فما أولى وأخلق» (63)

ابن القصيرة :

كان أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة مثالا نادرًا للفقهاء الذي الى منصب سياسي سامي في بلاط المعتمد بن عباد (64) . كان عالما إشبيلية متفوقا وبارزا في بلاط المعتضد بن عباد بحيث كان يحاول دائما أن يبتعد عن الحاكم الاشبيلي حتى لفت نظر ذي الوزارتين ابن زيدون الذي اقترح على المعتضد أن

يضمه الى بلاطه في نهاية حكمه (65) . ومع ذلك ، لم يبرز الفقيه ابن القصيرة بـروزا سياسيا إلا في عهد المعتمد بحيث حصل على أسمى لقب وزاري عندما تسمى بني الوزارقين كما بعثه المعتمد الى عدد من ملوك الطوائف والى يوسف بن تاشفين في مناسبات متعددة ليشتغل في نهاية المطاف بديوان المعتمد نظرا لوهبته وصفاته الادبية الرفيعة (66) . وكان ابن القصيرة مقربا إلى المعتمد ثم الى يوسف بن تاشفين بعد خلع المعتمد سنة 484 هـ . - 1091 م . إلا أن هذا العالم والاديب اللامع بكتسى أهمية كبرى من الناحية التاريخية بسبب روايته لمعركة الزلاقة التي شارك فيها بجانب المعتمد والتي جرح خلالها جرحا خفيفا (67) وبالإضافة إلى رواية عبد الله ابن بلقين (68) . يعد ابن القصيرة من الشخصيات الفريدة التي شاركت في هذه المعركة الهامة وتركت لنا رواية عنها فوصلتنا . وتكنسي هذه الرواية أهمية بالغة لأنها تعكس شعور المغاربة والاندلسيين بالنصر بوضوح تام وذلك لكونه وضعها في اليوم التالي للمعركة في صباح السبت 13 رجب 479 هـ . - 31 غشت 1086 م (69) وأخيرا ، يعتبر ابن القصيرة مثالا لفقيه ووظفه المعتضد ثم المعتمد ثم يوسف بن تاشفين نظرا لتميزه الادبي الامر الذي يعكس مرونة سياسية ودبلوماسية عظيمة لانه اشتغل مع يوسف بعد أن عمل مع المعتمد الى نهاية حكمه . بل كان ابن القصيرة يعمل مع يوسف بينما أرسل سيده السابق الى أعماق سجينا مكبلا بالأغلال .

ابن عبد البر : البر (70) معتضد معتضد

يظهر مثال الوزير أبي محمد عبد الله بن عبد البر نجل الفقيه أبي عمر بن عبد البر النمري الشهير كم كان على أعضاء بلاط المعتضد أن يأخذوا حيطتهم لكي يتجنبوا ويفلتوا من المكائد التي شكلت خاصية من خصائص الحياة اليومية في البلاط الطائفي . لم يكن أبو محمد بن عبد البر فقيها بارزا مثل أبيه . ولكن يمكننا أن نعتبره ضمن صنف العلماء لان ابن بسام اعتبره كذلك (70) . كان مركز أبي محمد جد مذبذب وغير قار ومعرضاً للخطر بحيث وصلت المكائد التي دبرها ضده أبو الوليد ابن زهدون الى محاولة اغتياله (71) .

كانت علاقته بالمعتضد متوترة إلا أنه اتخذ موقفاً لنا ومرناً تجاه الحاكم الأشبيلي . وحين أصبح لا يطيق الحياة في بلاط المعتضد طلب منه الاذن لمقادرة إشبيلية ليسافر الى المشرق حيث حصل على اعتراف واسع النطاق بصفته عالماً بارزاً (72) . وبشير ابن بسام الى كونه كتب عن عدد من ملوك الطوائف (73) . إلا أن تاريخه لملوك الطوائف هذا لم يصل إلينا . وأخيراً ، كان أبو محمد عالماً أكثر منه سياسياً . لقد اتخذ أسلوباً دبلوماسياً مع المعتضد بحيث تجنب أية مواجهة معه . بل ذهب الى حد أنه بعث له رسائل التهنئة بعد احتلال المعتضد لشلب (74) كما حرر رسالة باسم المعتضد وصف فيها هذا الأخير اغتياله لابنه إسماعيل بن عباد وحاول تبرير

هذه الجريمة الشنيعة (75) . ومن المهم أن نلاحظ ونسجل أن عالما وابن فقيه مالكي بارز قد حرر هذه الرسالة الفظيعة باسم المعتضد بحيث وصف فيها كيف قام ابنه عليه في مناسبتين كما تطرق فيها للطريقة التي قرر بها قتل ابنه النبي كان عزيزا عليه ، وأسبابها . وهنا يمكننا أن نتساءل ، هل يعبر تحرير ابن عبد البر لهذه الرسالة عن موافقته على هذه الجريمة الشنيعة ؟ ربما لم يبقى لأبي محمد أي اختيار آخر إلا كتابة هذه الرسالة للمعتضد لان الاختيار وقع عليه من بين جميع الشخصيات الادبية في البلاط الاشبيلي للقيام بهذه المهمة (76) . ومع ذلك ، نجب الاشارة الى أن ابن عبد البر لم يرفع لعممة كتابة هذه الرسالة أو حتى للعمل في بلاط المعتضد ، الامر الذي يفسر مقادرتة لاشبيلية متوجها نحو المشرق . ولا فرجع احتمال تأييد ابن عبد البر لهذه الجريمة الشنيعة لانه حتى واو فرضنا أن اتهم المعتضد ابنه بالقيام عليه كان صحيحا ومبينا على أسس فلم يكن للمعتضد حق الحكم عليه ولا تنفيذ الحكم بيديه . علاوة على هذا ، ظلت جميع المصادر العربية صامته بشأن استشارة المعتضد للفتها بشأن هذه القضية . لقد اتخذ المعتضد قرارا بكل بساطة ودون أية استشارة ثم طلب من ابن عبد البر أن يبرر هذا القرار ثقافيا يعني بأسلوب منطقي قوي . كل هذا لا يدفع الى الاستفراب إذا اعتبرنا أننا نتحدث عن المعتضد الذي تقدم لنا المصادر العربية حججا كثيرة لاثبات جرائمه المتعددة . إلا أن قتل الاب لابنه يعتبر تجاوزا لجميع الحدود ولا يمكن لنا إلا أن نلوم الملما

على صنمهم الجماعي بشأن هذه القضية. ومن جهة أخرى، نرى أن المعتضد لم يتمتع بتوازن عقلي ليس فقط لكونه قام بجرائم متعددة بل ولأنه نفذها بطرق غريبة جدا ومفرقة. سجل المؤرخون الأندلسيون المعاصرون والمتأخرون للمعتضد سلوكه العنيف بدقة كبيرة، إلا أن العلماء والفقهاء حافظوا عامة فيما يبدو على صمتهم فمن واجبنا أن نتساءل عن أسباب هذا الصمت. هل يعود هذا السكوت الى رغبة واعية في مساندة موقف المعتضد؟ لا نرجح ذلك، لأن ذلك سوف يكون معارضا لمبادئهم ولقيمهم. بل مما هو أكثر احتمالا أنهم لم يظلموا ساكتين ولكن مواقفهم لم تسجل فلم نطلع عليها أو أن موقفهم السياسي كان ضعيفا بحيث لم يمكنهم من التعبير عن آرائهم علانية فبالاحرى تنفيذ قراراتهم.

ابن حزم :

كان الفقيه أبو محمد علي بن حزم من العلماء الذين دار بشأنهم جدال عنيف في القرن الهجري الخامس كما كان من أكثرهم تسيسا. وخلافا لأغلبية الفقهاء المالكيين الذين لم يتجرأوا للتعبير عن معارضتهم لملوك الطوائف إلا بعد أن أصبحت مساندة لهم لهوسف بن تاشفين اختيارا ممكنا وواقعا، عبر ابن حزم عن معارضته المطلقة واللامشروطة لأقوى ملوك الطوائف كما اعتبر نظام دول الطوائف نظاما غير شرعي على أساس أن الامويين وحدهم

كانوا يستحقون الحق الشرعي والمشروعية لبث حكمهم في
الاندلس (77) . ومع ذلك ، لم يعش ابن حزم ليشاهد الفقهاء
الاندلسيين الاخرين وهم يتخذون هذا الموقف المعارض تجاه ملوك
الطوائف بصفة جماعية كما أنه لم يعش ليرى اعادة توحيد الاندلس
بقيادة يوسف بن تاشفين وذلك لكونه توفي سنة 456 هـ - 1063 -
1064 م . (78) ولم ينحصر موقف ابن حزم في معارضته لملوك
الطوائف لانه عرف أيضا بمجادلته الفقهاء الاندلسيين الذين دافعوا
من المذهب المالكي ويعود ذلك الى اقبائه للمذهب الظاهري .
كان ابن حزم ناقدا حادا وجريئا فواجه العلماء بأسلوب يطبعه
العنف اللفظي (79) . كما وجهت له تهجمات لا تقل عنفا (80) .
ومع ذلك ، فمن المهم أن نشير الى أن عدداً من الباحثين قد
اعتبروا ابن حزم مثالا بصفته شكل هدفاً للاضطهاد على يد الفقهاء
الاندلسيين وبصفته مثالا للخطة التعسفية التي اتخذوها ضد كل
من انحرف عن المذهب المالكي وتعاليمه . إلا أننا نود أن تقدم
بعض الملاحظات بهذا الشأن ، فلقد تلقي ابن حزم تعليمه في
قرطبة فكان نتاجا من انتاج الفقهاء المالكيين . ونتيجة لذلك ،
نكونت جميع مؤهلاته الفكرية في بيئة ثقافية واجتماعية هيمن
عليها المذهب المالكي . ثانيا ، من المهم أن نلاحظ أنه كون
أفكاره الظاهرية في الاندلس فلو كان اضطهاد المذاهب الاخرى
شنيعا كما يحتمل البعض لما استطاع ابن حزم أن يطور نظرياته
الظاهرية بالشمولية التي تطبعها . حقيقة ، لقد أحرقت كتب ابن

حزم في إشبيلية (81) ، وأدائه جل الفقهاء المالكيين بمن فيهم أبو الوليد الباجي (82) الذي واجهه في نقاش علني ببيورقة كما أن الجدل الذي أثاره ابن حزم لم ينحصر في مجال الفقه والسياسة بل ضم حتى المنطق (83) . إذا ، لقد كان ابن حزم دون شك هدفا للتهجم من طرف أفراد وجماعات اختلفت في مصالحها وفي ميولها بمن فيهم اليهود الذين اصطدم معهم علانية في نقاش عاصف حول طبيعة دينهم . ومع ذلك ، فهل يثبت كل هذا أن الفقهاء الذين لم ينتسوا الى المذهب المالكي عانوا من الاضطهاد ؟ إننا لا نقبل هذا الرأي وذلك لعدة أسباب .

أولا ، لم يكن ابن حزم العالم الوحيد الذي واجه معارضة في الأندلس في عهد دول الطوائف الذي كانت تطبعه درجة مرتفعة من إسالة الدماء . فعلى سبيل المثال ، لم يعرف تلك الوفاة العنيفة التي لقيها الفقيه الهوزني علي يد المعتضد بن عباد (84) . كما أن تمكن ابن حزم من المشاركة في نقاش علني مع أبرز فقيه مالكي في عصره يشير الى كونه لم يمنع من التعبير عن آرائه علانية مهما عارضت المذهب المالكي . علاوة على ذلك ، لم يلق ابن حزم الترحيب في أكثر من دولة طائفية ، خصوصا إشبيلية ، ولكن نظرا لحالة الاضطرابات المستمرة التي طبعت العلاقات بين دول الطوائف ، استطاع دائما أن يجد لنفسه ملجأ ومستقرا وحماية في الدول الطائفية الأخرى التي كانت تعادي تلك التي منع من الدخول إليها . وعلاوة على ذلك ، لم تخص هذه الاوضاع ابن حزم وحده ،

لان هناك عدداً من الفقهاء والعلماء الاندلسيين الذين وجدوا أنفسهم في وضعية مماثلة . كما لم نخص هذه الوضعية ابن حزم وحده لكونه اعتنق المذهب الظاهري لان هناك عدداً من الفقهاء والمعارضين لملوك الطوائف قتلوا لاقو مصرعهم على يد عملاء بعض ملوك الطوائف خارج الحدود الجغرافية للدول الطائفية أو خارج حدود الأندلس . بل قيل إن بعضهم قتل في المشرق . وهناك أمثلة من هذا القبيل بالنسبة للمعارضين السياسيين للمعتضد ، إلا أنه لم يعرف عن ابن حزم أنه كان هدفاً لمثل هذه المحاولات علاوة على ذلك ، فقد استطاع هذا الأخير أن يعتزل بمنزله في ذابحة لبلبة في كهولته في سن متقدم حيث تبعه عدد محدود من تلاميذه (85) . بعبارة أخرى ، استطاع أن يؤلف الكتب ويستخطف أتباعاً ومريدين وأن يدرس الى نهاية حياته .

لذا يجب تفسير سبب المعارضة العظيمة التي لقيها ابن حزم وأفكاره بانتقاداته العادة وباتجاهه نحو التهجم العنيف على كل من خالفه في الرأي . ولم ينحصر جداله في مواجهة الفقهاء والعلماء الاندلسيين المسلمين المعاصرين له بل اشتهر كذلك بمجادلته لليهود ، خصوصا ابن النفرالة ، بحيث ألف كتابا في هذا الموضوع (86) .

ومع ذلك كان ابن حزم فقيها وعالما في آن واحد ومن الطريف أن نشير إلى أنه كان محترما من طرف أبرز الشخصيات الثقافية والفكرية في عصره وذلك بالرغم من خلافاته وحثرة جدله . فعلى سبيل المثال ، انتقده المؤرخ الكبير ابن حبان بشدة وقد

وصلتنا هذه الانتقادات في «ذخيرة» ابن بسام ، إلا أنه لم يتردد من وصفه بالعالم الفريد لاجئا في ذلك الى أسنى العبارات (87)، بينما لم يتردد ابن بسام هو الآخر في مدح أبي الوليد الباجي حتى بعد لقائهما ونقاشهما في ميورقة ورغم ادائه لأفكار ابن حزم واقتراح منع نشاطه على بعض ملوك الطوائف بحيث وصف ابن حزم أبا الوليد الباجي بكونه أعظم فقيه مالكي (88).

بعبارة أخرى ، لقد اعترف غيره بعلمه كما اعترف هو بعلم غيره، وذلك رغم اختلافه مع عدد من معاصريه في الرأي. وهذا أمر معقول اعتباراً للطابع الموسوعي الشفي تميز به أعماله - تأليفه واعتباراً للمساهمة الفريدة التي تميزه في جميع المجالات التي عالجهـا - فعلى سبيل المثال ، قام بتأليف أول كتاب في مقارنة الأديان - الأديان المقارنة في التاريخ العالمي كما أن تطورات الأحداث أثبتت صحة وصواب معتقداته السياسية القوية .

(ب) - الدور السياسي الجماعي للعلماء الأندلسيين :

لقد قمنا بمناقشة للأدوار السياسية الفردية لفقهاء أندلسيين معينين في الأندلس كما ركزنا على اختلاف هذه الأدوار وتنوعها. وقد تأثرت هذه الأدوار كثيراً بطبيعة تعليم هؤلاء العلماء وبتجاهاتهم السياسية وبمجالات تخصصهم وبتجاهاتهم السياسية واختياراتهم الأيديولوجية كما تأثرت بمصالحهم الشخصية وبتجاربهم وكذلك

باختلاف أمزجتهم أو بخصائصهم الفردية . ومع ذلك ، إذا استطاع العلماء أن يتخذوا موقفا مؤيدا أو مرنا أو حتى محايدا تجاه ملوك الطوائف أو إذا فرضت عليهم مثل هذه المواقف قبل معركة الزلاقة فلم يظل ذلك ممكنا بعد سنة 479 هـ . - 1086 م .

لم يقع إهمال معركة الزلاقة من طرف المؤرخين المعاصرين لها (سوا نعلق الامر بالاندلسيين المسلمين أم بالمسيحيين في شمال إسبانيا) . كما كانت موضع الدراسة من طرف المؤرخين العصريين وما زالت تستقطب الكثير من الاهتمام . كانت نتائج الانتصار بالزلاقة وحوادثها بالغة الأهمية ليس فقط اقتصاديا وسياسيا بل وحتى اجتماعيا . لم يتجرأ العلماء من الناحية السياسية لتعبير عن معارضتهم لملوك الطوائف خلال مدة طويلة وذلك لأسباب متعددة .

أولا ، كانوا منقسمين على أنفسهم سياسيا كما عانوا جميعا من العجز العسكري . فعلى سبيل المثال ، ظلت معارضة أناس مثل ابن حزم عبارة عن *Ocrytlo unildomos* خلال مدة طويلة لم تقبل مثل هذه المواقف في جلب مساندة شعبية في الأندلس ، بل أدت إلى إثارة غضب عدد من العلماء الأندلسيين ورفضهم لها . ولو اختار العلماء مجابهة ومعارضة ملوك الطوائف دون توفيرهم على بدبل مناسب لشكل ذلك مغامرة خطيرة خصوصا عندما تمتع ملوك الطوائف بقوة متفوقة . ومع ذلك ، فبمجرد ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسية ، لم يتردد العلماء في اتخاذ موقف المساندة له

بالاجماع - لقد أصبحوا بعد ذلك يتوفرون على مبرر منطقي وواقعي لمعارضة ملوك الطوائف وشكلت معارضتهم هذه شرطا أساسيا من شروط نجاح يوسف بن تاشفين في سياسته الاندلسية .

لقد ساهمت عدة عوامل في هذا التغيير الجذري . في موقف العلماء الاندلسيين بعد سنة 479 هـ

أولا ، لم تعد مساندة ملوك الطوائف ممكنة إذا نظرنا الى القضية نظرة واقعية وذلك ليس فحسب لانهم لم يستطيعوا الترفع عن خصوماتهم السخيفة ولكن لانهم فشلوا في تشكيل جبهة موحدة لمواجهة التقدم العسكري المسيحي داخل الاراضي الاندلسية خصوصا من طرف ألفونسو السادس . فبعد احتلال ألفونسو لطليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . واتخاذة قرار احتلال ما بقي من أراضي في الاندلس ، أصبح وجود الفقهاء والاسلام في الاندلس مهددا بالانقراض . وعلاوة على ذلك ، نشير الى ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة السياسية في الاندلس واقتصاره في معركة الزلاقة باسم الاسلام متخذا الجهاد شعارا له ، إذ أصبح يوسف يمثل موجة إديولوجية رحب بها العلماء واعتبروها منسجمة مع مبادئهم ومع أفكارهم الدينية . وهناك عامل آخر ذا أهمية عبرى يتجلى في المساندة الشعبية ليوسف بن تاشفين .

لقد اتضح بعد سنة 1086 م . - 479 هـ . أن الجماهير الاندلسية أصبحت معارضة لملوك الطوائف علانية . كما اتضح أن عددا من

الموظفين السامين بل وعناصر بارزة في الجيش أصبحت هي الأخرى
تعارض استمرار ملوك الطوائف في الحكم . ولقد عبر عن هذا
التحول العام حاكم غرناطة عبد الله ابن بلقين بلسانه وبلسان غيره
من ملوك الطوائف . لذلك كان العلماء الأندلسيين يمثلون هذا
الاتجاه الجديد اعتبارا لجذورهم الاجتماعية والثقافية وارتباطها المباشر
بالعامة والطبقة الوسطى الأندلسية .

كان دور العلماء حاسما في مواجهة تطور حركة الاسترجاع
المسيحي (Reconquista) للأندلس .

أولا . لعب العلماء دورا هاما في اقناع بعض ملوك الطوائف
بضرورة استنجادهم بيوسف لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التعسفية
والتوسعية خصوصا بعد أن أصبح ملك ليون وقشتالة يهدد باحتلال
الأندلس كلها . لقد أشاروا الى أن يوسف أصبح يشكل الاختيار
الوحيد لانقاذ الأندلس وأن أي فشل في البحث عن مساعدته سوف
يؤدي حتما الى الاحتلال المسيحي للأندلس (89) .

ومن أهم الأسباب التي دفعت بألفونسو السادس الى اعلانه عن
نيته لاحتلال الأندلس - اثر احتلاله لطلبلة أنه لم يكن يظن أن
بعض ملوك الطوائف قادرون على اتخاذ مثل هذه الخطوة الخطيرة .
فمن ناحية . ساهم تعسف ألفونسو المتزايد ، ورضب ملوك الطوائف
في لجوئهم الى الاستنجاد بيوسف . وقام الفقهاء بدور هام في اقناعهم
بذلك ومما يدل على ذلك وجود بعض الفقهاء ضمن الوفد الذي أرسل
إلى المغرب في تلك المهمة .

ومع ذلك ، فقد أصبح دور العلماء أكثر أهمية بكثير بعد أن قطع يوسف مضيق جبل طارق إلى الأندلس وبعد قيادته للاندلسيين في أول نصر لهم ضد مسيحيي إسبانيا الشمالية .

نلاحظ في بادئ الأمر أن بعض المشاركين في معركة الزلاقة كانوا فقهاء . بل إن إحدى الروايات النادرة للمعركة بأقلام المشاركين فيها كانت للفقير ابن القصيرة (90) . لهذا بإمكاننا أن نتحدث عن مشاركة الفقهاء المباشرة في المعركة .

كما يكتسي دور العلماء أهمية بالغة لكونهم منحوا يوسف بن تاشفين التبرير الشرعي لاحتلال دول الطوائف . بعبارة أخرى ، أدتوا نقمة الجماهير الأندلسية إطاراً شرعياً كما قدموا لهؤلاء بديلاً مديناً . وقد قاموا بهذا بتقديم اتهامين خطيرين للغاية ضد ملوك الطوائف . بعبارة أدق ، ساندوا اتهامين خطيرين ضدهم ، الاتهام الأول هو أن ملوك الطوائف كانوا يتعاملون مع ملك نصراني هو ألفونسو السادس خلفاً للعالم الإسلامي وأنهم كانوا يقدمون له أموالاً كجزية حتى بعد هزيمته في معركة الزلاقة . بل ذهب يوسف إلى اتهامهم بالاتصال بألفونسو بهدف طلب حمايته لهم عسكرياً منه . وكان الهدف من أداء أموال الجزية التي قدموها له الحصول على السلم في المقابل أو الحماية إن اقتضى الحال ذلك .

أما الاتهام الثاني الموجه إلى ملوك الطوائف فهو أنهم كانوا يفرضون ضرائب غير شرعية على رعييتهم المثقلة بالضرائب وادعى

يوسف بن قاشفين ان الزكاة والعشر يعتبران شرعيين ، اما الضرائب الاخرى فهي غير شرعية. وبطبيعة الحال ، لم يكن بإمكان ملوك الطوائف قبول هذا الموقف لان الضرائب الثقيلة (91) التي فرضوها على رعيتهم كانت تشكل الوسيلة الوحيدة لتغطية مصاريفهم وأداء الجزية التي فرضها عليهم ألفونسو السادس وبعض الحكام المسيحيين في شمال إسبانيا مثل كومنت برنجير الثاني (Berenguer) بيرشلونة . وعندما هدد يوسف بالانتقام من ملوك الطوائف إن هم رفضوا اقتراحاته أدركوا أنه طلب منهم المستحيل لكي يمرر احتلاله للدول الطائفية . كما كان الفقهاء واعين بنتائج هذين الاتهامين وما سوف تؤدي إليه عند تبنيهم لها وموافقتهما .

إزداد نفوذ يوسف بن قاشفين في الأندلس بعد معركة الزلاقة وبذل الفقهاء كل جهدهم من أجل تقوية سلطته وتسهيل احتلاله لدول الطوائف . واستطاعوا أن يحققوا هذا الهدف من خلال دور الوساطة الذي لعبوه بين يوسف وملوك الطوائف. فعلى سبيل المثال، قام الفقهاء بالمفاوضات والاتصالات بين الحاكم المغربي وملوك الطوائف في الأندلس بينما قام القواد العسكريون بتنفيذ أوامر يوسف وإن اقتضى الحال اللجوء إلى العنف لحل الخلافات. قبل أن يقرر يوسف احتلال الأندلس شعر ملوك الطوائف بضغط قوته عليهم فبعثوا له رسلاً لاكتساب رضاه . وبذل ذلك، شجع هؤلاء في غالب الأحيان يوسف ليضع نهاية لحكمهم عندما اتهموهم بتبذير الأموال وسوء تدبيرهم للشؤون . فعلى سبيل المثال ، بعث الأمير عبد الله

ابن بلقين حاكم غرناطة ابن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه
نجاحه بصفته حاكماً على غرناطة (92).

وكان تعيين عبد الله بن بلقين لابن سهل قاضياً قد جاء
طبقاً لاقتراح من القليعي بهدف جلبه إليه ومجانبة تأييد ابن سهل
لاخيه تميم حاكم مالقة ضده (93). فعندما سمع عبد الله بن بلقين
أن يوسف وصل إلى سبتة في طريقه إلى قرطبة بعث القاضي بن
سهل وباديس بن وروي لاستقباله وللترحيب به (94). وعاد المبعوثان
إلى غرناطة بعد ذلك ووصفا مهتهما بالنجاح ولكن الوقائع تدل
على أن ابن سهل أخبر يوسف بأن الجيش كان منقسماً على نفسه
في غرناطة وأن الغرناطيين يعانون من اضطهاد عنيف وأن يوسف
يتمتع بشعبية كبيرة في غرناطة (95). بل بمجرد مغادرتهما غرناطة
متوجهين نحو سبتة أخبر عبد الله بن بلقين أن باديس بن وروي
قال بأنه بعث ليسانداً عبد الله. ولكنه في الواقع قيد يديه بإحكام
وأن القاضي ابن سهل ضرب رأسه (96).

ويقدم لنا عبد الله بن بلقين نفسه وصفاً مثيراً للكيفية التي
ضيق بها سيطرته على غرناطة وذلك لأن يوسف أصبح يتتبع بشعبية
واسعة النطاق في مرحلة معينة. وعرض عبد الله الشرائع الاجتماعية
المختلفة (97) في غرناطة ثم شرح الأسباب التي دفعت بكل مجموعة
إلى التحلي عن مساندة (98) وتعد هذه الرواية الفريدة من أطرف
الروايات التاريخية بحيث نجد شخصية تاريخية معاصرة لعهد دول
الطوائف تقسم المجتمع الأندلسي إلى شرائح اجتماعية مختلفة.

كما يكتسي هذا الامر أهمية لان عناصر الطبقة الوسطى بقرناطة
تبدوا واضحة . كما تهمننا الملاحظة بأن عبد الله بن بلقين لم يشر
الى العلماء بتاتا بصفتهم كانوا يشكلون طبقة أو شريحة اجتماعية
منفردة .

ويعني هذا أحد أمرين . الاحتمال الاول هو أن العلماء لم
يشكلوا شريحة اجتماعية في قرناطة . ولا فرج هذا الاحتمال ،
لان المراكز الدينية والقضائية كانت نخص للعلماء ، وكانت
موجودة في قرناطة كما كانت موجودة عبر مختلف أنحاء الاندلس .
أما الاحتمال الثاني ، فهو أن العلماء كانوا عوجوين إلا أنهم لم
يعتبروا شريحة اجتماعية مستقلة . بعبارة أخرى ، لم يعتبر الافراد
من العلماء جزءاً من شريحة اجتماعية مستقلة في قرناطة لانهم كانوا
يشكلون أطرافاً من مجموعات مختلفة . فكان ارتباطهم بالشرائح
الاجتماعية الأخرى - كالاداريين والتجار - أوثق من ارتباطهم إلى
مجموعة ملتزمة مستقلة تمتاز بخصائصها وبمميزاتها .

ولا نرجح هذا الاحتمال أيضاً لان العلماء كانوا يشكلون مجموعة
اجتماعية ملتزمة في قرناطة شأنها في ذلك شأن أنحاء أخرى من
الاندلس لانهم تطوروا في ظروف مماثلة . أما الاحتمال الثالث للصمت
الذي التزمه عبد الله بن بلقين بشأن العلماء في قرناطة ككشريحة
اجتماعية فهو أنه لم يرد أن يتطرق للموقف الشرعي الذي اتخذته
العلماء عند ظهور يوسف بن تاشفين بصفته بديلاً فضله الجميع
على ملوك الطوائف . ونعتبر هذا الاحتمال أكثر رجاحة من غيره

لان عبد الله كتب مذكراته في المغرب بعد تسليمه غرناطة ليوسف ابن ناشفين . فاية مناقشة لموقف العلماء ضده في مثل الظروف التي كتب فيها كان من شأنها أن تذكره بمرعزه ، غير الشرعي كملك طائفي . وربما يعود سكوت عبد الله بن بلقين عن موضوع العلماء بصفتهم شريعة اجتماعية الى كون هذه الاخيرة لم تعارضه علانية على نطاق جماعي أو أنه لم يرغب في تذكير نفسه وقرائه بمعارضة هذه المجموعة بالذات له لان ذلك قد يؤدي الى ردود فعل من طرف العلماء المغاربة ضده ولم تمكنه ظروفه بصفته « ضيفا ، لدى يوسف ابن ناشفين من ذلك .

ومن جهة أخرى ، فإن الشرائع الاجتماعية الاخرى التي تطرق لها عبد الله بن بلقين في إطار مناقشته للمجموعات التي عارضته عند اقتراب الجيوش المرابطية من أبواب غرناطة قصد احتلالها لجديرة بالمناقشة . المجموعة الاولى تتكون من « الجند من البربر ، الذين ساندوا يوسف وقبلوا عدم مقاومة جيشه لانهم توقعوا من ذلك حصولهم على الزيادة في الاجر (99) ويشير ذلك الى أن جيش عبد الله لم يرض بالاجور التي خصصت له : وتتكون المجموعة الاجتماعية الثانية التي تطرق لها عبد الله من « التجار ، وأهل البلد ، الذين ساندوا كل من كانت له اليد العليا في تسيير الشؤون العامة (100) . ويتكون النصف الثالث من الطبقة الشعبية التي وصفها عبد الله بن بلقين « بالرعية » والتي رحبت بيوسف بحرارة نفوق فرحيب المجموعات الاخرى (101) إن أسباب هذا الموقف من

طرف العامة لجديرة باهتمامنا كما انه من الطريف أنها شكلت اهتمام ملك طائفي قدمها لنا بنفسه .

كان غياب «الحرية» من أهم أسباب غضب العامة ، كما يعود سخط العامة على الاوضاع في غرناطة وثورتها على عبد الله بن بلقين الى أملها في أن تعفى من الضرائب باستثناء «الزكاة والمشر» (102) .

بعبارة أخرى ، كانت «الرعية» تعاني من الاضطهاد والضرائب الثقيلة . أما الشريعة الاجتماعية الرابعة التي ذكرها عبد الله بن بلقين فكانت تتكون من الجنود المغاربة الذين اعتمد عليهم للدفاع عن حصونه داخل دولة غرناطة الطائفية وقد ثاروا عليه ليرحبوا بأولاد أعمامهم المغاربة (103) . والشريعة الاجتماعية الخامسة التي عارضت عبد الله تتكون من «العبيد والصقالبة» الذين ساندوا الجيش المرابطي في لوشة لانهم رغبوا في معاملة أفضل بعد تعويض المرابطين لعبد الله . ومن الطريف أن نشير الى أن عبد الله ذكر العبيد والصقالبة كلا على حدة . الامر الذي يشير الى تمييزه بين الصقالبة الذين أنوا من إسبانيا الشمالية وأوربا وبين غيرهم من العبيد الذين ربما اتوا من افريقيا في غالب الاحيان . واحتج عبد الله حتى على «الخدم من النساء» و«الجزيان» الذين ساندوا يوسف ابن قاشفين ضده ليستطيعوا مغادرة البلاط والاستمتاع بحرينهم (104) . باختصار ، وجد عبد الله نفسه في حالة عزلة تامة . في دولته

الطائفية غرناطة التي نداعت أركانها عند وصول الجيش المرابطي الى أبوابها سنة 488 هـ . - 1090 - 1091 م .

يقدم لنا هذا الوصف الرائع لشعبية يوسف بن تاشفين في الأندلس بعض الأسباب التي دفعت بالفقهاء الى معارضة ملوك الطوائف . بل أكثر من هذا ، يعكس هذا الوصف وصول هذه الحالة الى أوجها نتيجة لمساندة الفقهاء ليوسف ومعارضتهم للملوك الطوائف .

ونلاحظ باهتمام أنه عند اقتراب جيش يوسف بن تاشفين من أبواب غرناطة ، بعث عبد الله ابن بلقين مالا الى يوسف حملته مجموعة من العلماء الذين أخبروا يوسف أن عبد الله يعتبر نفسه « . . . ابنه ، وغير مخالف ، عليه . . . » (106) وأجابه يوسف في رسالة بعثها له بواسطة الفقيه ابن سعدون يرفض فيها أي اتفاقية معه ويأمر عبد الله بتسليم غرناطة على أساس أنه لن يصاب بأذى وضرر (106) . وأخيرا سلم الملك الطائفي غرناطة لجيش يوسف سنة 488 هـ . 1090 - 1091 م . لأنه لم يعد على ثقة في رعيته أو يعتمد عليها ولأنه لم يعد ممكنا له أن يطلب اسعاف «الرومي» ألفونسو السادس (107) .

وختاما ، لخص عبد الله الورطة التي وقع فيها بكل وضوح عندما قال : «قرأيت حالي في هذا كله نالقة ، وعلمت أنه ، طول مدة امنساضي لو امنسكت ، لكان سلاطين الأندلس أجمع متآلبين على قنتي مع رعبتي لما يلزمهم من الطاعة للمرابط والطبع ، عسى يحصل لاحد مزيد في بلاده ، ولا تمكن لاحد منهم معوقتي ولا للاستفساد من أجلي (108) .

بعبارة أخرى ، فرض عليه الاستسلام إما لألفونسو السادس أو ليوسف بن ناشفين .

ومع ذلك لم يستسلم عبد الله وحده ليوسف بحيث تبعه غيره من ملوك الطوائف . ومن الطريف أن نشير الى أن عبد الله بعث رسائل لبعض ملوك الطوائف يستنجد بهم عندما وصل الجيش المرابطي الى أبوابه ومنهم ابن الافطس حاكم بطليوس إلا أنهم رفضوا مسانده على أساس أن هذا المشكل يخصه وحده في مواجهة يوسف ولا علاقة لهم به (109) فخاطبهم حاكم غرناطة قائلا بأنهم لن يغفلوا عن المصير الذي ينتظره : « هذا الامر منجر إليكم ، واليوم بي وغدا بكم » (110) .

ومما يشير دهشتنا أن نلاحظ كيف ظل ملوك الطوائف في سلبية مطلقة أمام هذه التطورات مسالمين، بينما حاصر جيش يوسف عواصم الدول الطائفية الواحدة تلو الأخرى الى أن وصل دورهم . فعلى سبيل المثال ، توجه جيش يوسف نحو المرية اثر استسلام غرناطة ففرع حاكمها ابن صمادح وذعر لما قد يتبع ذلك الى درجة أنه مات عند اقتراب جيش يوسف من أبواب دولته الطائفية (111) . وخلفه بعد ذلك ابنه معز الدولة . ومن الطريف أن نشير الى أن هذا الأخير كان يستشير مع ابنه (الذي لم يذكر اسمه في المصادر) والذي « . . . كان ينتحل فقها . . . » (112) .

وعندما وصل يوسف الى المرية أمر أن يقيد هذا الفقيه المزيف في السجن بالسلاسل (118) . وهذا مثال ضريب للفقيه الكاذب

وفضحه . وهكذا استطاع يوسف أن يحتل دول الطوائف كل دولة طائفية على حدة دون معارضة شديدة بكيفية مماثلة للطريقة التي تعامل معها ألفونسو السادس بطريقة فردية. لم يتمكن ملوك الطوائف من اتخاذ خطة موحدة حتى عندما تعلق الامر باستمرارهم في الوجود وتوقف على تلك الوحدة .

ويصعب علينا حقاً فهمنا قصر نظرهم هذا . فقد وصفه عبد الله بوضوح تام عندما قال : « فنحن لم يعن بعضنا بعضاً على الرومي فكيف على المسلم . . . » (114) .

ثم توجه يوسف بعد ذلك الى إشبيلية . طلب من المعتمد بن عباد أن يلتحق به إلا أن هذا الأخير رفض خوفاً على حياته . وهذا بالذات هو العذر الذي كان يوسف بحاجة إليه ليضرب حصاراً على إشبيلية . بدأ خطته باحتلال حصون مختلفة في دولة إشبيلية الطائفية الامر الذي دفع بالمعتمد الى الاستنجاد بألفونسو السادس . وهذا بالذات هو التبرير الذي كان يوسف بحاجة إليه ليضع حداً لحكم المعتمد . وقد وصف عبد الله بن بلقين هذه الوضعية قائلاً : « . . . وهي حجة أمير المسلمين على ابن عباد ، أن قال له : « ظفرت بكتك إلى الرومي وإرسالك عنه ! » فقال المعتمد : « لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادي بطراً وأشراً ، كنت أدام ! وأما بعد أن رأيت طلبني في الروح ، اضطررتني الضرورة الى ذلك للمدافعة ، ولو يوماً واحداً . وهي علة الجميع ، (115) . وهنا وصلت العداوة بين المعتمد ويوسف الى نقطة اللارجوع أي قمتها . إلا أن

يوسف استشار العلماء قبل اتخاذ أي عمل فكان قرارهم أنه يجب
مخاربة المعتمد (116) ، ثم استولى المرابطون على قرطبة وإشبيلية
سنة 484 هـ - 1091 م. قاد الأمير سير جيش يوسف إلى احتلال
قرطبة ثم فرض حصارا على إشبيلية التي تم الاستيلاء عليها
بتواطؤ الأهالي الإشبيليين في رجب من سنة 484 هـ - 1091 م.
وكان قد تم احتلال قرمونة ورندة قبل ذلك. وأرسل المعتمد
إلى مكناس صحبة أفراد عائلته من حيث أرسلوا إلى أغمات
التي لا تبعد عن العاصمة المرابطية مراكش.

وتم الاستيلاء على بطليوس بطريقة مشابهة. فعندما إفلح
ابن الأفضس في مواجهة الضغوط التي مارسها عليه يوسف بعث
إلى ألفونسو السادس مستنجدا به، الأمر الذي أعطى ليوسف
مبررا شرعيا لوضع نهاية لحكمه (117). وكان ابن الأفضس
على حد تعبير عبد الله بن بلقين مثل السمك الذي لا حيلة له
في كتاب دمنة (حليمة ودمنة) (118). ومما سهل أمر سقوطه
الدور الذي قام به الفقيه ابن إحسان الذي ولاء ابن الأفضس على
شؤون الدولة والذي رغم كونه كان مخلصا له بصفته يعمل على
الإطاحة بحكمه في الخفاء (119). وقملا كان موقف الفقهاء
ومشاركتهم في سقوط ملوك الطوائف ذا أهمية بالغة بحيث مكنوا
يوسف من احتلال الأندلس دون إراقة الكثير من الدماء بفضل
المساندة الكبرى التي قدمتها له مختلف الشرائح الاجتماعية
داخل الأندلس.

الهوامش

(1) مثلاً ، اهتم المؤرخون والفلاسفة الاسبان بصفة خاصة بالمعصور المتأخرة في التاريخ الاندلسي لان الاشكالية التي كانت نشتل بالهم دوما هي لماذا وكيف احتل المسلمون إسبانيا وكيف طردوا منها ؟ تفوق تآليف المؤرخين الاسبان حول عصر بني امية اهمية تآليفهم حول عصر ملوك الطوائف والمعهود المتأخرة من التاريخ الاندلسي من حيث عددها وقيمتها العلمية . ومع ذلك ، نلاحظ انعدام توازن كبير بين المصادر التاريخية الاساسية الموجودة لدراسة القرون الثلاثة الاولى من التاريخ الاندلسي و الدراسات التي انجزت حول تلك الحقبة التاريخية . لقد اهتم المؤرخون الفرنسيون واهلى راسهم إيفرست ليفي بروفنصال بعصر بني امية حيث استطاع المؤرخ الفرنسي المذكور ان يدرس دور العرب والبربر في المجتمع الاندلسي ، اما المغاربة فقد فضلوا التركيز على اهمية عهدي المرابطين والموحدين حيث كانت الاندلس تخضع للسلطة القائم في الضفة الجنوبية من مضيق جبل طارق . واقد تطرقنا لهذه

القضايا وغيرها بدقة أكثر في مقالة عنوانها «التصورات التاريخية الأندلس قديما وحديثا» («المجلة التاريخية المغربية» ، عدد 29 - 30 (1983) ص : 487 - 509) .

(2) راجع الفصل الذي به النظام الشرعي في إشبيلية والأندلس في كتابنا «التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف» ، تطون ، 1983 ، ص : 134 - 162 .

(3) لقد كان وعي المؤرخين في القرون الوسطى يتميز في غالب الأحيان بأهمية البعد الديني . وفيما يخص التاريخ الأندلسي في القرن الخامس للهجرة تنعكس هذه الظاهرة بوضوح في مختلف أنواع المصادر . مثلا ، تتميز كتب السير والطبقات مثل «كتاب الصلة» لابن بشكوال و «بنيّة المتوس» للضبي بطابع ديني واضح .

(4) إفرست ليفي بروفنسال ، «تاريخ إسبانيا الإسلامية» .

E. Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, tome 1, Paris - Leide, 1950, PP. 149 - 150.

(5) ميكل اسين بلاثوسوس ، «أبنت حزم القرطبي وتاريخه النقدي للأفكار الدينية» ،

Miguel Asin Palacios, Abenházam de Cordoba y Su historia de las Ideas Religiosas, tome 1, Madrid, 1927 .

(6) روبرت برونشفيك ، «مجادلات في القرون الوسطى حول مذهب مالك» :

Robert Brunschvig, Polémiques médiévales autour du zite de malik al-andalus, XV (1950) ' PP. 377 - 415 .

(7) عبد المجيد التركي ، «مناظرة ابن حزم والباهي حول مبادئ الفقه الإسلامي» ،

A. M. Turki, Polémiques entre Ibn Hazm et Bagl sur les principes de la loi musulmane, Alger, 1973 .

(8) إميليو غارسيا غوميث ، «فقيه إسباني» : أبو إسحاق الإلبيري ،

— ذ —

- الذبل والتكحلة
(كتاب) : 104 .
الذخيرة (كتاب) : 110 ، 131 ، 154 ، 180 ، 181 ، 184 .

— ر —

- الرازي : 24 .
الزلاقة : 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 49 ، 56 ، 73 .

— ز —

- زبير، محمد : 117 .
الزلاقة : 122 ، 126 ، 143 ، 159 ، 160 .

— س —

- سنانندو دافيديث
(ششند) : 151 ، 152 ، 153 ، 154 ، 155 .
سانشيس — البورنو،
كلاوديو : 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 171 ، 174 .
سرقسطة : 64 .

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب « 8 اجزا » ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، 1967 .

(17) تتوفر حاليا على اربعة اجزا من « البيان المغرب » علاوة على الجزء الخاص بالموحدين ، إلا ان الجزئين الثالث والرابع يعتبران اكثر اهمية من غيرهما لدراسة التاريخ الاندلسي في عصر ملوك الطوائف :

ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري ، « البيان المغرب في ذكر اخبار المغرب » ، ج 3 ، تحقيق إيفي برونصال ، باريس ، 1990 والجزء 4 ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، 1967 . لقد ناقشت اهمية مساهمة الاستاذ إحسان عباس في مجال الدراسات الاندلسية غيرها خلال القرن العشرين فيما يخص تحقيق المصادر العربية الاساسية . إن الامر لا يتعلق بمحقق دقيق بل بعلامة بارز ومن اهم ما قام به الدكتور إحسان عباس تحقيق او إعادة تحقيق اهم المصادر التاريخية الاندلسية بما فيها جميع القسام « ذخيرة ابن هشام ورسائل ابن حزم .

(18) ابو محمد عبد الواحد المراكشي ، « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، تحقيق محمد العربي المني ، القاهرة ، 1949 . ولقد نقل الاستاذ أمبروسو ويثي ميرندا (Huici Miranda) هذا الكتاب الى الاسبانية كما ترجمه الاستاذ فانيان (E'Fagnar) الى الفرنسية .

(19) ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحميري ، « الروض المعطار في خبر الاقطار » ، حققه الاستاذ ليفي برونصال ونقله الى الفرنسية بعنوان : La péninsule bérrique . . . leide , 1938

19 مكرر مؤلف مجهول ، « الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية » ، تحقيق إ. س . علوش ، الرباط ، 1996 . قام الدكتور سهير زحار والاستاذ عبد القادر زمامة بإعادة تحقيقه وطبعه في الرباط سنة 1979 . ونلاحظ انهما اعادا نشر النص الاصيل السدي حققه علوش دون ذكر اسمه ودون ادنى إشارة الى طبعة 1936 . وقد عرضا في بعض الاحيان العوامش التي وضعها

علوش في تحقيقه بتعاليق او شروح للمصطلحات الواردة في النص . ومع ذلك فرحب باعادة طبع احد المصادر الهامة لدراسة تاريخ المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس خصوصا وأن طبعة 1986 اصبحت مفقودة .

(20) قام ليفي بروفنسال بنشر النص العربي . ويتعلق الامر بالمخطوط الوحيد الذي كان موجودا في مكتبة جامع القرويين بفاس (عبد الله بن بلقهن الزيري ، «كتاب البيان» ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، 1956) ، وقام المستشرق الفرنسي بنقل جزء منه إلى الفرنسية :

E. Levi-Provencal , Les memoires de 'Abd - Alláh , dernier roi ziride de Grenade , Al - Andalus , III (1935) ' pp. 233 - 344 et IV (1935-39) , pp 29-145 .

وترجمه الدكتور امين توفيق الطيبي الى الانجليزية :

Amin Tawfiq Tibi , The Tibyán of 'Abdullah b. Buluggin Last Zirid Amir of Granada , Brill , Leide , 1986 .

وقام الاستاذ إميلو غارسيا غوميث مؤخرا بنقله الى الاسبانية :

E. Levi-Provencal y Emilio Garcia Gomez , El siglo XI en primera persona , Las Memorias de 'Abd - Alláh , último rey ziri de Granada destronado por Los Almoravides (1090) , Madrid , 1980 .

وسوف تشجع هذه الترجمة الاسبانية المؤرخين الاسبان على الاهتمام بالتاريخ الاندلسي في عهد دول الطوائف نظرا لاهمية هذا المصدر التاريخي الفريد من جهة ونظرا لصعوبة الحصول على النص العربي .

ونشير من جهة اخرى ، ان الجزء الثاني من اطروحة الدكتور الطيبي يحتوي على تعاليق وشروح تاريخية واعرفية ذات اهمية بالغة . وهناك بعض الدراسات حول تاريخ بني زيري بقرنطة ومنها : «بنو زيري بقرنطة» لاندرو هاندلر .

ANDREW Handler , The Zirids of Granada , Coral Gables , 1974 .

وكتاب «بنو زيري آخر ملوك قرنطة» للاستاذ إسماعيل العربي

بيروت ، 1980 .

21) لقد نقل عدد من المؤرخين المتأخرين اقتباسات من كتاب «المتين» لابن حيان ومنهم ابن عذاري في «البيان المغرب» إلا أن النصوص المنقولة في «ذخيرة» ابن بسام أكثر عدد من غيرها.

22) يمكن تمييز النصوص التي وضعها ابن حيان وتلك التي وضعها ابن بسام لأن الناسخ حدد كلياً منهما عندما قدم كل اقتباس قائلاً «قال ابن حيان» أو «قال ابن بسام». فعلى سبيل المثال، إن الذي وضع الفقرات حول أبي محمد بن عبد البر هو ابن بسام نفسه (أبو الحسن هلي بن بسام الشنتريزي، «الذخيرة في معاصر أهل الجزيرة»، القسم الثالث، ج. 1، تحقيق د. إحسان عباس، إيبيبا وترنس، 1975، ص. 125 - 148).

23) لقد وصلنا الإنتاج الأدبي الأندلسي في القرن الخامس للهجرة عبر مصادر متعددة، مثل «مطبخ الأندلس» لابن خاقان، إلا أن «ذخيرة» ابن بسام تعد أهم مصدر أدبي لدراسة الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف. ما يزال هذا الميراث الأدبي الغني بحاجة إلى الدراسة والتعليل، ولكن ظهرت دراسات هامة بعدة لغات حول الشعر الأندلسي في القرن الخامس للهجرة. شكلت «الذخيرة» نفسها موضوع أطروحة لنيل الدكتوراه بجامعة مدريد:

Boulos Elias Nassif, La Deixra de Ibn Bassám o' - Santarini ' estudio crítico de su contenido, tesis doctoral inédita, Madrid, 1962.

كما أن هناك دراسات جامعية ركزت على الجوانب المختلفة في شعر المعتمد بن عباد صاحب إشبهلة معتمدة في ذلك على مناهج مختلفة.

مثلاً، هناك دراسة للمواضيع الواردة في شعر المعتمد عنوانها «المعتمد ابن عباد واتجاه الشعري» دراسة للمواضيع، أنجزها الدكتور رضى السويسي؛ Ridha Soussi ' Al - Mu'tamid Ibn 'Abbád et son oeuvre Poétique, étude des Thèmes ' Tunis, 1977.

وتناول الدكتور شاندلاين البنية في شعر المعتمد في كتابه «الشكل والتركيب في شعر المعتمد بن عباد»:

Raymond Scheindlin, Form and Structure in the Poetry of Al-Mu'tamid Ibn 'Abbād Leides, 1974.

ولمحمد مجيد السيد دراسة عامة حول الشعر الاشبيلي في عهد دول الطوائف عنوانها «الشعر في ظل بني عبادة القاهرة . 1979 . وحاول الدكتور صلاح خالص ان يطبق النهج الماركسي على الشعر الاشبيلي في كتابه «اشبيلية في القرن الخامس الهجري بيروت . 1966 .

إن الشعراء الأندلسيين المعاصرين لعهد دول الطوائف مثل ابن زيدون وابن عمار وابن اللبابة من أشهر الشعراء الأندلسيين وهناك دراسات حول بعضهم . ومع ذلك لا يظهر في هذه الدراسات هل كان الشعر والادب يدرسان في المساجد وهو سؤال هام تصعب الاجابة عنه بشكل نهائي .

(24) ألف أبو محمد علي بن حزم أول كتاب من نوعه في مقارنة الاديان ولقد قام المستشرق ميكيل أسين بلاثيوس بنقله الى الاسبانية وأضاف إليه دراسة حول ابن حزم وفكره السياسي والفلسفي والشرعي بحيث ما زالت هذه الدراسة رغم قدمها من اعلى الدراسات الموجودة حول ابن حزم .

... Miguel Axin Palacios ' Abenhazam de Cordoba y su historia critica 5 tomos, Madrid, 1927 .

(25) أبو محمد علي بن حزم . «جمهرة انساب العرب» تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة . 1962 . وراجع في هذا الموضوع ايضا مقالة للاستاد خاسينطو بوش فيلا :

Jacinto Bosch Vila, Ibn Hazm, Genealogista , in Al-Mulk , 3 (1963) , Pp . 5 - 15 .

(26) وكان ابن حزم شاعرا بارزا بحيث نجد عددا من أبياته الشعرية في كتابه «طوق الحمامة» . تحقيق فاروق سعد . بيروت . 1972 . ونقل هذا الكتاب الى لغات مختلفة . بحيث ترجمه إميليو غارسيا غوميث الى الاسبانية ونقله المستشرق أبري (A. J. Arberry) إلى الإنجليزية . وقد نقل ابن حزم بعض

الآيات من اشعار ابن حزم (أبو الحسن علي بن حزم) «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» - القسم الأول، ج. 1، تحقيق د. إحسان عباس، ص: 166، 171 - 179.

(27) أبو محمد علي بن حزم «كتاب الأحكام في أصول الأحكام» حول دراسة نقدية لهذا الكتاب ولفكر ابن حزم في مجال الفقه راجع الفصل الذي يحمل عنوان «ابن حزم الفقيه» في مقدمة طوميش «كتاب الأخلاق والسير» لابن حزم:

Ibn Hazm, Epître Morale : Kitâb al-Ajlâq Wa - Lsiyer, ed, par Nada Tomiche, Beirouth, 1961, P.P. XXVI - XXXI.

(28) أبو محمد علي بن حزم «نقط العروس» - حققه م. ف. سيوارد (C. F. Seybeld) ونقله لويس سيكودي لوثينا إلى الإسبانية - بلنسية، 1974، ويطلق الطابع التاريخي والسياسي على هذا الكتاب بالدرجة الأولى. والفقير ابن حزم أيضا في المنطق فواجه انتقادات شديدة في هذا المجال «الذخيرة» - القسم الأول، ج. 1، المصدر السابق، ص: 167، ولابن حزم تصنيف للعلوم واتقد قام الاستاذ سالم يفوت بدراسة هذا الموضوع في مقالة (سالم يفوت، «تصنيف العلوم لدى ابن حزم»، «مجلة كلية الآداب» الرباط، رقم 9 (1982) ص: 53 - 91.

(29) يمكن ذكر الفقيه أبا حفص العوزني كمثل لفقيه وضع شرا يتميز بتعبيره عن بعض التطورات التاريخية ذات الأهمية الكبرى وبأسلوب أدبي فريد (راجع مثلا «الذخيرة» - القسم الثاني، ج. 1، تحقيق د. إحسان عباس، المصدر السابق، ص: 83 - 90).

(30) وهكذا نرى ابن بسام يشير إلى اقتباس لابن الفرضي ذكر فيه هذا الأخير سلسلة كاملة للرواة حيث قال: «أخبرني الفقيه أبو بكر بن الفقيه الوزير أبو محمد علي بن أحمد بن حزم قال: أخبرني القاضي أبو الوليد ابن الفرضي قال...» («الذخيرة» - القسم الأول، ج. 2، المصدر السابق، ص: 614 - 615).

(31) انظر «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج 2 ، المصدر السابق ص : 724 و 726 .

(32) نفس المصدر ، ص : 614 .

(33) يعتبر امثال فضية العلماء والفقهاء في الاندلس في القرن الخامس الهجري وعدم اعتبار اهميتها اكثر خطورة لكون هذا الموضوع لم ينل ما يستحقه من اهتمام الدارسين . وقد اصبحت اكثر اقتناها بعد ائجاز هذا الفصل بأن المصادر التاريخية الاولية المتوفرة لدراسة هذا الموضوع كافية لدراسة جوانب متعددة لموضوع العلماء والفقهاء الاندلسيين الذين لم ينطرق لها احد احد الساعة .

(34) اصبحت مصطلحات مثل «الاسلام المغربي» و «الاسلام الشعبي» متداولة لدى الباحثين الغربيين وحتى أورفوا دومينيك استعمل مصطلح «الاسلام الاندلسي» عنوانا للفصل الثاني من كتابه «عالم الاندلسيين من القرن الخامس الى السادس للعجزة» :

Urvoy Dominique , Le monde des ulémas 'avidalons du II - XIe ou VI - XIIe Siécles, Genève, 1978, P. 4.

اما مصطلح «الاسلام المغربي» فقد جاء استعماله عنوانا لاطروحة لنيل الدكتوراه حول زاوية امي الجعد :

Dale F Eickelman, Moroccan Islam : Tradition and change in a Pilgrimage Centa, Austin and London , 1976 .

(35) راجع الفصل الاول من هذا الكتاب حول العصبية والعلاقات الاجتماعية في الاندلس في عهد الطوائف .

(36) لقد نتج هذا للتقليد من احترام الطلبة لاساتذتهم وكانت سمعة الاساتذة ومكانتهم العلمية تعتبر ضمانا للمقدرة الفكرية والثقافية التي تمتع بها الطلبة .

(37) «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص : 168 .

(38) نفس المصدر ، ص : 168 - 169 .

(39) يظهر المستوى العلمي الرفيع الذي وصل إليه العلماء والفقهاء القرطبيين في جميع مجالات المعرفة في القرن الخامس للهجرة في كتب السير والطبقات. ويخرج القارىء بنفس الانطباع في الدراسة التي قام بانجازها دومينيك اورفوا . مثلاً ، نرى في الرسم الذي وضعه لتوزيع العلماء الاندلسيين الجغرافى في القرن الهجري الخامس ان قرطبة تأتي في المرتبة الاولى .
(Dominique Vrvoý, op. cit P. 32) .

(40) هذا هو الاستنتاج الذي وصلنا إليه في دراستنا حول جوانب مختلفة من التاريخ الاشبيلي (د . امحمد بن عبود ، «التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف» ، تطوان ، 1888) .
ان اهمية اشبيلية في نهاية القرن الخامس للهجرة دعت بالمرابطين الى اتخاذها عاصمة لهم في الاندلس .

(41) ابو العباس احمد المقرئ ، « نفع الطبيب في غصن الاندلس الرطب . . . » ، ج . 1 ، تحقيق د . احسان عباس ، بيروت ، 1968 ، ص : 220 - 221 . يعتبر وصف المقرئ لتطور العلوم والادب في الاندلس ، (نفس المصدر ، ص : 220 - 222) مفيد جدا إلا ان الطابع العام يطفى عليه كما انه لا يركز على حبة معينة . ومع ذلك ، يتميز هذا الوصف بكونه عبارة عن اعتراف كاتب مغربي ذي ثقافة موسوعة بالمستوى الثقافي الفريد الذي حققه الاندلسيون .

(42) راجع ابن بسام ، « الذخيرة » ، القسم الثالث ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 125 - 143 حول سيرة عبد الله بن عبد البر وانجازاته الادبية .

(43) لقد انتقد كل من ابن بسام وابن حبان عددا من الشخصيات الثقافية المعاصرة لهما . بل إن ابن حبان نفسه كان وضع انتقاد لكونه كان يتهم على غيره ومن احدث الامثلة لذلك البعث الذي شارك به الاستاذ عبد

الله كُنُون رئيس العلماء المغاربة حاليا في المؤتمر الذي خصص لابن حيان في الرباط من 19 الى 23 ففمبر 1961 . ونشر هذا البحث بعنوان «نقطة ضعف في تاريخ ابن حيان» (« المناهل » ، العدد 29 (1984) ، ص : 301 - 309) .

(44) يمكن ذكر مثال الفقيه ابي بكر بن ملح الذي عاش سكبيرا قبل ان يتحول الى عالم محترم .

(ابن بسام ، « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 . المصدر السابق ، ص : 452) . وعبر ابن ملح عن تغير سلوكه في آيات شعرية (نفس المصدر) .

(45) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 11 - 12 .

(46) « الذخيرة » ، القسم الاول ، ج . 2 ، المصدر السابق ، ص : 826 .

(47) نفس المصدر .

(48) نفس المصدر .

(49) نفس المصدر .

(50) تطرقتنا لهذا الاتجاه بالتفصيل عندما قدمنا الاوضاع الاقتصادية العامة في الاندلس في القرن العشري الخامس اعتمادا على المصادر التاريخية الاولى في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(51) ربما كانت احسن محاولة لتوضيح المشاكل المنهجية العامة المرتبطة بمصر الطوائف تلك التي قام بها الدكتور حسين مؤنس في مقاله « اعتبارات حول عصر ملوك الطوائف » .

Hassyn Monés , Consideraciones sobre la epoca de los reyes de taifas , Al - Andalus , XXXI (1966) , PP . 305 - 328 .

ومع ذلك ظهرت بعد صدور هذه المقالة دراسات جديدة حول عصر ملوك الطوائف .

(52) مثلا ، قرر القاضي بن عباد ان يعترف بهشام الثاني وبسيادته على اشميلية والاندلس سنة 426 هـ . - 1034 م . (« الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج .

- 1 : المصدر السابق : ص 16 - 17) إلا أن المعتضد بن عباد أمر بالأبلى
 خطاب الجمعة باشيلية باسم هشام الثاني منذ سنة 451 هـ . 1059 م .
 (المراكشي ، «المعجب» ، تحقيق معهد العربي العلمي ،
 القاهرة ، 1949 ، ص : 46) .
- (53) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص : 82 .
- (54) نفس المصدر .
- (55) نفس المصدر ، ص : 84 - 89 .
- (56) نفس المصدر ، ص : 89 - 88 .
- (57) نفس المصدر ، ص : 89 .
- (58) نفس المصدر ، ص : 453 .
- (59) نفس المصدر .
- (60) نفس المصدر .
- (61) نفس المصدر ، ص : 466 - 461 و 462 - 453 .
- (62) نفس المصدر ، ص : 454 .
- (63) نفس المصدر . ص : 462 .
- (64) حول سيرة ابن القصيرة راجع نفس المصدر ، ص : 239 - 244
 ومقالة «ابن القصيرة» د. هادي أندلسي في بلاط المرابطين :
 C. Alvarez de Morales, Ibn el-Qasira, un diplomate andalusi en la
 corte de los almoravides, Cuadernos de Historia del Islam (Granada), 8, (1977),
 P P. 85 - 94 .
- (65) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص : 239 .
- (66) نفس المصدر .
- (67) نفس المصدر ، ص : 241 - 244 .

- (68) «كتاب التبيان» المصدر السابق ، ص 241 .
- (69) «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 241 .
- (70) لقد اشار ابن بسام الى كتبه المتعددة والى معرفته الواسعة بحيث اعتبر أن مرقبته العلمية تقترب من المرتبة البارزة التي تمتع بها ابروه الفقيه ابو عمر بن عبد البر . («الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ، ص : 125 .
- (71) نفس المصدر .
- (72) نفس المصدر ، ص : 125 - 126 .
- (73) نفس المصدر ، ص : 126 .
- (74) نفس المصدر ، ص : 129 .
- (75) نفس المصدر ، ص : 136 - 143 .
- (76) قدم لنا ابن بسام الرواية التالية رواها عن وزير في البلاط الاشبيلي :
 «... ثم خرج أمره بأن يحضر الكاتب ابن عبد البر . فدخل ، ومجلسه له احتفل ، وقال له : اكتب الى ابن ابي عامر ، وجلل دم الخائن الفادر ، وكلاما هذا معناه . وجاءه الغلام بجلد الرق والدواة ، والوزراء والخاصة جلوس بذلك المقام ، وقالوا في انفسهم : ما عسى ان يتجه لابن عبد البر من كلام ، على هذه الحال ، لا سيما على الارتجال ، قال المحدث : فسوى الجلد ، وجعل يستبد ويكتب ، وهين المعتضد فيه تصمد وتصوب ، فلما فرغ منه اسمه ذلك إلى آخره ، وخرجوا عنه وهم يرون ان ابن عبد البر من آيات فاطرة ...»
 «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ، ص : 187 .
- (77) «الذخيرة» القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 169 .
- (78) نفس المصدر ، ص : 168 .
- (79) كان شاعرا فانتقده شعرا («الذخيرة» ، القسم الاول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص : 173) .

- (80) حول رواية ابن حيان لمعارضة الفقهاء الأندلسيين راجع نفس المصدر ، ص : 168 .
- (81) نفس المصدر ، ص : 169 - 171 .
- (82) نفس المصدر ، ص : 169 .
- (83) « الذخيرة » ، القسم الأول ، ج . 1 ، ص : 167 .
- (84) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 89 .
- (85) « الذخيرة » ، القسم الأول ، ج . 1 ، ص : 168 .
- (86) نفس المصدر ، ص : 170 .
- (87) نفس المصدر ، ص : 167 .
- (88) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 86 . لقد قدم لنا ابن بسام رواية لانشطة ابي الوليد الباجي وانتاجه الادبي وهي وإن كانت ملخصة فإنها تتصف مع ذلك بالدقة والترخيص (نفس المصدر ، ص : 94 - 97) . وسافر الباجي الى المشرق حيث كان يلقي الدروس . وقال ابن بسام بأنه سافر الى المشرق سنة 426 هـ . - 1030 م . وأنه ترك صدى طيبا في كل بلد زاره وأن ثره وشعره كانا معروفين هناك ، إلا ان شهرته كانت اهم في ميدان العلوم الدينية (نفس المصدر ، ص : 95) . وقام ابو الوليد الباجي ايضا بزيارة بعض ملوك الطوائف فآتت عليهم بضرورة توحيد صفوفهم فقبلوا نصائحه جهرا مع رفضهم لها سرا (نفس المصدر ، ص : 96) . ومع ذلك ، . . . وما كان افضى النقيه ، رحمه الله ، بأمرهم ، واعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالا تنوب ، ومدنبا يتوب (نفس المصدر) .
- (89) لقد نظرنا الاسباب الاقتصادية لمعركة الزلاقة في المدى البعيد وذلك في مقالة اخرى (د . محمد بن عبود ، « معركة الزلاقة والواقع الأندلسي » ، « البحث العلمي » ، العدد 33 (1982) ، ص : 49 - 67 .
- (90) « الذخيرة » ، القسم الثاني ، ج . 1 ، ص : 241 - 244 .

91) إن قضية الضرائب في دول الطوائف تستحق دون شك دراسة عميقة ومفصلة . ومع ذلك ، فإن المصادر العربية الأولية تقدم لنا أرقاما مضبوطة مع الإشارة . إلى أننا تتوفر على إشارات إلى ارتفاع الضرائب المستقر والتي نتائجها الخطيرة والوخيمة . لا نشك إطلاقا في كون الضرائب كانت تعد من بين أهم الأسباب للضغط العام في الأندلس في عصر الطوائف وقد فشل «ملوك» الطوائف في إيجاد حل لهذا المشكل اعتبارا لما أصاب الأوضاع الاقتصادية من تعقيد قبل معركة الزلاقة . وقد استفاد يوسف بن تاشفين هذا الفشل المدسنتغلال بحيث اعتبره من المبررات الديموقراطية والشرعية لتدخله العسكري في الأندلس . حول الجباية في بلنسية في أوائل القرن الخامس للهجرة - 11م راجع المقالة التالية :

A. L. de Prémare et Pierre Guichard, Croissance urbaine et société rurale à Valence au début de l'époque des royaumes des taifas (XI e siècle de J. C.) in Revue de Monde Musulman et de la Méditerranée, 31 (1981)

92) «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص . 116 .

93) قدم تميم بن بلقين صاحب مائة خمسين مثقالا لقااضي ابن سهل مقابل مساندة له ضد أخيه عبد الله بن بلقين إلا أن ابن سهل رفض هذا المبلغ كما رفض ابن يساند تميميا (نفس المصدر) .

94) نفس المصدر . ص 146 .

95) نفس المصدر .

96) نفس المصدر .

97) يعتبر هذا الجانب مثلا آخر لاهمية «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين بصفته مصدرا تاريخيا لقد قدم لنا صاحب «التبيان» الشرائع الاجتماعية للمجتمع القرطابي كما لو كان عالما اجتماعيا عصريا بحيث انتقد الدوافع المختلفة لمعارضة كل شريعة له عند وصول جيش يوسف بن تاشفين إلى قرطبة قصد احتلالها . ولا يمكن لنا إلا أن نعبر عن دهشتنا وأعجابنا بتحليله نظرا لما يقترب من التحليل العصرية .

الوضعية استكناه عناصر الاتجاه التضخمي المفرط في أبسط مظاهره : التشكك، وازدياد النقود المتداولة دون نمو مقابل للطاقة الانتاجية مما أدى إلى ارتفاع أسعار المنتوجات وبالإضافة إلى ارتفاع المبالغ التي كانت تؤدي في شكل جزية وكانت هذه الجزية التي فرضها الملوك المسيحيون تمثل عبئاً مالياً ثقيلاً على اقتصادها وفي ذات الوقت تعتبر مؤشراً على قوتها الاقتصادية كلها . وكانت تستخلص من المداخيل الصافية بعد تأدية كل المصاريف الحيوية، وكان ذلك لايزال في مستطاعهم . وفي مقابل أداء الجزية كانت تقدم لهم الحماية وتحالفات يحاولون من خلالها ضمان مصالحهم بطرق مختلفة . من بينها معاجمة دول طائفية أخرى واحتلال بعض حصونها غير أن مقدار الجزية المفروض تزايد إلى أن وصل إلى حد يتجاوز مقدرتهم . ولم يكن أمامهم أي حل سوى تأديتها أمام التهديد الذي كانت تمارس عليهم الجيوش المسيحية المستعدة لاصابهم بأضرار خطيرة في حالة رفض التأدية . وقد تجاوز مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف مداخيلهم مما أدى إلى تدهور اقتصادها إلى درجة لم يسبق مثيلها وأوصلهم إلى الإفلاس . فكم كان مبلغ الجزية المفروضة على دول الطوائف ؟ لقد كان يختلف باختلاف الظروف التي فرضت فيها ، ذلك أنه حين كان بعض ملوك الطوائف يتدمرون من العبء المالي الذي لم يعودوا يتحملونه، كان آخرون يزيدون في عروضهم مقابل مساعدة عسكرية أو سياسية . وهكذا نجد وزير المعتمد بن عباد ، ابن تمار ، في مفاوضة مع الفونسو السادس يعده بـ : 50,000 منقال

الفصل الرابع

التاريخ في الأندلس في عهد دول الطوائف

يعتبر التاريخ في الأندلس في القرن الهجري الخامس من المواضيع المشوقة والممتعة حقاً ويعود ذلك أساساً إلى كون التاريخ لم ينفصل عن التغاليد الأندلسية في الكتابة التاريخية حتى نهاية عهد دولة بني أمية وقد تميز بدرجة عظيمة من الاتقان خلال هذه الحقبة التاريخية إذ لم تعادله الكتابة التاريخية الأندلسية خلال القرون الأربعة التالية. وقبل أن نناقش التاريخ الأندلسي في القرن الخامس للهجرة يجب أن نشير إلى أن مصطلح التاريخ قديماً وفاضلاً سبب أساسي وهو أن الكتابة التاريخية تتميز بأبعاد متعددة، فهي تشمل المادة

(المادة التاريخية المتوفرة في المصادر الأولية) والتي تختلف من موضوع لآخر . ثم هناك مسألة اختيار المؤرخ للمادة التي سينطلق منها لمعالجة موضوعه . ومن الجدير بالذكر أن هذه الأخيرة بإمكانها أن تتأثر بعوامل ومقاييس متعددة ، وتضيف الى ذلك مساهمته الشخصية في فرض هذه المادة من خلال تفسيراته ومن خلال العلاقة بين ما ينتجه المؤرخ وما يبدعه ويعبر عنه . ويبعدو التأريخ معقداً بوضوح لانه يختلف عندما يتعلق الامر بتواريخ مختلفة ، حيث يشمل ذلك عهوداً مختلفة من حيث الفترة الزمنية والحدود الجغرافية والمجتمعات المختلفة . ونتيجة لهذا يبقى السؤال ، ما هو التأريخ ، فامضاً الى درجة بعيدة ، الى حين يطبق على موضوع ملموس ، محدد من حيث الزمان والمكان .

سنحاول في هذا الفصل أن نقدم بعض العناصر الرئيسية للكتابة التاريخية في الاندلس في القرن الهجري الخامس نظراً لكونها شكلت مرحلة هامة في التطور العام للتأريخ الاندلسي الذي كان يشكل تقليداً غنياً ومتنوعاً، خصوصاً لدى بعض المفكرين الاندلسيين البارزين المعاصرين لعهد الطوائف . من أنتاجوا أعمالاً متميزة تشكل كتابة تاريخية ممتازة في نظر المؤرخين المعاصرين (1) . وهذا مما يتيح لنا إمكانية الحديث عن التقليد الاندلسي في مجال التأريخ في القرن الخامس للهجرة وعن المؤرخين البارزين الذين شكلوا جزءاً لا يتجزأ من هذا التقليد ، والذين ساهموا في إغناؤه وتوجيهه توجيهاً جديداً وفي تطوره إذ كان له تأثير عميق في الكتابة التاريخية خلال القرون التي نلت القرن الهجري الخامس ، ليس في

الاندلس فحسب بل وخارج حدودها خصوصاً في المغرب الكبير
والششرق (2) .

من البديهي أن أية دراسة تاريخية ذات أهمية لا بد لها أن
تشمل دراسة مؤرخين جديين . إذا ، ما هي قيمة الكتابة التاريخية
في الاندلس في عهد دول الطوائف ؟ وما الفائدة من دراسة التاريخ
خلال فترة تاريخية محددة ؟ من المتفق عليه لدى العلماء حديثاً أن
التاريخ كان متطوراً جداً ولعل ذلك واضح في الاقتباسات الموجودة
في الدراسات المتعددة حول مؤرخ أندلسي بارز وتعني به ابن حيان
ولكن ما هي المقاييس التي يجب الاعتماد عليها للتفريق بين
التاريخ الجيد والردى ؟ وما هي العناصر التي جعلت من التاريخ
الاندلسي تاريخاً منفرداً عن غيره ؟ ولماذا وجب التركيز على القرن
الهجري الخامس وحده ؟ كيف يمكن لنا أن نقارن بين التاريخ
في الاندلس عموماً وما هي أبرز خصائصه وأهمها ؟ كيف تأثر كل
فرد من المؤرخين البارزين بالحركة العامة للكتابة التاريخية خلال
هذه الحقبة التاريخية ؟

هذه بعض الاسئلة المطروحة في هذا الفصل وسوف نحاول
الاجابة عنها جزئياً إن لم نتوقف في الاجابة عنها كلياً . إلا أن
الهدف الحقيقي لهذا الفصل لا يكمن في معالجة الموضوع بكيفية
نهائية بل فريد أساساً أن نثير اهتمام القراء به ونتمنشه وأن نقترح
المجالات الممكنة للبحث فيها في إطار هذا الموضوع كما نرغب
في تقديم أبرز جوانبه لمن يجهلها .

التاريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة

نريد قبل مناقشة طبيعة الكتابة التاريخية في الاندلس في القرن الخامس للهجرة أن نطرح السؤال التالي : ما هي العوامل التي مكنتها من تحقيق أهمية كبرى ؟ لقد ساهمت عوامل متعددة في تشجيع نمو هذه الظاهرة، إلا أن العوامل التالية تبرز أكثر من غيرها : الميراث الثقافي والفكري الاندلسي في القرن الهجري الخامس، والشخصيات الفكرية البارزة المعاصرة لتلك الحقبة التاريخية وحرية الفكر والتعبير، ونزاهة العلماء المعاصرين لتلك الحقبة وطاقاتهم الابداعية وتطور التاريخ بصفته مجالاً معرفياً متخصصاً.

(1) الميراث الثقافي والفكري الاندلسي :

بلغ تطور مختلف فروع المعرفة في الاندلس بما فيها التاريخ أوجه في القرن الخامس الهجري بفضل التقليد الثقافي والفكري الاندلسي الموروث عن القرون الثلاثة السابقة، وعن القرن الرابع للهجرة على وجه الخصوص، ولنا تتوفر على دراسات متعددة حول تلك الحصيلة الثقافية والفكرية الاندلسية خلال عهد دولة بني أمية (وكان الحكم الثاني وهو آخر خليفة أموي فعلي قد اشتهر بعلمه وبمكتبته الفريدة والزاهرة) (8) وتعود هذه الحصيلة الثقافية والفكرية في حد بعيد إلى تأثير المشرق في جل المجالات المعرفية. ولقد

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين
الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في
عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المشيم» يعتبر
عملاً تاريخياً أصيلاً (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد
البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار
في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية
يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها في الاندلس (8) وإن حصوله
على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من
القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز.
وبإمكاننا أن نذكر المزيد من الامثلة من هذا النوع في مجالات
معرفة متنوعة (9).

ومع هذا، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث
الاندلسي في القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية
خلال تلك الحقبة. ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام
في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاماً (10).
ويعكس هذا مثلاً فيما ساء بعض العلماء المشاركة بالتمصب الاندلسي،
ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع. كان
الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بترانيم الثقافي
والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار
والوصفي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس
ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 466 هـ).

ركز الباحثون الذين درسوا هذا التأثير على أهمية هذه الظاهرة بشدة. ولربما لم يصل تطور المعرفة في الأندلس إلى قمته إلا في القرن الخامس للهجرة ويعود ذلك أساساً إلى كون المعرفة أصبحت تتميز بطابع أصيل يرتبط بها ارتباطاً جذرياً.

وبعبارة أخرى، أصبحت المعرفة في الأندلس في القرن الخامس للهجرة معرفة أندلسية بالدرجة الأولى وتوضح أهمية هذا التحول الجذري أو هذه الثورة الثقافية في شتى مجالات المعرفة وهذا لا يعني أن العلماء الأندلسيين انفصلوا عن جذورهم بانحرافهم عن اتجاه أسلافهم في الأندلس وفي المشرق. بل لقد أخصبوا هذا التقليد الثقافي والفكري لينتجوا عطاءً جديداً وأصيلاً وأندلسياً بكل ما في الكلمة من دلالة. مثلاً، يعتبر معجم نراجم طبقات علماء وفقهاء القرن الخامس الهجري الذي صنفه ابن شكوال امتداداً لدراسة ابن الفريسي حول العلماء الأندلسيين إلى نهاية القرن الرابع للهجرة (4) وخلافاً لكتاب العقدة لابن عبد ربه الذي يشكل جمعاً لمختارات شعرية مشرقية (باستثناء شعره)، جمع ابن بسام في كتابه الضخم الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أشعار الأندلسيين المعاصرين للقرن الخامس الهجري ونشرهم في ثمانية أجزاء، وكان الهدف الأساسي من إنجاز هذا العمل أن يضع نهاية للموقف الذي كان سائداً قبل ذلك والفاصل بتبعية الأندلس الثقافية للمشرق العربي خاصة في ميدان الشعر. ولقد عبر ابن بسام عن نيته هذه صراحة في مقدمته، إلا أنه قارن بين أبيات الأندلسيين وأبيات الشعراء العرب

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين
الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في
عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المشيم» يعتبر
عملاً تاريخياً أصيلاً (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد
البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار
في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية
يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها في الاندلس (8) وإن حصوله
على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من
القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز.
وبإمكاننا أن نذكر المزيد من الامثلة من هذا النوع في مجالات
معرفة متنوعة (9).

ومع هذا، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث
الاندلسي في القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية
خلال تلك الحقبة. ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام
في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاماً (10).
ويعكس هذا مثلاً فيما ساء بعض العلماء المشاركة بالتمصب الاندلسي،
ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع. كان
الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بترانيم الثقافي
والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار
والوصفي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس
ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 466 هـ).

البارزين أمثال أبي الطيب المتنبي (5) لقد تأثر ابن حيان بالمؤرخين
الاندلسيين الذين سبقوه تأثيراً عميقاً (6) لكن تاريخه للاندلس في
عهد دول الطوائف وهو عصره والمعروف بكتاب «المشيم» يعتبر
عملاً تاريخياً أصيلاً (7) كما تأثرت شخصية الجغرافي أبي عبيد
البكري بالرحالة القادمين من المشرق ولو أنه زار مختلف الامصار
في الاندلس والمغرب ووصفها فإن وصفه الفريد للجزيرة العربية
يبقى مبنياً على الروايات التي سمعها في الاندلس (8) وإن حصوله
على هذه المعلومات من المشرق بطريقة غير مباشرة لا تنقص من
القيمة الثقافية التي تتميز بها كتابات هذا الجغرافي الاندلسي البارز.
وبإمكاننا أن نذكر المزيد من الامثلة من هذا النوع في مجالات
معرفة متنوعة (9).

ومع هذا، علينا ان نؤكد في هذا المجال - أن الميراث
الاندلسي في القرن الهجري الخامس أنتج حركة ثقافية وفكرية أندلسية
خلال تلك الحقبة. ومن هنا يأتي انتماء المفكرين الاندلسيين العظام
في القرن الخامس الى حركة شمولية كان وعيهم بها تاماً (10).
ويعكس هذا مثلاً فيما ساء بعض العلماء المشاركة بالتمصب الاندلسي،
ولكن الافتخار بانتماء شخص الى تقليد ثقافي أمر مشروع. كان
الاندلسيون في القرن الخامس للهجرة يفتخرون بترانيم الثقافي
والحضاري ولقد عبروا عنه بحرية مطلقة ويعكس هذا الافتخار
والوصفي الجماعي بوضوح في الرسائل حول محاسن أهل الاندلس
ومن أبرزها رسالة الشقندي ورسالة ابن حزم (384 - 466 هـ).

994 - 1084 م (11) - وهي تستحق تحليلا دقيقا ولكننا سوف نكتفي في إطار هذا الفصل بتقديم بعض الملاحظات .

كان وعي ابن حزم بهذه الحركة التي كان يشكل جزءا منها ناما . وكثيرا ما اعتبر وعي الاندلسيين باقتنائهم الثقافي نوعا من التعصب الأعمى والشعور بيفض الا جانب .

ومع ذلك ، فإننا لا نستغرب من افتخار الاندلسيين بانجازاتهم الثقافية والفكرية والحضارية ونرى في ذلك سلوكا عاديا ، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار تفوقهم على المشاركة في مجالات متعددة ثم تفوقهم المؤكد على المغاربة في جل فروع المعرفة السائدة خلال القرون الوسطى في المغرب والاندلس وباستثناء الثقافة الشعبية الشفوية ، لم توجد في المغرب حسب المقاييس الاندلسية ثقافة قبل القرن الهجري الخامس ، وليس سهلا علي بصفتي مغربيا أن أصرح بهذه الحقيقة ولكن يمكن لنا أن نقدم نفس الملاحظة إذا قارنا بين الاندلس والممالك المسيحية فسي شمال إسبانيا خلال هذه الحقبة ولقد اعترف المؤرخون الاسبان حديثا بحقيقة هذا التفوق ومنهم رامون مننديث بيدال .

(2) الشخصيات الثقافية البارزة في القرن الهجري الخامس :

ازدهرت الحركة الثقافية العامة في القرن الخامس اردهارا عظيما ويبدو ذلك واضحا في عدد من المجالات التي ظهرت (سوا الدينية أو العلمية منها) مع أنها كانت كثيرة التداخل في الاندلس نظرا للشمولية التي تطبع الاسلام الذي يعرض للحياة في أبعادها الروحية والدينية ويضم بالتالي العلم بجميع أبعاده من جهة كما يظهر ذلك في العدد الكبير من المؤلفات التي انتجت خلال تلك الحقبة (12). ولئن اشتهرت بعض المدن والناطق بظاقتها الإنتاجية، خصوصا قرطبة، فقد شملت هذه الحركة جل أطراف الاندلس (13). ونتيجة لتعميم التعليم وانتشار المعرفة في الاندلس في القرن الخامس للهجرة، أصبحت هذه الحركة تتصف بعدد كمي ينعكس في الإنتاج الثقافي والفكري الضخم الذي تميزت به هذه الحقبة وبعده كفي ينعكس في الشخصيات الثقافية البارزة المعاصرة التي ارتفعت الى مستوى عالمي في ميادين متعددة بما فيها التاريخ (14). فعلى سبيل المثال، إن أبرز الشعراء والفقهاء والمؤرخين وغيرهم من المفكرين الاندلسيين ظهروا في القرن الخامس بالذات. وإن كان هؤلاء المثقفون البارزون من افواج بيتهم فإنهم اغنو بدورهم الحركة الثقافية العامة في الاندلس وساهموا في المزيد من تقدم المعرفة في الاندلس فيما بعد. كما كان لهم تأثير في انتشار المعرفة

والفكر خارج الاندلس، وفي المغرب، وفي أنحاء أخرى من العالم الإسلامي من جهة، وفي أوروبا من جهة أخرى من جهة أخرى.

وإن كان من الواضح أن للميراث الثقافي والحركة العامة في الاندلس دوراً هاماً في إنتاج الشخصيات الثقافية البارزة في القرن الهجري الخامس، فإن أهمية مساهمة هذه الشخصيات العظيمة للحركة أمر بديهي. ومن الأهمية بمكان أن نطرح السؤال التالي: هل أبرزت الحركة الثقافية والفكرية العامة في الاندلس المفكرين الاندلسيين البارزين في القرن الهجري الخامس، أم أنتج هؤلاء هذه الحركة؟ لا يمكننا أن ننكر أن ابن حزم وابن بشكوال وابن زيدون وأبا الوليد الباجي وابن عبد البر والبكري وابن بسلام وعشرات من الأسماء الاندلسية اللامعة من نتاج الحركة الثقافية والفكرية العامة في الاندلس خلال القرن الخامس للهجرة بحيث إنهم كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ منها ولا يمكننا أن نتصور احتمال إنجازاتهم الفكرية لولا وجود هذه الحركة.

ومن جهة أخرى، يمكننا أن نتساءل، لماذا لم يكن ابن عبد البر مؤرخاً في مستوى ابن حبان أو لماذا أنتج ابن حزم وابن بشكوال أول كتاب في مقارنة الأدب من نوعه في التاريخ البشري؟ بعبارة أخرى، لا ينقص تأثير الحركة الشمولية والبيئية الاجتماعية من قيمة المساهمة الشخصية لعلماء القرن الخامس الهجري ومفكره بحيث اعترف بعبقريتهم كل من أهم بفكرهم وتعمق في دراستهم وفي فهمهم (15). وتجدد الإشارة إلى أنه بالرغم من فهمنا

لمساهمة الأندلس في القرن الهجري الخامس على المستوى الثقافي، فإن المجال ما يزال مفتوحاً في هذا المضمار. ومن أكثر الأسباب أهمية لحدود معرفتنا هذه الحقيقية التي تتجلى في كون المصادر الأولية لدراسة القرن الخامس للهجرة لم تستغل بفعالية لحد الآن، زيادة على أن المصادر التي وصلتنا لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً مما أنجز فعلاً. وسوف نكتفي بذكر بعض الأمثلة لإبراز هذه الحقائق. ففي مجال التاريخ، لم تصلنا إلا نصوص محدودة من كتاب «المتين» لابن حيان منقولة في مصادر أخرى (مثل «البيان المغرب»... لابن عذارى و«ذخيرة» ابن بسام) كما أن المؤرخين يشكون فيما إذا كان عمل «البطشة الكبرى» لابن حيان حول الصراعات والنزاعات التي فخرت عظم قرطبة في القرن الهجري الخامس إلى حين احتلالها من طرف المعتمد بن عباد والذي ذكره بعض المؤرخين القداماً يشكل كتاباً تاريخياً مستقلاً أو كان يشكل جزءاً من النسخة الأصلية الضائعة لكتاب «المتين» (16).

وفي إطار العلوم الدينية، لا تتوفر حالياً على عدد يذكر من الكتب التي أنجزها العلماء في القرن الخامس والتي ذكرها ابن بشكوال في «كتاب الصلة»، إلا أن الطاقة الإنتاجية الضخمة لهذه الشريحة المجموعة شكلت موضوع دراسة أنجزها الأستاذ أورفوا دومينيك وقشير نتائج تحاليله الكيفية بوضوح إلى عمق كبير من حيث الكم (17).

إن الأمثلة التي يمكن ذكرها متعددة ولكننا سوف نكتفي هنا بالإشارة إلى أسباب النقص في تصورنا الحالي للحركة الثقافية العامة في الأندلس في القرن العجري الخامس، فعلاوة على ما نعرفه عن الشخصيات الثقافية الأندلسية البارزة كانت هناك دون شك شخصيات أخرى لا نعرف عنها إلا القليل أو لا نعرف عنها شيئاً (18) ومع ذلك، وبالرغم من إدراكنا بما نجعله من هذه الحركة وشخصياتها البارزة، فإن ما نعرفه فعلاً عنها لا يستهان به كما أن ما يمكننا أن نعرفه من خلال المصادر الأولية المنشورة لا يقل أهمية. كانت الحركة الثقافية والفكرية العامة في الأندلس خلال القرن الخامس العجري تشكل الأرضية والقوة المحركة والمنعشة لكل شخصية ثقافية هامة. وقد برزت هذه الحركة العامة بخصائصها المختلفة التي أبرزها الملامح التالية:

(أ) تميزت بالشمولية بحيث كانت تضم مجالات مختلفة من العلوم الدينية والاجتماعية والطبيعية والتجريبية تظهر في تداخل المعرفة ضمن هذه الحركة بوضوح في الارتباط المباشر للفروع المعرفية المختلفة.

(ب) يظهر الطابع العام والشعبي لهذه الحركة في تنوع الاقتماء الاجتماعي لأعضائها. مثلاً، تعود أصول أعضائها الاجتماعية إلى شرائح مختلفة تنتمي إلى الأرياف وإلى المناطق الحضرية على السواء (بما في ذلك جل المدن الأندلسية وعدد كبير من

قراها) ويجب أن نضع هذه الظاهرة في إطار الحركة الاجتماعية التصاعدية والتنازلية، وفي الحركة الاجتماعية العمودية التي كان يتميز بها المجتمع الأندلسي. فعلى سبيل المثال، يظهر التوزيع الجغرافي للعلماء الأندلسيين في الأسماء التي كانوا يحملونها مثل القرطبي (من قرطبة) والأشبيلي (من إشبيلية) والباجي (من باجة) والداني (من دانية).

ج) برز تطور النقد الفكري والسياسي والتاريخي والجدال الديني والمذهبي داخل هذه الحركة بوضوح. ومن بين الأمثلة التي يمكن ذكرها انتقادات ابن حزم الصارمة لغيره والانتقادات الموجهة ضده (مثلاً، انتقاد ما ألقه في المنطق) (19)، والجدال بين الأديان (مثلاً، بين الإسلام واليهودية كما يعكس في جدال ابن حزم وابن النفراة أو في المناظرة بينه وبين أبي الوليد الباجي التي تعكس الصراع بين المذهب الظاهري والمذهب المالكي في الأندلس) وينعكس النقد السياسي في المواقف المختلفة التي اتخذها ابن حزم تجاه ملوك الطوائف. واكتسب النقد التاريخي أهميته خلال هذه الحقبة ويعكس ذلك مثلاً في الانتقادات العنيفة التي قدمها ابن حبان.

د) يتجلى الطابع الشمولي أو «الدولي» في المساهمة العالمية لمفكرينا، مثلاً، يمكن لنا أن نذكر أعمالاً مثل «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم و«الذخيرة في مخاسن أهل الجزيرة» لابن بسام ضمن هذا الصنف.

هـ) يظهر دور هذه الحركة بصفقتها إطارا عاما ومؤسسة قائمة في وعي المثقفين الجماعي بالانتماء إليها ، وينعكس ذلك في كون الافندلسيين كانوا يخاطبون بعضهم في تأليفهم الامر الذي يشير إلى ارتباطهم واتصال بعضهم ببعض الآخر ، إلا أنهم كانوا يخاطبون العلماء المشاركة في نفس الوقت ، الأمر الذي يشير إلى اتصالهم « بالخارج » . ويبدو هذا الوعي واضحا مثلا ، في الرسائل في محاسن أهل الافندلس مثل تلك التي وقعها ابن حزم .

و) لقد أدى المستوى الثقافي اعداد من ملوك الطوائف في الافندلس ومكانة الثقافة في السياسة إلى إنعاش هذه الحركة ، لان ملوك الطوائف كثيرا ما كانوا يشجعون المثقفين الافندلسيين البارزين ماديا ومعنويا .

ويجب أن نضع ذلك في الاطار السياسي العام حيث كانت السياسة أحيانا تعتمد على الآداب والثقافة بصفقتها وسيلتين للدعاية والاشهار ، مثلما كان الدين يستغل لاهداف سياسية .

ز) وأخيرا ، من المهم أن نلاحظ أن الأنشطة الثقافية والفكرية الرائجة في الافندلس في القرن الهجري الخامس تناقضت مع الوضعية السياسية والاقتصادية المساوية التي ازدهرت فيها بل قد يشعر المرء « بإغراء » ليتساءل هل ساهمت التقلبات الاقتصادية والسياسة المثيرة التي تميز بها عصر دول الطوائف بوصفها قوة محرركة ايجابية في إنعاش الحركة الثقافية والفكرية الافندلسية .

8) حرية التفكير والتعبير والانصاف الثقافي والابداع :

من الاسباب الاساسية التي تكمن وراء الانتاج الثقافي الاصيل الذي ظهر في الاندلس في القرن الخامس للهجرة بالرغم من النمو الاقتصادي السلمي والاضطرابات السياسية التي تميز بها ذلك العصر، يمكن ذكر الدوافع التالية: حرية الفكر والتعبير، والاستقامة الثقافية والابداع. وكان التاريخ من بين العلوم الاجتماعية التي استفادت من هذا الانفجار الثقافي. ومن الغريب أن نلاحظ أنه وجد أوضاعا مناسبة بالرغم من بعض مواقف ملوك الطوائف. ورغم الحالة المزرية للأوضاع السياسية والاقتصادية خلال تلك الحقبة، بلغ الاتجاه الثقافي والفكري الذي تطور في عهد بني أمية إلى أرقى مرحلة نضجه خلال عصر دول الطوائف حينما وصل عدد من المجالات المعرفية (بما فيها العلوم الدينية وغيرها) درجة فريدة من الاصاله والابداع في الاندلس.

إن وجود الابداع والاصالة غير ممكن دون حرية التعبير، فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن حرية التعبير وعن حرية التفكير في إطار الدول الطائفية حيث كان سلوك معظم ملوك الطوائف يتصف بأبشع أشكال الطغيان؟ دون أن نذكر أمثلة ملموسة مثل الاغتيالات المتعددة التي دبرها المعتضد بن عباد ومنها اغتياله لابيه إسماعيل وبعض الشخصيات الثقافية البارزة مثل الفقيه العوزفي (20)، وسوف نكتفي بملاحظة انعدام الاستقرار عند ملوك الطوائف وقد

كانوا نتيجة لهذه الحالة مستعدين لتجاوز أقصى الحدود إذا أصبحت سلطتهم مهددة أو في حالة نقوية مواقفهم ونفوذهم باتخاذهم إجراءات معينة تهدف إلى القضاء على المعارضة السياسية . ونظرا لكون سلطتهم كانت مهددة باستمرار ، فإنهم كانوا يعيشون في حالة نفسية جنونية كما كانت ردود فعلهم عنيفة الأذى اثاره سريعة ونلقائية مثلا ، بالرغم من حساسيته الشعرية لم يتردد المعتد بن عباد في ضرب أقرب الاصدقاء إليه وهو ابن عمار ضربة ذهبت بحياته وذلك بعد أن ثار ضد المعتد بمورسية (21) .

هل كانت هناك حرية التعبير والتفكير في الاندلس في القرن الخامس للهجرة ؟ وأية حرية كانت ؟ إن حرية التفكير والتعبير نتطلب نمنا . وقد كان هذا الاخير أحيانا مرتفعا جدا ، وفي إطار أوضاع كان مصير الافراد يتقلب فيها بين عشية وضحاها ، وحيث كانت الجرائم السياسية منتشرة وحيث كان الدور السياسي للثقافة يكتسي أهمية بالغة (مثلا ، يمكن ذكر الشعر ، خصوصا المدح ، كوسيلة للدعاية وتشجيع العلماء بهدف المحافظة على سمعة الحاكم لدى العامة . والعجا بصفته سلاحا سياسيا قاتلا والانتقادات السوجهة إلى الحكام والتطور العام في عصر دول الطوائف) كان مصير المثقفين والعلماء مهددا بتغيرات مثيره نتيجة للتطورات السياسية . مثلا ، أحرقت كتب ابن حزم بإشبيلية . ليس لان المعتد كان مهتما باهتمامات ابن حزم في مجالات مختلفة مثل الفقه والسياسة والفلسفة والدين أو الادب ولكن نظرا لخطورة النتائج السياسية التي

اتخذتها مواقف ابن حزم المتطرفة ضد الدول الطائفية عندما رفض شرعية أنظمتها السياسية. ولا شك أن بعض الاقتادات الشديدة التي وجهها ابن حبان الى بعض ملوك الطوائف أو إلى شخصيات معينة في كتابه «المتين» ، كان بإمكانها أن تكلفه حياته الامر الذي يدفعنا الى طرح السؤال التالي : أكان بعيدا عن الدول الطائفية التي كان ينتقد أصحابها بشدة أم إنه احتفظ بصكته خلال حياته لتعرف بعد وفاته . أم صحت الحالتان ؟

وبالرغم من هذه العراقيل المتعددة أصبحت حرية التعبير ممكنة وما يؤكد ذلك كتابات المؤلفين المعاصرين في مجالات متعددة. ولعل ما يفسر ذلك تنوع النظم السياسية التي كان يتصف به عصر دول الطوائف فنظرا لوضعية ملوك الطوائف التي نسزت بالاصطدامات العسكرية والسياسة المستمرة بينهم استطاع المفكرون الاندلسيون أن يجدوا المأوى في بعض أنحاء الاندلس . وقد كان اضطهاد الشخص من طرف ملك طايفي معين يشكل أحسن توصية في عهد الملوك الآخرين الذين كان يحاربهم . ومن ثم كان ابن حزم مضطهدا في بعض الدول الطائفية مثل إشبيلية . ومكرما في غيرها مثل ميورقة ، حيث شارك في مناظرته الشهيرة مع أبي الوليد الباجي (22) وأدى التنوع السياسي بالتالي الى تعدد الآراء والاتجاهات وينضج هذا التنوع بصفة خاصة في مجال التاريخ . خصوصا في مختلف أنواع الكتابات التاريخية التي وصلتنا من الاندلس في القرن الخامس للهجرة .

ومن جهة أخرى ، لم يتخذ جميع المثقفين الاندلسيين موقفا معارضا لملوك الطوائف قبل ظهور يوسف بن تاشفين على ساحة الأحداث ، كما لم يعان جميع العلماء من الاضطهاد على يد ملوك الطوائف . بل على العكس من ذلك ، كثيرا ما كانوا بحاجة سياسية ماسة إليهم ما دفعهم الى منافسة بعضهم لجلب أكثر عدد من العلماء والمثقفين الى بلاطانهم . وتتجلى أهمية هذا الانجاء في كون بعض ملوك الطوائف البارزين كانوا من العلماء والشعراء المرموقين ومن بين هؤلاء يمكن ذكر المعتمد بن عباد الشاعر الاشبيلي وملكها وحاكم سرقسطة وحتى عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة الذي تشكل مذكراته تاريخا هاما لفرناطة في عصر الطوائف .

ومن وجهة نظر العالم الاندلسي ، كان هذا الأخير في موقف يمكنه من اختيار الدولة الطائفية التي يستطيع أن يحصل فيها على أكثر درجة ممكنة من الحرية أو على أعلى دخل مالي ، وكان ذلك يختلف من عالم لآخر . ومع ذلك وجد بعض أنماط العلماء والمثقفين والادباء أنفسهم في مواقف متميزة بالمقارنة مع غيرهم . مثلا ، ربما كان الشعراء أكثر امتيازاً في بلاطات ملوك الطوائف ، خصوصا أولئك الذين كانوا مولعين بالشعر مثل حكام إشبيلية وكذا أولئك الحكام الذين اعتمدوا الأدب وسيلة لتحقيق أهداف سياسية .

ولا يجب أن نبالغ في دور ملوك الطوائف في إنعاش المعرفة . لقد جاء تطور معظم فكر العلماء خارج الدوائر الرسمية في الدول الطائفية

بعبارة أخرى ، عملوا بطريقة مستقلة . مثلاً نلاحظ غياب الرسميين في بلاطات ملوك الطوائف وأن الكتابة التاريخية تطورت بكيفية مستقلة في الأندلس في القرن الخامس للهجرة . وربما كان أقرب نموذج للتاريخ الرسمي هو « كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين حاكم غرناطة . إلا أن هذا الكتاب يتميز بدرجة معينة من التجرد والموضوعية نظراً لكونه كتب في المغرب عقب سقوط غرناطة في أيدي المرابطين . وعلاوة على ذلك ، لم يكتب بهدف تحقيق أغراض سياسية ملموسة فلأن المؤلف أنجز عمله بعد إبعاده عن السلطة .

ومن جهة أخرى ، فإن وجود درجة كبيرة من النقد في الكتب التاريخية التي ألفها المعاصرون مثل ابن حيان وعبد الله بن بلقين وابن حزم وغيرهم ، يعكس رغبة شديدة في التعبير عن الحقيقة كما رأوها . ويمكس كذلك الميل إلى تكوين آراء مستقلة وكذا درجة عظيمة من الاستقامة الأخلاقية والثقافية التي كانت تميز العلماء والمؤرخين الأندلسيين البارزين في القرن الخامس للهجرة ، لربما استطاع عدد من المثقفين الأندلسيين أمثال ابن حيان وابن حزم والفقهاء الهوزني أن يمارسوا حياة أفضل لولا تعبيرهم عن آرائهم وانتقادهم لغيرهم علانية (28) . إلا أن عدداً من العلماء الأندلسيين المعاصرين للقرن الخامس للهجرة اعتبروا راحتهم الشخصية أقل أهمية من حاجاتهم للتعبير عن شعورهم وآرائهم إزاء التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي عانت منه الأندلس

آنذاك ولاقخاذ موقف ضد الاتجاه العام الانتعاري الذي وقع فيه ملوك الطوائف لم يبق المثقفون الاندلسيون مكتوفي الأيدي أمام الاخطار الوشيكة التي كانت تهدد الاندلس . ولقد شكلت هذه الاخيرة دافعا هاما لرد فعلهم عندما حاولوا أن يفسروا الجوانب المختلفة للتغيرات والتقلبات العامة في عصرهم التي يصعب تفسيرها في أول وهلة . كما كانت ردود فعلهم شديدة أمام الفساد السياسي عم جميع أنحاء الاندلس فعبروا عن آرائهم بحرية تامة حتى عندما هددت حياتهم لاتهاجم الخلق في ميدان الثقافة .

بعبارة أخرى ، كانوا ملتزمين بمبادئ صارمة إلتزاما تاما ورفضوا اتخاذ أي موقف يتنازلون من خلاله عن معتقداتهم . لهذا ، كانت الجهود الثقافية لعدد من المثقفين الاندلسيين فرمي إلى فهم ظواهر مختلفة وتحليلها بدلا من استغلال هذه الجهود لجمع الاموال وتكديسها مع أن هناك بعض الاستثناءات .

(4) التاريخ بصفته مادة متخصصة :

لقد شكل التاريخ في الاندلس مادة تخصص ليس لأنه كان يشكل وسيلة للحصول على لقمة عيش ، ولكن لكون بعض العلماء الاندلسيين قضوا حياتهم في دراسة التاريخ وكتابته ليست وسيلة للتسلية بل بصفته فنا وعلما ، إن السؤال الذي يطرح

بالحاح في هذا الصدد هو : عن أي نوع من التاريخ نتحدث وما هي المكانة التي حظي بها التاريخ في ذهن العالم أو المؤرخ الأندلسي في القرن الخامس للهجرة ؟ يجب على الباحث ألا يشوه نظرة المؤرخ الأندلسي المعاصر لعهد الطوائف إلى المشكك وإلا فما أدرك مكانة التاريخ في الأندلس خلال تلك الحقبة حق الإدراك : لقد كان أسى هدف لدراسة التاريخ في الأندلس بكل وضوح دينيا بحيث كان يعتبر واجبا دينيا وجب القيام به في الدنيا مقابل أجر يجازى به المؤلف في الآخرة . وانفرد علماء القرن الخامس ومؤرخوه بإحدى الميزتين ، أولاهما تكوين ديني عميق (وهذه حالة العلماء والفقهاء إذ نجد أسما بارزة مثل ابن حزم وابن بشكوال) وثانيتهما تأثير ديني عميق نابع عن البيئة الاجتماعية وعن طبيعة التعليم في الأندلس (وينطبق مثلا على ابن بسام وهو ليس فقيها إنما نلّس أحيانا طابعا دينيا في أسلوبه من خلال المصطلحات اللغوية التي كان يلجأ إليها) . وإن ملاحظتنا هذه لا تنفي وجود الأسباب المادية لاهتمام الأندلسيين بالتاريخ .

إذا كان الدافع الأعظم والأسى للكتابة التاريخية في الأندلس واجبا دينيا ومع ذلك لم تتحول إلى مادة روحية ودينية . بل إن البعد الديني كان مكملا للتاريخ مع محافظته على طابعه الأساسي المادي . وعلينا أن نتذكر أن العلماء الأندلسيين المسلمين كانوا يعتبرون البعدين الروحي والمادي مكملين لبعضهما .

ومن جهة أخرى ، تجدر الإشارة إلى ملاحظة نعتبرها بالغة الأهمية والتي نكمن في كون الكتابة التاريخية التي ازدهرت في الأندلس في القرن الخامس للهجرة كانت بشكل جزأ لا يتجزأ من المعرفة .

هناك علاقة معرفية بين التاريخ وبين مناهج العلوم الدينية والمادية خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهما كانا يعتبران آنذاك جزءاً لا يتجزأ من المعرفة . ومن هنا تبيين خاصية تكامل المعرفة في إطار الدراسة العامة والخلفية الثقافية لدى العالم الأندلسي .

بعبارة أخرى ، كان اكتساب المعرفة مختلفا نظرا لكون العلماء كانوا يختارون مجالات معرفية مختلفة حسب ميولاتهم واهتماماتهم ، ولكنهم كانوا يعتبرون جميعا علماء . وهذا يعني أن تكامل المعرفة وتداخل فروعها قد مكن العلماء المهتمين بمجالات معينة من اغناء مستواهم الثقافي عن طريق تعرفهم على فروع معرفية تدخل ضمن تخصصهم . مثلاً ، نلاحظ أن المؤرخ كان يستفيد استفادة كبيرة من تكوينه في النحو واللغة من جهة ومن مطالعته الواسعة في مجالات مختلفة من جهة أخرى . كما أن جميع المؤرخين الذين سوف نتطرق لمناهجهم التاريخية في هذا الفصل أبرزوا في الأدب علاقة على تخصصات أخرى .

لقد نوه كل من ابن الخطيب والغافقي بأسلوب عبد الله بن بلقين الأدبي الذي يتميز بالبلاغة والوضوح (24) . وينفرد شعر ابن

حزم بالعجاء المقدم وبخصائص أدبية أخرى (25) ، وقد درس ابن حيان على يد أشهر النحويين في عصره بحيث انفرد بأسلوب أدبي متميز نال إعجاباً كبيراً في القرون الوسطى (26) ، وما يزال يجلب اهتمام المتخصصين المعاصرين في الأدب العربي (27) . وقد تمبزت ثقافة كل من ابن حزم وابن حيان بتصلعهما في العلوم الدينية كما حفظ عبد الله بن بلقين القرآن وعدداً من الأحاديث كما يظهر ذلك في الاقتباسات المتعددة في كتابه (28) . وكذلك شمل اهتمام المؤرخين الأندلسيين في عصر الطوائف مجالات لا تعتبر عادة ضمن المجالات التي لها ارتباط بالتاريخ ومن بينها الشعر والمنطق والتنجيم (29) .

إن تداخل المعرفة بفروعها المختلفة يدفعنا إلى طرح سؤال أساسي وهو : هل شكل تمازج الفروع المختلفة عرقلة أمام تطور التخصص في مجالات معينة ؟ هل تطور التاريخ بصفته مجالاً مستقلاً المتخصص أم كان من إنتاج غير المتخصصين ؟ هل كان التأريخ من إنتاج الدارسين عامة والمتخصصين في مجالات غير التاريخ أم كان من عمل مؤرخين متخصصين لماتزمين ؟ كيف ينعكس هذا في مناهجهم وفي تطور انهم التاريخية ؟ توجد إرهابات الجواب عن هذا السؤال ضمن الفرضية القائلة بأن وجود المتخصصين لا ينفي وجود () لان كليهما مهم بجوانب مختلفة لمعرفة واحدة . لهذا يمكننا أن نتحدث عن المؤرخين الأندلسيين المتخصصين وغير المتخصصين خلال القرن الخامس الهجري .

ومن ناحية أخرى ، لا يعني وجود تداخل بين الفروع المعرفية المختلفة في الاندلس، أن التخصص لم يكن موجودا . إن مجرد استعمالنا لمصطلح فروع المعرفة يشير الى انقسام هذه الفروع الى مجالات مستقلة منحصصة . وعلى العكس من ذلك ، تطور التخصص الى درجة كبيرة في الاندلس في عصر الطوائف وإن كان هذا واضحا بالنسبة للباحث العصري فإنه لم يكن أقل وضوحا بالنسبة للعلماء المعاصرين لتلك الحقبة والذين كانوا يعترفون بتخصص بعضهم في مجالات معينة دون استخدامهم لهذا المصطلح . ولم يعرف ذلك تطور التاريخ بل ساهم طابع تداخل المعرفة في إغناقه بصفته مادة للتخصص كما أشنى مناهجه .

والآن ، فلنحاول أن نتناقش مركز المؤرخين الاندلسيين المعاصرين لعهد الطوائف في إطار ثلاثة أصناف للكتابة التاريخية :

(أ) إن المؤرخ الذي يدرس التاريخ بصفة شمولية ، يعني في إطار شامل وعام بحيث لا يستطيع أن يقدم دراسة عميقة لانه يبقى سطحيا .

(ب) المؤرخ المتخصص الذي يختار موضوعا محسدا من حيث الزمان والمكان ثم يحاول أن يحلله على أساس منهج يتصف بتكامل المعرفة أو بتركيزه على مواضيع خاصة أو على الجوانب التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها .

(ج) المؤرخ المتخصص الذي يحاول أن يتخذ منهاجا تركيبيا بحيث يختار موضوعا عاما وشموليا ثم يحاول أن يدرسه بعمق بالرغم

من تعقيده ومن اتصافه بالتكامل المعرفي وهو المهتم بموضوع يتطلب منه التخصص في مجالات متعددة في نفس الوقت .

أين فضع المؤرخين الاندلسيين المعاصرين للقرن الخامس للهجرة في إطار هذه التصنيفات ؟ يبدو أنهم ينتمون إلى الصنفين الثاني والثالث بسهولة ، ومن التأليف المتخصصة في مجالات معينة فذكر ، المتين ، لابن حيان بصفته دراسة تاريخية لعصر الطوائف إلى وفاة المؤلف سنة 489 هـ - 1078 م . وكتب السير والتراجم التي تعد نوعاً من الكتب التاريخية التي لم تعط العناية الكافية بصفحتها نوعاً أندلسياً خاصاً (30) . أو الكتب الجغرافية التي يعد « المسالك والممالك » للبكري نموذجاً لها (31) . وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن هذين الصنفين لم يخصا التأليف التاريخية وحدها ، بل كانا يعيزان فروعاً معرفية أخرى . إذاً ، ما هي خصائص التأليف التي ظهرت في القرن الخامس للهجرة ومميزاتها وما هي المقاييس التي يمكننا أن نتخذها قصد التمييز بين التأليف التي يجب اعتبارها تاريخية وبين تلك التي لا تنطبق عليها هذه الصفة .

يعتبر تصورنا للمؤلف التاريخي تصوراً نسبياً ، ذلك أن المؤرخين يختلفون في تطبيق مقاييس مختلفة في أحكامهم على التأليف التاريخية حسب الأبعاد التي يقع اختيارهم على التركيز عليها . ثم هناك سؤال آخر يطرح في هذا المجال وهو أيجب علينا أن نحضن المؤرخين المعاصرين للقرون الوسطى للمقاييس والاحكام السائدة في وقتهم أم لمقاييسنا العصرية ؟ مثلاً ، يبدو أن ابن حيان يعتبر

من المؤرخين القلائل الذين تنطبق عليهم المقاييس والمعايير المطلوبة من المؤرخين العصريين فيما يخص المناهج التاريخية . ومع ذلك فقد يسقط ابن حيان نفسه في الامتحان إن نحن تسوننا عليه في امتحانه .

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية بالغة ونخص نوعية الكتابة التي نعتبرها كتابة تاريخية وتلك التي يجب أن نخلع منها تلك الصفة . إنه لمن الواضح والبديهي أن الكتابة التاريخية تعنى حتماً بالماضي ، ولكن هل يجب علينا أن نقبل جميع الكتابات المرتبطة بالماضي أو كانت تشكل جزءاً منه بصفتها كتابات تاريخية ؟ وقد يتضح هذا السؤال أكثر إن طرحنا سؤالاً آخر : لمن يكتب المؤرخ؟ مثلاً ، لا تواجه صعوبة في الأجواب عن هذا السؤال بالنسبة لابن حيان لأنه كتب تاريخ الاندلس لمعاصريه وللأجيال اللاحقة لعصره بهدف فهم ذلك التاريخ .

إلا أن هناك تآليف أخرى وضعت لأسباب مختلفة لا علاقة لها بالتاريخ بصفته مادة، بحيث قد نعتبرها كتابات تاريخية، وقد نرفض نعتها بذلك . مثلاً ، تتميز التآليف الجغرافية بخصائص منفردة ، ولكن نظراً للعلاقة البارزة بين الجغرافية والتاريخ ، درس الاستاذ فرانثيسكو بونس بوجيس كلا من المؤرخين والجغرافيين الاندلسيين في كتاب واحد (82) .

وأخيراً ، يبدو أننا خرجنا من مناقشتنا لمكانة التاريخ في القرن الخامس للهجرة بتصوير يتصف بالالتحام ليس بالنسبة للتاريخ

وحده بل وللمعلوم الأخرى التي كانت توجد في الأندلس آنذاك .
 ومع هذا فإن كان هذا التطور فعلا ملتصحا فذلك لا يعني غيابا تاما
 للنقاشات والصراعات إن وجود عدد كبير من العناصر التي
 تناقض بعضها البعض يشير في حد ذاته الى حتمية الصراع الفكري
 والثقافي . وإن قمنا بدراسة للعلاقة الجدلية بين الاتجاهات المختلفة
 داخل مادة تخصص واحدة مثل التاريخ أو الفقه أو السياسة في
 الأندلس في القرن الخامس للهجرة فسوف نخرج بنتائج طريفة .
 ومع ذلك ، لم تصل درجة هذا الصراع قط الى مرحلة الانفجار التي
 تشل الإبداع الثقافي . بل على العكس من ذلك إنه كان بطعمه .
 لا يمكن لاحد أن ينكر وجود الخلافات بين العلماء الأندلسيين أو
 بين هؤلاء . من جهة وبين المسيحيين واليهود في الأندلس من
 جهة ثانية . إلا أن التهديدات الخارجية وصلت الى درجة عظيمة
 من الخطورة فلم تتخذ الخلافات الداخلية صبغة الانفجار إلا قليلا أو
 نادرا . بدلا من ذلك ، كانت تحصرها وكان هدف عدد من
 الأنشطة الثقافية الأندلسية مواجهة التيارات الفكرية الخارجية خصوصا
 تلك التي كانت تأتي من المشرق وذلك بهدف تكوين بديل
 أندلسي (38) . ويعتبر المستوى الرفيع الذي وصل إليه التاريخ
 الأندلسي إحدى الوسائل التي عبر بواسطتها الأندلسيون عن هويتهم
 وذاتيتهم وشخصيتهم .

هناك ارتباط وثيق بين السؤال الآتي: ما هو التأليف التاريخي؟
 وبين سؤال آخر وهو ما هو التاريخ؟ ليس هذا بالمكان المناسب

للجواب عن السؤال الأخير . أولاً ، هناك عشرات من المفاهيم التي يمكن وضعها لتحديد طبيعة التاريخ وإذا قرر المرء الانطلاق من تحديد معين للتاريخ فقد يرفض اعتبار عدد من التأليف بصفتها تاريخية بالرغم من انطباق المفاهيم الأخرى لمصطلح التاريخ عليها لذلك تعتبر مسألة وضع تحديد معين للتاريخ نسبية، ليس لأن المصطلح محدود (إلا إذا قرر المؤلف ذلك) ، بل لأنه شمولي ، وليس لأنه يحتوي على عدة محدودة من العناصر ، بل لأن العناصر التي تشكل التاريخ متعددة ومتنوعة إلى درجة كبيرة . قد نجانب تعقيد هذا السؤال إذا اعتبرنا جل المصادر التاريخية الأولية التي يعتمد عليها المؤرخون المصريون المتخصصون في القرون الوسطى تأليف تاريخية من نوع أو آخر . وفي حالة الأندلس ، نجد الحوليات التي تعد عادة ضمن التأليف التاريخية مع أن علماء الاجتماع والانتروبولوجيين وحتى الفلاسفة قد لا يعتبرونها أكثر من أوصاف لآحداث سياسية (84) . ومع أننا نعتبر عادة كتب سير وطبقات العلماء والفقهاء ضمن المصادر الفقهية ، إلا أن قيمتها التاريخية ذات أهمية بالغة بحيث إنها تعكس مساهمة شريحة اجتماعية ثقافية ودينية خاصة . فمثلاً ، رقم القيمة الفقهية والدينية لـ « كتاب الصلاة » لابن بشكوال أو لـ « النعمة لكتاب الصلاة » لابن الأبار ، فإن هذين المصدرين يعتبران أساسيين لدراسة الدور الاجتماعي للفقهاء والعلماء الأندلسيين في القرن الخامس والسادس للهجرة (85) . كما أن رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة تعتبر من أهم المصادر لتكوين تصور عن الحياة

الاجتماعية والاقتصادية بإشبهلية (36) . واشتهر كتاب « طوق الحمامة » ببعده الأدبي والنفسي مع أن الحكايات التي رواها ابن حزم في هذا الكتاب كانت حقيقية فهي تعكس أهم جوانب الحياة الاجتماعية بقرطبة في القرن الخامس للهجرة بالتفصيل والتدقيق (37) . كما يشتمل على الأشعار التي وصلتنا عبر كتب المجموعات الشعرية والأدبية مثل « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام و « مطمح الأنفس » و « قلائد العقيان » لابن خاقان على أبيات شعرية يستطيع المؤرخون أن يقارنوا مضبوته بالمعلومات التاريخية الموجودة في مصادر أخرى وذلك قصد تحديد مدى صحة الحقائق التاريخية والواقف السياسية وسلوك الشخصيات والتطورات التاريخية (38) . لقد وضع عبد الله بن بليق في الأصل « كتاب التبيان » على شكل مذكراته إلا أنه يشكل وثيقة سياسية واجتماعية ونفسية فريدة لفهم الأندلس في القرن الخامس للهجرة (39) . لا تتوفر حالياً على نأليف يعود تاريخها إلى القرون الوسطى في التاريخ الاقتصادي ، إلا أننا تتوفر على مادة اقتصادية لا يستهان بها في المصادر الأدبية والفقهية والسياسية التي وصلتنا من القرن الخامس للهجرة . كما أنه بما مكان المؤرخ العصري أن يحدد النتائج والخلفيات الاقتصادية للتواريخ السياسية التي تتوفر عليها (40) بل هناك من بين الباحثين العصريين من تخصص في التاريخ الاقتصادي للأندلس أو في تاريخ فروع معينة من العلوم مثل الرياضيات (41) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن مفهوم التاريخ في القرون الوسطى قد

ينطبق أولاً ينطبق على الاندلس في القرن الخامس للهجرة فسوف
تتضح نسبة هذا التاريخ بوضوح أكثر . هناك الاعتراض القائل بأن
مصطلح القرون الوسطى لا ينطبق على العالم الإسلامي الذي كانت
الاندلس تشكل جزءاً منه ثقافياً ولغوياً وفكرياً واجتماعياً إن لم نقل
سياسياً واجتماعياً ، ثم هناك مسألة أخرى وهي أن ما كان يقبل
بصفته معاصراً في القرن الخامس يعتبر اليوم تاريخياً . ونتيجة
لذلك يمكن اعتبار جل ما ظهر في القرن الخامس كتباً ومصادر
تاريخية ، لان المؤرخ المعاصر لن يستطيع أن يفهم التاريخ الاندلسي
في القرن الخامس للهجرة ويدرسه بدون اعتماده على هذه المصادر .

إن طابع التنوع في الكتابة التاريخية في الاندلس في القرن
الهجري الخامس يتطلب دراسة خاصة به لان السؤال: ماهي الكتابة
التاريخية قد يصعب الجواب عنه . لقد حاولنا في الفصل الحالي
التركيز على هذا التنوع . وسوف نحاول في القسم التالي أن
ندرس مؤرخاً طرفياً وفريداً ونعرض لمنهجه التاريخي حتى نرى
كيف استطاع - اعتماداً على منهجه التاريخي - أن ينظر إلى الواقع
التاريخي الاندلسي " . أو بعبارة أدق ، كيف مكّنه ذلك المنهج من
النظر إليه على مستوى يختلف اختلافاً تاماً عن غيره، وذلك من خلال
تركيزه على بعد مختلف للواقع التاريخي الذي كان يشكل جزءاً
لا يتجزأ منه . قد يعترض القاري " على اعتبار عبد الله بن بلقين
مؤرخاً على أساس أن جل ما كتب كان متعلقاً بعصره وليس
تاريخياً وأنه لم يكن مستقلاً عن المواضيع التي عالجها من حيث

الزمان . ولذا فإنه لم يستفد من العاجز الزمني الذي يفصل المؤرخ من الحقبة التاريخية التي يتطرق لها عادة ، بعبارة أخرى ، يمكن أن نطرح سؤالاً هاماً في هذا الصدد : ما هي الفترة الزمنية التي يجب أن تفصل المؤرخ عن الحقبة التي يدرسها ؟ هناك حجة مضادة يمكن تقديمها وهي القائلة بأن الشخصيات التاريخية المعاصرة تفهم عصورها بعمق ويعود ذلك بالذات إلى ارتباطها بها مباشرة ولكونها تشكل جزءاً لا يتجزأ منها . وعلاوة على ذلك ، يستطيع المؤرخ المعاصر في كثير من الأحيان أن يعبر عن نسوع من الابتعاد والحياء على شرط أن يكون واعياً بانتمائه إلى الواقع الذي يدرسه .

إننا لا نشك إطلاقاً في كون عبد الله بن بلقين كان مؤرخاً ، بل إنه كان علاوة على ذلك مؤرخاً عظيماً كما سنرى في القسم التالي :

مثال عبد الله بن بلقين الزبيري :

لقد عبر الباحثون العصريون عن إعجابهم بقيمة كتابة عبد الله ابن بلقين التاريخية من خلال كتابه الوحيد الذي يحمل عنوان « كتاب النبيان » . لقد وضع هذا الكتاب أصلاً على شكل مذكرات ولكنه تحول إلى تأليف تاريخي طريف . ومع أنه نال إعجاب بعض العلماء البارزين مثل لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن

الهجري إلا أننا نستطيع اليوم أن نقدر هذا التأليف التاريخي
الفريد من نوعه وتتمعن فيه بفضل إفرست ليفي بروفنصال حين
اكتشف المخطوط الوحيد الذي وصلنا من هذا الكتاب في مكتبة
القرويين ثم حققه ونشره بالفاخرة سنة 1955م (42).

أنجز ليفي بروفنصال ترجمة ناقصة لهذا الكتاب بالفرنسية ما
بين سنة 1935 و 1939 (43). ثم نقله الدكتور أمين توفيق الطيبي
الى الانجليزية سنة 1971 (44). ثم تبعه الاستاذ غارسيا غومث الذي
نقله الى الاسبانية بالاشتراك مع ليفي بروفنصال ونشره سنة
1980 (45). ولقد مكننا نشر هذا العمل التاريخي بالعربية وترجمته
الى ثلاث لغات أوروبية من اكتشافه كمصدر تاريخي بالدرجة
الاولى ثم بصفته عملاً تاريخياً يتميز بالدقة المنهجية. صحيح لقد تم
استغلال هذا المصدر حديثاً من طرف المؤرخين المهتمين بدولة
غرناطة الطائفية التي حكمها بنو زيري ومنهم عبد الله بن بلقين
مؤلف الكتاب الذي لناقش أهميته التاريخية (46). ولئن كان
كل من الاساقدة أندرو هانلر (André Hanler) والاستاذ إسماعيل
العربي وآخرون مثل ليفي بروفنصال وغارسيا غومث وأمين توفيق
الطيبي قد ركزوا على قيمته الوحيدة بصفته مصدراً تاريخياً لفهم
عصر الطوائف، فإن منهجية عبد الله التاريخية لم تنل لحد الآن
ما تستحقه من اهتمام الدارسين. وتعود أهمية هذا الكتاب بصفته
مصدراً تاريخياً الى حد بعيد الى أصالة منهجية عبد الله التاريخية
ونظرته الى تاريخ غرناطة. لقد تطرق بعض الباحثين الى بعض

جوانب هذه المنهجية (47) . إلا أن هناك جوانب أخرى ما زالت تنتظر من يكشف عنها .

نعتبر منهجية عبد الله ثمره لبعض الاختيارات الأساسية التي اتخذها والتي كان لها تأثير إيجابي من ناحية . وسلبية من ناحية أخرى .

لقد تعرض ابن بلقين في «كتاب التبيان» لتاريخ منطقة محددة تنحصر في حدود دولة غرناطة المرابطية وذلك خلال حقبة تاريخية محددة خلال حكم دولة موحدة هي دولة بني زيري . يعني زاوي بن زيري (حكم من 408 - 410 هـ - 1013 - 1019 م) . وحبوس بن ماكسان (حكم من 410 - 429 هـ - 1019 - 1038 م) . وباديس بن حبوس (حكم من 429 - 466 هـ - 1038 - 1073 م) . وعبد الله بن بلقين نفسه (حكم من 466 - 488 هـ - 1073 - 1090 م) (48) .

لقد استطاع المؤلف بسبب اختياره الإيجابي بحصر موضوع دراسته في غرناطة خلال حقبة زمنية محددة أن يدرس مادة كان يعرفها معرفة شخصية دقيقة وأن يسيطر عليها سيطرة تامة ويتعمق فيها وذلك سواءً عندما تطرق لأبعادها الشمولية أو لتفاصيلها الدقيقة.

إن التعمق الذي يتصف به هذا الكتاب يعود إلى حد بعيد إلى كون تاريخ عبد الله لغرناطة يتطرق للأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إطار الانداس العام . ونتيجة لذلك ، فقد تطرق عبد لعلاقته ولاتصالاته مع الزعماء المعاصرين لتلك الحقبة ومنهم ألفونسو

السادس ملك ليون وقشتالة والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وأخيه تميم بن بلقين صاحب مالقة (49) . وقدّم لنا عبد الله بن بلقين روايات عن الأحداث الهامة مثل احتلال ألفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ - 1085 م . ومعركة الزلاقة في السنة التي تلتها والحصار الذي أقامه يوسف بن تاشفين والاندلسيون حول حصن لبيط (Alledo) (50) .

ومع ذلك فإن اختيار عبد الله التركيز على تاريخ غرناطة كان له أثر سلبي بحيث إنه لم يعالج التاريخ الاندلسي عموماً بالعمق الذي كان بإمكانه أن يفعل لو وسع موضوعه ليشمل تاريخ المناطق الاندلسية الأخرى . وقد بأسف المؤرخ المصري لكون عبد الله لم يكتب تاريخ الاندلس كلها ، لاننا نلاحظ من خلال الطريقة التي كتب بها تاريخ غرناطة ومن خلال المادة الغنية والنفسية التي قدمها حول الاندلس عموماً أنه كان بإمكان هذا المؤلف المؤهل أن يمتعنا بتاريخ فريد للاندلس . ونتيجة لذلك ، فإن أمين توفيق الطيبي انتقده لكونه تجاهل بعض الأحداث والتطورات الهامة في التاريخ الاندلسي والمغربي مثل «... العداوة الضارية التي كانت سائدة بين برابر صنهاجة وزفانة...» (51) . و «... الغاء الخلافة الاموية في قرطبة (422 هـ - 1031 م...» (52) . و «... اغتيال إسماعيل بن عباد في المعركة مع باديس وحلفائه في Eclia في محرم 481 هـ - سبتمبر - أكتوبر

1089... ، (53) و «... استيلاء المجوس على بربسترو وسقوط كومبرا في يد ؟ فرخادو الاول ، (54) .

كما انتقد الدكتور الطبي ابن بلقين على تزييفه لبعض الاحداث لتتلاءم مع مصالحه ومن هذه الانتقادات ما قدمه الطبي في النص التالي :

« قيل إن هلايأ وهو أحد أبناء زاوي بقي في الورا بعد اتجاه أبيه نحو إفريقية وذلك بهدف الاستيلاء على غرناطة والسيطرة عليها إلا أن مخططه فشل واستطاع حبوس أن يحتلها بمساعدة أهل غرناطة . ومع ذلك فإن المؤلف (عبد الله) لا يقول شيئاً عن ولد زاوي المذكور وذلك لسببين أولهما أنه لم يرد أن يشير شك القراء بشأن شريعة قرباء حبوس وخلفه المباشرين ومنهم عبد الله نفسه وثانيهما أنه لم يرغب في جلب الانظار إلى الخلافات بين أبناء زاوي وابن أخيه، (55) .

وهناك نقص آخر ذو أهمية كبرى في « كتاب التبيان » وهو الغياب التام للتواريخ . ومع ذلك إننا نستطيع أن نحدد تواريخ الاحداث الهامة مثل معركة الزلاقة اعتماداً على المصادر المعاصرة مع أن المصادر المتأخرة كثيراً ما نخطئ في تحديد التواريخ (56) .

وقد تطرق الطبي لثغرة أخرى في « كتاب التبيان » لعبد الله بن بلقين ونعني ميل المؤلف إلى اتخاذ مواقف سلبية تجاه بعض

الناس عندما يخدم ذلك مصلحته الشخصية كما حصل عندما طرد عبد الله مقاتل بن عطية البرزالي المعروف بالرويو (El Rojo) من منصب العامل على ليوسنة بالرغم من الخدمات الجليلة التي قدمها له وبالرغم من مؤهلاته للقيام بواجبه في ذلك المنصب والتي اعترف بها ابن الخطيب (57).

ومن جهة أخرى . هناك أمثلة متعددة تؤكد أن المعلومات التي قدمها عبد الله كانت أحيانا صحيحة حيث أخطأت المصادر المتأخرة . مثلا ، تعتبر رواية عبد الله لمعركة الزلاقة أكثر دقة وواقعية من عدد الروايات التي بالغ أصحابها فيها ويعود ذلك إلى كون عبد الله بن بلقين كان من بين المشاركين في المعركة .

وأخيرا ، نستطيع أن نضيف انتقادات أخرى إلى تلك التي ذكرنا أننا وذلك من خلال ذكرنا لأهم التطورات التاريخية في الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة التي لم يحدثنا عنها عبد الله ، إلا أن أي انتقادات يمكننا أن نوجهها لعبد الله لا يمكنها أن تتصف بالموضوعية إلا إذا انتقدناه على ما قدمه فعلا وليس على ما كان يودنا أن يقدمه لنا .

وإذا قمنا بنمحيص متوازن لما أنتجه وطريقته في الكتابة التاريخية فسوف تكون النتيجة إيجابية . علاوة على ذلك ، فإن حصر اهتمام عبد الله بغرناطة يمنع المؤرخ العصري مصدراً لا غنى عنه في إنجاز تاريخ شمولي للأندلس .

هناك من المؤرخين من تطرق للتاريخ الاندلسي بطريقة شمولية مثل ابن حبان . إلا أن عبد الله ليس الوحيد الذي ركز مجهوده على منطقة محددة .

مثلا . ركز ابن السيرفي (المتوفى في حوالي سنة 557 هـ . - 1162 م .) بعده على تاريخ غرناطة في إطار تاريخ الاندلس في عصر المرابطين (58) ويمكن ذكر مثال آخر لمؤرخ اختار التركيز على تاريخ منطقة محددة وهو أحمد بن عمر العذري (المتوفى سنة 478 هـ . - 1085 م .) المعاصر للقرن العجبري الخامس الذي ألف تاريخا للاندلس والمربة على وجه الخصوص (59) . لهذا فمن حسن حظنا أن عبد الله حصر مجهوده في منطقة جغرافية كان يعرفها حق المعرفة لانه درسها بطريقة تسلط الاضواء على غرناطة وسكانها من جهة وعلى الاندلس وسكانها بصفة عامة من جهة ثانية .

وتعود قيمة كتاب ابن بلقين بصفته .صدرا تاريخيا بالدرجة الاولى إلى منهجه الذي يبرز أساسا لكونه يتميز بتكامل المعرفة فيه . بعبارة أخرى ، تعود القيمة العظيمة للمعلومات التاريخية المرتبطة بهذا العصر التي قدمها لنا عبد الله الى تمكنه الخاص من اختيار المعلومات التي يهتم بها المؤرخون العصريون ويعطونها الاولوية في إطار عام يضم مواد متعددة (مثل المادة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تميز هذا الكتاب أكثر من غيرها) .

مثلا ، لقد ناقش الاسباب الاقتصادية لثورة ليوسنة المنمثلة في إنقال سكانها بالضرائب المفرطة (60) . وأعطانا فكرة واضحة عن

قيمة المال في الأندلس عندما ذكر المبالغ المالية التي فرضها ألفونسو السادس كجزية سنوية على ممالك الطوائف (61) ، والمبلغ المالي الذي أداه القادر بن ذي النون لألفونسو السادس مقابل مساعدته لاسترجاع طليطلة (62) أو المبلغ المالي الذي أخذ منه بعد سقوط دولة غرناطة الطائفية في يد الجيش المرابطي (63) . كما يبرز البعد السياسي على مستويات مختلفة مثلما حصل عندما قام بتجاهل أطماع ألفونسو السادس التوسعية في الأندلس أو الأسباب التي دفعت بيوسف ابن تاشفين إلى اتخاذ قرار احتلال دول الطوائف لصالحه (64) . وبعد هذا الكتاب أيضا تاريخا اجتماعيا غنيا ، لأن الشرائح الاجتماعية المختلفة في غرناطة تبرز كما تبرز التقاليد الاجتماعية التي كانت تختلف في شتى مناطق الأندلس وأبحاثها (65) . ولا يقل البعد الإنساني والنفسي عن غيره ، ليس فيما يخص الأندلسيين فحسب ، بل حتى المسيحيين في شمال إسبانيا والمغاربة في العداوة . ويبرز هذا البعد بشدة لأنه قام بوصف سلوكهم في ظروف متعددة ، كما قام بتقديم أسباب ذلك السلوك وقد ركز على هذا البعد بطريقة فريدة لأنه ناقش سلوك الشرائح المختلفة من جهة وسلوك الأفراد من الملوك والوزراء والعمال إلى العلماء والثوار من جهة أخرى (66) .

ومما يثير إعجاب القاري " قدرة المؤلف على اختيار المادة العامة مع تركه للمعلومات السطحية التي تطبع بعض الكتب التاريخية الضعيفة ، كما استطاع المؤلف أن بجانب التكرار وذلك

نظرا لميله الى الاختصار والدقة . مثلا ، يحتوي « كتاب النبيان » على مادة وافرة حول غرناطة والاندلس في القرن الخامس الهجري لا نجدها في غيرها من المصادر . وعندما تختلف هذه المادة في محتواها مع تلك الموجودة في مصادر أخرى فيما يخص عصر الطوائف تكون الاولى هي الصحيحة في غالب الاحيان (67) . يمكن لنا أن نذكر أمثلة متعددة لذلك ، ولكننا سوف نكتفي بالإشارة إلى أن الدكتور الطبي قد أرفق ترجمته « للتيان » إلى الانجليزية بجزء ثان يحتوي على هوامش وملاحظات دقيقة ومفصلة يشرح فيها مضمون الكتاب وينوسع في تحليله ومناقشته (68) .

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أن كتاب عبد الله هذا يكتسي أهمية كبرى خصوصا في القسم الذي تطرق فيه للحقبة التي حكم خلالها ليس فقط لكون هذا القسم يستغرق ثلثي الكتاب بينما يقتصر القسم الذي تطرق فيه لحكم كل من زاوي وحبوس ومكسان على الثلث الاول من الكتاب ، بل إن القسم الذي هالج فيه فترة حكمه يتميز بشعوره بالالفة والمعرفة العميقة لما تطرق له وذلك لأسباب لا نحتاج إلى الشرح وبعود تفوقه في هذا القسم أيضا إلى أن التقنيات والمناهج التي اعتمدها عندما تعرض لعصره أكثر تطورا من تلك التي استعملها عند معالجته لتاريخ أجداده (69) .

وأخيرا ، أضاف أسلوب عبد الله بن بلقين والطريقة التي كتب بها تاريخه قيمة للمادة التي قدمها ، لا لكونه لم يحصر مجهوده في إنجاز تاريخ وصفي يطفى عليه سرد الاحداث ، بل لأنه يحلل

المشاكل والاحول المختلفة بحيث يطرح أحيانا أسئلة مشابهة لتلك التي يطرحها المؤرخون المصريون بل إنه يقترح أجوبة ممكنة ويحلل التطورات التاريخية في إطارها العام ، إما داخل الإطار الاجتماعي العام للمجتمع الأندلسي عندما يتعامل مع المشاكل الانسانية والاجتماعية ، وإما داخل إطار الاتجاهات الدولية العامة عندما يتعامل مع صراعات غرناطة الداخلية واصطداماتها مع دول طائفية أخرى مثل إشبيلية من جهة ، وعلاقات الدول الطائفية جملة مع الممالك المسيحية في إسبانيا الشمالية والمغرب إثر ظهور المرابطين على «الساحة الدولية» من جهة أخرى. وبعبارة أخرى، كان موقفا أكثر عندما حلل الجزئيات بعمق دون أن يفصل هذه الاجزاء عن إطارها العام على المستوى الاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي .

وفي النهاية ، يبرز تاريخ عبد الله لكونه شكل تاريخيا داخليا لغرناطة لأنه درس موضوعا وحقبة تاريخية عايشها وساهم في صنعها، إلا أنه من المهم أيضا أن نؤكد أنه كتب عن هذه الحقبة بأسلوب «خارجي» ، بمعنى أنه كتب هذا التاريخ بعد أن أصبح جزءاً من الماضي ، بعيدا عن غرناطة والأندلس بعد نفيه إلى أشمات قرب مراکش . ونتيجة لذلك ، إذا كان عبد الله قد استطاع ان يستفيد من تجربته بصفته مشاركا مباشرا في التاريخ الذي كتب عنه ، فإنه استطاع كذلك أن يكتب بدرجة معينة من التجرد اعتبارا لكونه تاريخ دولة غرناطة الطائفية وتاريخ الدول الطائفية الأخرى

كان قد وصل إلى قمة تطورها ونظرا لكونه استطاع أن يستفيد من التجرد بالرغم من اقترابه الزمني من الفترة التي كتب عنها في الوقت الذي ألف فيه تاريخه بحيث كانت الحقبة التاريخية التي كتب عنها تشكل حاضره في ماضٍ قريب له .

لقد وضع الأستاذ غارسيا غوميث عنوانا جديدا لترجمته الإسبانية «كتاب التيهان» وهو «القرن الحادي عشر في ضمير المتكلم . . .» وبمعكس العنوان الذي وقع اختيار الأستاذ غوميث عليه بكل وضوح الروح التلقائية العميقة التي تميز هذا الكتاب . يبرز البعد الشخصي بل الذاتي لهذا الكتاب على مستويات متعددة .

يتجلى المستوى الأول في سرد المؤلف للأحداث وفي وصفه للتطورات التي كان حاضرا فيها أو عايشها والتي يعد بعضها من أهم الأحداث في التاريخ الأندلسي ومنها معركة الزلاقة واحتلال يوسف بن تاشفين لمرنطة وبعض الدول الطائفية الأخرى مثل إشبيلية وألمرية وبطليوس (70) .

وينعكس المستوى الثاني للبعد الشخصي في كتابة عبد الله التاريخية بوضوح في الاقتباسات المباشرة التي نقلها في كتابه . لم يكتف المؤلف بنقل اقتباساته الشخصية عندما كتب : « فقلت : (لمبروث ألفونسو) . . . (71) و « فقلت له : (لنميم بن بلقين حاكم مالقة) . . . (72) .

بل نقل اقتباسات غيره عندما قال مثلا: « وقال لي رسوله . . . (73) أو « وقال لي ابن القليمي : . . . (74) ، كما أن عبد الله بن

بلقين كان أحيانا ينقل اقتباسات مباشرة وغير مباشرة في شكل حوار كما هو الحال في قوله : « فقال له ابن أرقم : (. . .) فقال له اليهودي : (. . .) فقال ابن أرقم . . . » (76) . وعندما تطرق عبد الله بن بلقين للمفاوضات التي أجراها مع مبعوث ألفونسو السادس ، قدم لنا النقاش الذي دار بينهما كما لو كان كتاباً مصرياً يسجل ما يجري في اجتماع رسمي ، بحيث نقل اقتباساً مباشراً داخل اقتباس مباشر آخر عندما قال :

« وقال لي عند ذلك رسوله : (إن كنت تريد تخلاط مع هذا المعاهدة استعانة به على شيء من بلادك التي عند ابن عباد ، فهو يجد لك فيها في وجهته هذه) فأجبتة : . . . » (76) .

وهناك مستوى نفسي ثالث يميزه البعد الشخصي والذائبي أكثر من غيره في سرد عبد الله وهو الذي يعكس في مناقشته وعرضه لنواياه ولنوايا غيره . مثلاً ، يعكس هذا المستوى في قوله : « فقلت في نفسي . . . » (77) . وعندما وصف نية ألفونسو السادس للإجرا" مفاوضات مع كل من عبد الله ومع ابن عباد وزير المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية على مستوى شخصي . كل على انفراد بهدف تشجيع عداوتهما واضعتهما (78) ، أو عندما وصف نية يوسف بن قاشفين لاحتلال إشبيلية عندما أمر المعتمد بأن يأتي إليه قائلاً ، « نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله » ، وهو يعرف مسبقاً أن الجواب سوف يكون بالنفي ليستعمل ذلك حجة لاحتلال إشبيلية (79) .

أما المستوى الرابع الذي اعتمده عبد الله ليعكس الواقع الاجتماعي والسياسي بوضوح تام فيتجلى في اتخاذه وغيره مثل يوسف ابن تاشفين قرارات سياسية مختلفة في ضوء المعلومات والنصائح التي قدمها لهم مخبروهم ومستشاروهم . مثلا وصف لنا عبد الله كيف اتخذ يوسف بن تاشفين بعض القرارات المتعلقة بسياسته تجاه ملوك الطوائف بعد أن قدم له العلماء وغيرهم آراءهم ونصائحهم بينما حصل ألفونسو السادس هو الآخر على قرارات مفصلة للأوضاع داخل دول الطوائف من المبعوثين الذين كان يكلفهم بمهام إلى ملوك الطوائف مثل بيدرو أنسوريث (Pedro Ansure) وسينندو دافيديث (Simondo Davidiz) ثم يعودون إليه بالنصائح بشأن السياسة الملائمة التي يجب اتخاذها . وبالرغم من أن النصائح والمعلومات التي قدمها مخبرو عبد الله إليه لم تكن صائبة على الدوام ، إلا أنه كان دائما يتخذ قراراته بعد مناقشتها مع مخبريه وقد عبر عن ذلك بوضوح في عدة مناسبات: « وأخبرني رسول ابن صمادح بن أرقم . . . » (80) . و « أخبرني أبو بكر بن المسكن . . . » (81) . كما كان عبد الله يستشير مع علماء غرناطة (أهل الرأي والمشورة) مثلما فعل عندما بعث ألفونسو السادس جيشه قصد تخريب دولة غرناطة الطائفية إن رفض عبد الله أداء أموال الجزية السنوية له بحيث إن عبد الله يخبر قراءه بما نصحه العلماء في هذا الموقف الحرج (82) .

لقد تمكنا من رصد بعض نقاط الضعف عند عبد الله في هذا القسم ، كما أننا تطرقنا للجوانب الإيجابية في تاريخه لغرناطة

وللمناهج التاريخية والنقليات التي اتبعتها . ومع ذلك ، يجب أن نضع هذا التاريخ في إطار الحركة التاريخية العامة في الأندلس في القرن الخامس للهجرة لأنه وإن حافظ على خصائص مميزة له ، فقد انصف بخصائص أخرى كانت تطبع التاريخ الأندلسي عامة في المرحلة التي وصل خلالها إلى عصره الذهبي ، مثلا ، تتميز الكتابة التاريخية المعاصرة لعصر الطوائف التي وصلنا بالتنوع نظرا لانصافها بالتكامل المعرفي ، وبمنهجيتها الصارمة والدقيقة ، وبالارتباط المباشر للمؤرخين والتاريخ الذي حاولوا كتابته وبانخادهم مواقف فكرية محايدة ، وبالتحليل التاريخي العميق الذي يطبع عددا من التأليف المعاصرة والذي ينعكس في نوعية الأسئلة التي طرحوها وأجابوا عنها وأخيرا بأصالتها لكونها كانت أكثر نضجا وإبداعا من الكتابات التاريخية التي ظهرت في الأندلس أو حتى في العالم الإسلامي إلى ذلك الوقت وكثير من هذه المزايا فنعكس بوضوح تام في كتابة عبد الله التاريخية وغيره من المؤرخين المعاصرين له . مثلا ، تأثر عبد الله كثيرا شأنه في ذلك شأن المؤرخين الأندلسيين المعاصرين له ، بالتعليم الإسلامي من جهة وبالثقافة العربية من جهة أخرى ، نظرا لاطلاعهم الواسع على أهم ما أنتجه المفكرون المشارقة . وينعكس هذا التأثير في تأليفهم وفي اهتماماتهم وهمومهم الثقافية فكان كل من عبد الله بن بلقين ومعاصريه الأندلسيين يعرفون الشخصيات التاريخية في إسبانيا المسيحية في القرن الخامس للهجرة كما أن كتابة عبد الله التاريخية وكتابات معاصريه الأندلسيين

كانت تفوق كل ما ظهر في الممالك المسيحية وفي أوربا عموماً في مجال التاريخ . لقد قام الدكتور طوم دروري بانجاز دراسة حول صورة ألفونسو السادس وإسبانيا في عصره عند المؤرخين العرب (83) ، فخرج بتصوير واقعي لملك ليون وقشتالة ، ولكن إذا حاولنا أن ندرس صورة ملوك الطوائف عند «المؤرخين» المسيحيين فسوف نخرج دون شك بصورة مشوهة للواقع التاريخي لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقارن بين الحوليات المسيحية التي ظهرت في شمال إسبانيا وبين الكتابة التاريخية الأندلسية في القرن الخامس للهجرة : « يمكن القول منذ البداية أن التأريخ المسيحي خلال هذه الفترة (القرن الحادي عشر للميلاد موافق الخامس للهجرة) لم يقترب من تأريخ المسلمين (في الأندلس) من حيث العدد والجودة (84) .

ونريد أن نركز على نقطة في النهاية . فمن جهة ، ربما لا تجوز دراسة عبد الله بن بلقين بصفتها مؤرخاً بدلاً من غيره من المؤرخين والفكرين الأندلسيين العظام الذين وصلت شهرتهم إلى مستوى عالمي . فلم ينل عبد الله اعتراف معاصريه من المؤرخين والمؤرخين المتأخرين عنه به عالماً عظيماً . وخلافاً لابن حيان وابن حزم ، لم ينقل المؤرخون المتأخرون كثيراً عن عبد الله كما أن هذا الأخير لم يساهم في توجيه الاتجاهات الفكرية ولم يؤثر فيها كما كان الأمر بالنسبة لبعض الأندلسيين المعاصرين له . إننا لا نجد اسمه في كتب السير والطبقات التي كانت تخصص لدراسة

أبرز العلماء الأندلسيين في القرن الخامس للهجرة بينما نجد ذكر كل من ابن حزم وابن حيان في مثل هذه الكتب وخلافا للتاريخ الضخم الذي قام ابن حيان بانجازه وخلافا لكتب ابن حزم الرائدة في ميادين متعددة، لم يصلنا عن عبد الله بن بلقين إلا مذكراته بعنوان «كتاب التبيان» وهو تأليف بقي مجهولا خلال مدة قرون ولم ينل تقدير المهتمين بالتأريخ الأندلسي في القرن الخامس للهجرة إلا نادرا وتناقض شخصية عبد الله بن بلقين مع شخصية كل من ابن حزم وابن حيان، لأنه كان يخالف ابن حيان الذي لم يتردد في انتقاد عدد من معاصريه بأشنع الأساليب وأكثرها عنفا، كما كان يخالف ابن حزم الذي كانت المجادلة تعتبر جزءا من طبيعته، بحيث إن عبد الله كان أحيانا يتخذ مواقف الاستسلام التام أمام التحديات التي واجهته فالقاري كثيرا ما ينأسف عليه كما هو الشأن عندما قدم لنا وصفا عن الحالة التي فقد فيها سيطرته التامة على تطور الظروف السياسية والعسكرية بسرعة مذهلة في غرناطة بحيث استولى عليها جيش المرابطين فحرره من ثقل كان يفوق كل طاقته. إن مقدرة عبد الله الفكرية ورصيده الثقافي كانا محترمين كما أن بلاغة أسلوبه نالت إعجاب شخصيات أدبية ونفوية بارزة، إلا أن مقارنة معرفته وثقافته بمعرفة كل من ابن حزم وابن حيان يعتبر ضربا من العبث وضماح الوقت. ومع هذا، فإن عنصر الاختلاف في «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين هو

بالذات الذي يعكس بوضوح مدى التنوع في التأريخ الاندلسي في القرن الخامس للهجرة .

إن هذا الكتاب فريد من نوعه الى درجة أننا لا نجد ما يماثله في العالم الاسلامي بل وفي أوروبا خلال الحقبة التي ظهر فيها، بالرغم من وجود بعض العناصر التي كان يتميز بها .

لقد شكل هذا الكتاب محاولة رائدة لإنجاز نوع جديد من الكتابة التاريخية بحيث لم تظهر في التاريخ الأوربي إلا بعد تلك الحقبة بقرون . وخلافا لغيره من المؤرخين ، كان عبد بن بلقين ملكا طائفا في الوقت ذاته وقد مكنته هذه الخاصية من وضع تأليف طبعه البعد الشخصي بكيفية فريدة وأعطاه تلقائية وطلاوة خاصة ، نتيجة معرفته العميقة بأحداث القرن الخامس للهجرة وتطوراته التي لم تتوفر عليها عدد من المؤرخين المعاصرين له ، علاوة على ما نتمتع به من فهم عميق وقدرة متميزة على تحليل الأوضاع لم يتمكن من تحقيقها إلا بفضل معرفته لها بواسطة ممارسته للحكم على غرناطة ، فإن ما نجده من ثغرات في مؤلف عبد الله ابن بلقين وما ينفرد به من مميزات كان ذلك لا يخلو منها التأريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري عامة ما دام « كتاب الشبان » نموذجاً من هذا التأريخ .

الهوامش

(1) لقد اثارت منهجية ابن حيان التاريخية اهتمام عدد من المثقفين العرب والغربيين . وفيما يلي بعض الدراسات التي عالجت هذا الموضوع :
« ابن حيان وتاريخه لاسبانيا الاسلامية » لنشور أنطونيا :

Malchor M. Antuna, Ibn Hayyán y su historia de la España musulmana, Cuadernos de Historia de España, IV (1945), pp. 5-71.

وراجع أيضا المقدمة الطويلة الممتازة التي وضعها الدكتور محمود علي مكي للقسم الذي قام بتحقيقه من «المقبس» لابن حيان :
خلف بن حيان «المقبس من أدب» اهل الأندلس» تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، 1873 ، ص . 7 - 159 .

(2) إننا لا ننكر أهمية التأثير الثقافي والعسكري الشرقي في الأندلس والمغرب ، إلا أن الاتجاه المعاكس هناك هو الآخر ذا أهمية لا يستهان بها .

مع أنه لم يدل ما يستحبه من اهتمام المؤرخين المتخصصين في تاريخ الثقافة الاندلسية .

لقد عبر الدكتور خوان برنيت عن هذه الفكرة بوضوح قائلا : « لم ينجح تأثير الفكر الاسباني نحو الغرب فقط ، بل كان له أثر واضح في إفريقيا الشمالية والمشرق - مع أن هذا التأثير ذل اهتمام الدارسين أقل من الاتجاه المماكس - سوا من الناحية الادبية او من الناحية العلمية . سوف نكتفي بذكر بعض الامثلة :

نشأ الزجل في سرقسطة وتلور في قرطبة ثم صدر إلى العراق
فلما بتعريب هذا النص الوارد بالاسبانية في كتاب « الثقافة الاسبانية - العربية في الشرق والغرب » لخوان برنيت :

Juan Vernet, Lo cultura hispano árabe en Oriente y Occidente, Barcelona 1978, p. 8.

3) حول مكتبة الحكم الثاني راجع مثلا الاستاذ عنان الذي نقل عن ابن حزم وابن حبان وغيرهما (محمد عبد الله عنان ، «دولة الاسلام في الأندلس» ، ج 2 ، القاهرة ، 1960 ، ص 456 - 467) .

4) يعتبر تأليف الفرضي ذا أهمية كبرى ، ولكن نظرا لكونه اتخذ أسلوبا مركزا جدا ، لم يتم إلا باختيار أهم المعلومات المرتبطة بتراجم العلماء الذين وقع اختياره على دراستهم . (ابو الوليد عبد الله الفرضي ، «تاريخ علماء الأندلس» ، القاهرة ، 1966 ، ص 1) .

وراجع أيضا ابن يشكوال ، «مختاب الصلة . . .» في جزئين ، تحقيق عزت العطار الحسني ، القاهرة ، 1955) .

5) راجع مثلا ابو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، القسم الثاني ، ج 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، 1976 ، ص 11 - 12 .

(6) لقد اعتمد ابن حيان على مصادر معاصرة ومباشرة في كتابه «الأتين». وحول المصادر التي اعتمدها في كتابه «المقتبس» راجع التسم الذي يحمل عنوان «مصادر معلومات ابن حيان» في مقاله «ابن حيان وتاريخه لاسبانيا الاسلامية» لانطونيا :

Melchor M. Antona. Abn Hayyán y su historia de la España musulmana
Op. Cit., pp 34-63.

(7) فيما يخص بعض الاحكام التي عبر عنها المستشرقون حول التاريخ عند ابن حيان راجع الفصل الاول من هذا الكتاب ، ص . 49 والعامش رقم 62 في الفصل نفسه ، ص . 80 .

(8) «الدورخون والجغرافيون الاندلسيون» 800 - 1450 م» فرانثيسكو بونس بويخيس .

Francisco Pons Buigas, Los historiadores y geografos arabigo - espanoles,
800 - 1450 A.D., repr., Amsterdam, 1972, pp- 160 - 164 .

(9) حول التاريخ الثقافي في الاندلس في القرن الخامس الهجري راجع مثلاً اضروحة لنيل شهادة الدراسات العليا عنوانها «الحياة الثقافية باسبانيا الاسلامية في عصر ملوك الطوائف (القرن 11 م)» ل محمد بن عبد السلام :

Mohammed Ben Abdesslem, La vie intellectuelle dans l'Espagne musulmane
sous les muluk al-Tawakif (XIe siècle), thèse inédite de D. E. S, Université de
Paris III, 1971 .

(10) لقد كان وعي العامة الاندلسيين باتصانهم إلى حركة ثقافية شمولية واضحاً كما نلاحظ وجود علاقات فيما بينهم بلغت أحياناً درجة الصداقة القوية . مثلاً ، يعتبر ابن حيان من اصداق ابن حزم كما كان للآتين علاقة بالشاعر ابن شهيد والجغرافي البكري ، ومن جهة اخرى ، انتعش الجميع بالانتاج الثقافي الذي ميز ذلك العصر وكانت ردود فعلهم إزاء التطورات المختلفة تظهر في مواقفهم الخاصة تجاهها . ويظهر ذلك بوضوح تام في جدوال ابن حزم الفقهاء المالكيين واليهود الاندلسيين ، وسلم هذا الاتجاه كثيراً في

تشجيع تطور المواقف النقدية في عدة مجالات معرفية . مثلاً ، حول تيار النقد الأدبي خلال تلك الفترة راجع الدكتور مصطفى عليان عبد الرحمان ، «تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري» ، بيروت ، 1984 .

(11) نقل المقرئ نصوصاً عن أبرز العلماء الأندلسيين الذين كانوا يدافعون عن القيم الثقافية والحضارية الأندلسية كما تطرق للهجومات المضادة لهذا التيار من المغرب والمشرق . ومن بين الأندلسيين الذين دافعوا عن ثقافتهم نذكر ابن هشام والحبيدي وابن سعيد وابن حزم والشقندي (أحمد المقرئ ، «فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» ، ج 3 ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، 1967 ، ص 150 - 222) . وتستحق هذه الرسائل في محاسن أهل الأندلس المزيد من الدراسة والتحليل .

(12) يتميز الإنتاج الثقافي الأندلسي لهؤلاء العلماء والمفكرين خلال تلك الحقبة التاريخية بمستواه الرفيع وبكثرة المؤلفات في ميادين مختلفة تتراوح بين التاريخ والجغرافيا والفقه والأدب .

(13) يتشمل تفوق العلماء القرطبيين خلال القرن الهجري الخامس في أسما لامعة مثل ابن حزم وابن حيان وابن زيدون . وقد استطاعت قرطبة بالرغم من التخريب الذي أصابها خلال تلك الفترة وبالرغم من الازدهار الذي تمتعت به بعض المدن الأندلسية الأخرى ، خصوصاً إشبيلية ، أن تعانق على قنولها الثقافي على سائر المدن الأندلسية . حول هذه المدينة بصفة عامة راجع د. عبد العزيز سالم ، «قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس» ، في جريدة «بيروت» ، 1972 وخصوصاً «بنو جهور بقرطبة» للدكتور خالد الصوفي :

Khaled Soufi, Los Banú Yahwar en Cordoba, 1031 - 1070, Cordoba, 1968.

كما هناك دراسة حول تاريخ قرطبة الاقتصادي في القرن الخامس للهجرة

الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف :

«قرطبة الإسلامية في القرن العاشر - الخامس الهجري ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية» ، تونس ، 1984 .

14] حول التعليم في الأندلس راجع الدكتور عبد الحميد عيسى ،
«تاريخ التعليم في الأندلس» ، القاهرة ، 1972 (راجع ص . 167 - 172 حول
التعليم في عصر ملوك الطوائف) . شكلت هذه الدراسة في الاصل أطروحة
لنيل درجة الدكتوراه قدمها صاحبها في جامعة مدريد (Autonoma) سنة 1970 .

15] مثلا ، تعكس بعض الاقسام في اعمال مثل «طوق الحماية» لابن
حزم و «كتاب التبيان» لعبد الله بن بلقين البيئة التي عاش فيها مؤلفي
الكتابين المذكورين بوضوح تام .

16] بعد مقارنة الدكتور محمود علي مكي للآراء المختلفة حول هذه
القضية وصل الى استنتاج وهو ان «البطشة الكبرى» لابن حبان كان يشكل
كتابا مستقلا في اصله (خلف ابن حبان «المقتبس . . .» ، تحقيق د. محمود
علي مكي ، بيروت ، 1973 ، ص . 70 - 72) .

17] لقد ضاع عدد من المؤلفات التي انتجها الاندلسيون خلال القرن
الخامس للهجرة والبعض الآخر لم يصلنا منه سوى جزء قليل ويبدو ذلك واضحا
مثلا في كتاب «المؤرخون والجغرافيون» لفرانشيسكو بونس بويغيس :
Francisco Pons Boigues , Los historiadores y géógrafos árábigo - espanoles
800 - 1450 A. D. . . . repr. , Amsterdam , 1972 .

18] مثلا ، لقد ضاعت مؤلفات المؤرخ البلسي ابن علقمة إلا اننا تتوفر
على نصوص رائعة منها حول احتلال السيد بلنسية والمقاومة الاندلسية الطويلة
التي قادها الفقيه ابن جفاف وذلك من خلال الاقتباسات التي نقلها ابن
الكرديوس في «كتاب الاكتفا» (أبو مروان عبد الملك بن الكردوبوس ،
«كتاب الاكتفا» المنشور في كتاب «تاريخ الأندلس لابن الكردوبوس
ووصفه لابن الشباط» ، تحقيق د . احمد مختار العبادي ، مدريد ، 1971 .
ص : 37 - 38 و 103 - 104 . وحول ابن علقمة راجع كتاب «السيد» شخصية
تاريخية وادبية» لميكل دي إبالسا :

Mikel de Epalsa et Suzanne Guellouz , Le Cid , Personnage historique et
littéraire , Paris , 1983 , pp. 36 - 38 .

- (19) أبو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة في معاني أهل الجزيرة» ،
القسم الأول ، ج . 1 ، تحقيق د . إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، ص . 167 .
- (20) أبو الحسن علي بن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الثالث ، ج . 1 ،
المصدر السابق ، ص 137 و «الذخيرة» ، القسم الثاني ، ج 1 ، المصدر السابق ،
ص . 88 .
- (21) عبد الواحد المراكشي ، «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ،
تحقيق محمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 ، ص . 125 - 126 و أسات
الدين بن الخليل ، «أعمال الاعلام . . .» ، تحقيق إفا رست ليفي برونفصال ،
الرباط ، 1934 ، ص 187 .
- (22) حول المساهمة الثقافية والحضارية للعلماء الأندلسيين خلال القرن
الخامس للهجرة راجع القسم الأول من الفصل الثالث من هذا الكتاب .
- (23) مثلاً ، أنظر الرسائل التي بعثها الفقيه الهوزني إلى المعتضد بن
عباد (ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الأول ، ج . 1 ، المصدر السابق ،
ص . 84 - 89) .
- (24) د . أمين توفيق الطيبي ، «دراسة حول الأمير عبد الله بن بلقين
آخر ملوك بني زيري في غرناطة» ، «مجلة كلية التربية» ، (جامعة الفاتح) ،
رقم 7 ، (1976 - 1977) ، ص . 114 و عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ،
تحقيق إ . ليفي برونفصال ، القاهرة ، 1965 ، ص . 208 - 210 .
- (25) لقد درس ابن بسام ابن حزم بصفته شاعراً في إطار مجموعة
الشعراء المعاصرين للقرن الهجري الخامس الذي تطرق لهم («الذخيرة» ، القسم
الأول ، ج . 1 ، المصدر السابق ، ص . 167 - 180) .
- (26) مثلاً ، لم يتلمذ ابن حبان للورخين ولكننا نجد نقهاً ونحوه من
من بين أساتذته ومنهم الفقيه عمر بن حسين الأموي القرطبي والنحوي والنحوي
أبي عمر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحبيب القرطبي والشاعر والنحوي

- المشهور سعيد بن الحسن الربيعي البغدادي (أبو مروان حيان بن حيان)
 « المتقوس... » تحقيق د. محمود علي مكّي ، مدريد ، 1978 ، ص. 21 - 28.
- (27) مثلاً ، لقد ركزت جلّ البحوث التي قدمت لمؤتمر ابن حيان
 الذي انعقد في الرباط سنة 1980 على البعد الأدبي عند ابن حيان بدلاً من
 بعده التاريخي . (نذكر على سبيل المثال « أبو مروان ابن حيان أديبا
 وكتابيا ، للدكتور حازم عبد الله حضر و « منهجية ابن حيان في تأريخ الأدب
 ونقده » للدكتور محمد مفتاح (« المناهل » ، رقم 29 (1984) ، ص. 183 - 206).
- (28) ذكر الدكتور الطيبي ما نقله عبد الله بن بلقين من آيات قرآنية
 وأحاديث ليؤكد معرفته الواسعة (د. امين توفيق الطيبي ، « دراسة حول
 الأمير عبد الله بن بلقين... » ، المرجع السابق ، ص. 115) .
- (29) مثلاً ، اهتم عبد الله بن بلقين بالتنجيم (عبد الله بن بلقين ،
 « كتاب التبيان » ، المصدر السابق ، ص. 170 - 171) . أما ابن حزم فقد
 وضع تصنيفاً للعلوم قام الدكتور يفوت بدراسته (سالم يفوت ، « تصنيف العلوم
 لدى ابن حزم » ، « مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية » ، الرباط ، (1982) ،
 رقم B ، ص. 58 - 91 .
- (30) يعتبر « كتاب الصلة » لابن بشعوال بالأجاء أهم مؤلف حول
 العلماء الأندلسيين في القرن الخامس للهجرة ، ولكن يجب وضع هذا الكتاب
 في إطار التقليد الأندلسي في إنجاز كتب الطبقات التي ما زالت بحاجة إلى
 الدراسة والتنقيب .
- (31) حول البكري وكتابه « المسالك والممالك » راجع المقدمة التي
 وضعها الدكتور عبد الرحمن علي العجبي . (أبو هيب البكري ، « جغرافية
 أوروبا من كتاب المسالك والممالك » ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي
 العجبي ، بغداد ، 1968) .
- (32) لقد اعد الأستاذ بيلاط على أهمية هذا الكتاب قائلاً : « ... بالرغم من
 المدة التي مرت على نشره » ما يزال مفيداً جداً وما يزال يعتبر قصة الانطلاقة
 للبحث في التاريخ الأندلسي » :

... the *Ensayo bio - bibliográfico* of Pons Boigues, which despite its age is extremely useful and remains the starting point of research into Andalusian historiography". (Charles Pellat, *The Origin and Development of Historiography in Muslim Spain*, in *Historians of the Middle East*, ed. by Bernard Lewis and P. M. Holt, London, 1962, p. 118).

33) اتخذ الاندلسيون نفس الموقف بشأن هذه القضية بحيث تغلوا عن الخلاقات التي كانت تفرقهم . ومع ذلك ، فقد تهجم ابن حزم على الاندلسيين الممارزين انه واتهمهم بفشلهم في تقدير فكره خلافا للمشاركة وذلك في ابيات شعرية (ابن بسام ، «الذخيرة» ، القسم الاول ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص 173 .

34) ومع ذلك لا يمكن اعتبار التاريخ السياسي سطحيا إلا إذا كانت معالجته سطحية .

35) ابو القاسم خلف بن بشكوال ، «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ...» ، في جزئين ، تحقيق عزت المطار الحسني ، القاهرة ، 1966 ، و ابو عبيد الله محمد بن الأبار ، «التكملة لكتاب الصلة» ، تحقيق فرانثيسكو كودرا ، مدريد ، 1868 .

36) ابو محمد عبد المجيد بن عبدون ، رسالة في القضاء والحسبة المنشورة في كتاب :

Trois traités hispaniques de hisba: Documents arabes sur la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen Age, ed. par. E. Lévi-Provencal, le Caire, 1955, pp. 3 - 65

37) ابو محمد علي بن حزم ، «طوق الحمامة في الالفة والالاف» ، تحقيق فروق سعيد ، بيروت ، 1972 .

38) مثلا راجع مقالة الدكتور الطيبي حول سيرة المعتمد من خلال شعره (الدكتور امين توفيق الطيبي ، «المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سيرته وشخصيته من خلال شعره» ، في مجلة كلية التربية ، (جامعة الفتح) رقم 3 ، (1977 - 1978) ، ص : 69 - 76 .

(39) أهل أحسن دراسة لـ «كتاب التيهان» هي تلك التي أنجزها الدكتور أمين توفيق الطيبي بعنوان «دراسة حول الأمير عبد الله...» المرجع السابق.

(40) إن عدد الدراسات الاقتصادية حول الأندلس محدود. راجع مثلاً «جوانب اقتصادية لاستسلام ملوك الطوائف» للدكتور خوسي ماريلا لا كيارا: Jose Maria Lacaria, Aspectos económicos de la soumission de los reinos de taifas (1010 - 1102), in Homenaje a Jaime Vicens Vives, tomo 1, Barcelona, 1965, pp 255 - 277.

وراجع الفصل الثاني من هذا الكتاب حول الاتجاهات الاقتصادية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف. وهناك دراسة اقتصادية طريفة حول قرطبة في القرن الهجري الخامس تتميز باستغلال صاحبها للنوازل الفقهية (الدكتور محمد عبد الوهاب خلاق، «قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر...» تونس، 1984).

(41) راجع مقالة الدكتور أحمد جبار حول رياضيين أندلسيين :

Ahmed Djebbar, Deux mathématiciens peu connus de l'Espagne du XIe siècle: Al-Mu'taman et Ibn Syyid, dact., communication présentée au Colloque International de Marseille-Luminy sur les mathématiques autour de la Méditerranée jusqu'au XVIIe siècle, 16 - 24 avril 1984, 21 pages.

(42) عبد الله بن بلقين، «كتاب التيهان» المصدر السابق.

(43) Abd-Allah b. Buluggin, Les (Memoires) de Abd-Allah b. Buluggin, dernier roi ziride de Grenade, trad. au français par E. Lévi-Provençal, Al-Andalus N° 3 (1935), pp. 236-344 et N° 4 (1935-39), pp. 29-145.

(44) in Tawfiq Tibi, The Tihyan of Abd-Allah b. Buluggin Last Zirid Amir of Granada, 2 vols. Ph. D. thesis, 1971 (published in the Netherlands, Brill, 1986).

(45) E. Lévi-Provençal, et E. Garcia Gomez, El siglo onza en primera Persona, las memorias de Abd-Allah, ultimo rey zirí de Granada..., Madrid 1980;

(46) Andrew Handler, The Zirids of Granada, Coral Gables, 1974.

(37) مثلاً راجع مقالة الدكتور الطيبي حول «كتاب التبيان» :

A. T. Tibi, The Tabyan of Abd - Allah b. Buluggin..., vol.1, Op Cit.,

pp. x - xlii .

(48) لقد قدم الدكتور الطيبي تحليلاً لتدبيراً لكل حاكم من حكام

بني زيري بقرنائة .

(ibid. , pp. XXii - XXiii) .

(49) عبد الله بن بلقين « كتاب التبيان » المصدر السابق ،

ص . 89 و 95 .

(50) نفس المصدر ، ص : 76 ، 104 - 118 .

(x5) A . T . Tibi , The Tabyán of 'Abd - Alláh b. Buluggin... , vol.1,

Op. Cit. , p. XXi v.

(52) نفس المرجع ، ص . XXXii .

(53) نفس المرجع ، ص . XXXi .

(54) نفس المرجع ، ص . XXXiii .

(55) نفس المرجع ، ص . XXVii .

(56) حول تحديد التاريخ الصحيح لمعركة الزلاقة راجع المقالة التالية :

Angus Mackay and M'hannad Benaboud, Yet Again Alfonso VI,
Emperor, Lord of the Two Faiths... in Bulletin of Hispanic Studies ,
No. LXI (1984) , p- 475.

57) A. T. Tibi, The Tabyán of 'Abd - Alláh b. Buluggin... , vol.1,

Op. Cit. , p. Xlii .

(58) انجز كتاباً عنوانه « الانوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية »

إلا أنه ضاع .

(A . Tibi , The Tabyan of 'Abd - Allah b. Buluggin , vol . 1 ,

Op. Cit. , p. vii) .

- (59) نفس المرجع ، ص . vi .
- (60) عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص . 130 - 132 .
- (61) نفس المصدر ، ص . 69 و 75 .
- (62) نفس المصدر ، ص . 77 .
- (63) نفس المصدر ، ص . 161 .
- (64) نفس المصدر ، ص . 164 - 167 .
- (65) نفس المصدر ، ص . 150 - 151 .
- (66) نفس المصدر ، ص . 139 (حول نعمان الثائر) و ص . 122 - 126 (حول مفاوضاته مع مبعوث ألفونسو السادس) .
- (67) نفس المصدر ، ص . 109 (حول مسألة حصار حصن كيبط) .
- (68) صدر هذا الكتاب بهولندا عند الناشر هريل سنة 1986 .
- (69) عبد الله بن بلقين ، «كتاب التبيان» ، المصدر السابق ، ص . 69 - 177 (حول عبد الله بن بلقين) و ص . 1 - 68 (حول باقي حكام بني زيري بقرنطاة) .
- (70) نفس المصدر ، ص . 104 - 106 و 149 - 171 .
- (71) نفس المصدر ، ص . 126 .
- (72) نفس المصدر ، ص . 107 .
- (73) نفس المصدر ، ص . 126 .
- (74) نفس المصدر ، ص . 116 .
- (75) نفس المصدر ، ص . 51 .
- (76) نفس المصدر ، ص . 125 - 126 .

- (77) نفس المصدر * ص . 122 .
- (78) نفس المصدر * ص . 76 - 75 .
- (79) نفس المصدر . ص . 169 .
- (80) نفس المصدر . ص . 51 .
- (81) نفس المصدر * ص . 118 .
- (82) نفس المصدر * ص . 149 حيث أرسل بعثة تضم العلماء إلى يوسف قبل احتلال غرناطة سنة 488 هـ .
- (83) « صورة ألفونسو السادس وإسبانيا في عصره عند المؤرخين العرب »
لطوم حروري :
- Tom Drury, The Image of Alfonso VI and his Spain in Arabic Historians, unpublished Ph. D. thesis, Princeton, 1973
- (84) نفس المرجع * ص 48 .

الفهرس

- ابن أبي عامر، عبد الرحمن
. 31

- ابن بلقين، الأمير عبد الله
- 3 - 31 - 48 - 49 - 67 - 58

- 62 - 74 - 76 - 77 - 79 - 97

- 107 - 109 - 115 - 118 - 122

- 123 - 125 - 128 - 135 - 138

- 150 - 170 - 178 - 188 - 191

- 193 - 197 - 231 - 235 - 242

- 243 - 244 - 250 - 257 - 259

- ابن بلقين، تميم 116 -
. 191 - 247

- ابن الانطس، 109 - 110 -

. 112 - 186 - 198

- ابن حزم، علي 78 - 147 -

- أ -

- الاندلس 2 - 4 - 5 - 7 -

- 13 - 16 - 18 - 19 - 21 - 27 -

- 29 - 30 - 31 - 33 - 37 - 41 -

- 44 - 56 - 59 - 64 - 69 - 75 -

- 78 - 85 - 88 - 89 - 90 - 98 -

- 95 - 97 - 99 - 101 - 102 -

- 104 - 111 - 113 - 116 - 131 -

- 132 - 134 - 141 - 143 - 148 -

- 158 - 157 - 168 - 169 - 163 -

- 166 - 190 - 217 - 219 - 221 -

- 224 - 228 - 230 - 233 - 241 -

. 243 - 251 - 257

- ابن الأبار 241

- ابن أبي عامر، المنصور 97 -

- ابن جمهور، محمد 26	- 154 - 158 - 160 - 181 - 182
- ابن حمود، يحيى 81	- 183 - 184 - 185 - 186
- ابن حمود، القاسم 23	- 220 - 221 - 226 - 229
- 23 - 35	- 250
- ابن حمود، علي 22	- ابن حيان، خلف 49
- ابن حمود، محمد 24	- 50 - 51 - 58 - 56 - 57
- ابن خاقان 242	- 150 - 151 - 154 - 184
- ابن خلدون، عبد الرحمن	- 217 - 220 - 224 - 230
- 11 - 50 - 67 - 68	- 239 - 250 - 259
- ابن خلكان 149	- ابن ناشفين، يوسف 8
- ابن الخطيب، لسان الدين	- 27 - 36 - 48 - 62 - 63
- 78 - 235	- 74 - 79 - 104 - 117 - 122
- ابن طاهر 175	- 128 - 129 - 130 - 131 - 137
- ابن الفرضي 165 - 219	- 170 - 172 - 178 - 180 - 182
- ابن القصيرة 177 - 178	- 186 - 187 - 189 - 190 - 192
- 189	- 199 - 195 - 197 - 201 - 247
- ابن القلمي 181	- 251
- ابن إحسان الفقيه 198	- ابن بسام 150 - 151 - 153
- ابن سهل 118 - 117	- 155 - 160 - 163 - 164 - 174
- 191 - 192	- 177 - 179 - 185 - 219
- ابن سعدون 195	- ابن بشكوال 78 - 148
- ابن السيرمي 250	- 149 - 160 - 186 - 228 - 241

- 24 - 28 - 35 - 36 - 37 - 38 -
 - 46 - 62 - 63 - 75 - 78 - 88 -
 - 100 - 103 - 107 - 108 - 109 -
 - 110 - 115 - 116 - 188 - 144 -
 - 157 - 160 - 170 - 171 - 172 -
 - 175 - 176 - 179 - 182 - 198 -
 - 229 - 242 - 253 - 254 -
 - ابن ذو النون، القادر، 118 -
 - ابن منظور، 152 -
 - ابن الملح، أبو بصير، 178 -
 - 177 -
 - ابن النفرالة، يوسف، 28 -
 - 43 - 76 - 97 - 184 -
 - ابن النفرالة، إسماعيل، 31 -
 - ابن عباد، القاضي محمد، 23 -
 - 24 - 34 - 61 -
 - ابن عباد، إسماعيل، 22 -
 - 179 -
 - ابن عباد، المعتضد، 22 - 52 -
 - 53 - 79 - 107 - 108 - 175 -
 - 176 - 177 - 179 - 180 - 183 -
 - 184 - 189 - 228 -

- ابن شائب، 116 -
 - ابن زيدون، 154 - 177 -
 - 179 -
 - الأبرو، (نهر)، 96 -
 - الإسلام الشعبي، 158 -
 - الإسلام الرسمي، 158 -
 - الإسلام القبلي، 159 -
 - الجزيرة الخضراء، 104 -
 - أركوش، 37 - 104 - 110 -
 - المرية، 79 - 94 -
 - الفار هانيث، 58 -
 - الفونسو السادس، 17 - 23 -
 - 49 - 76 - 96 - 107 - 109 -
 - 116 - 118 - 119 - 128 - 125 -
 - 130 - 136 - 178 - 187 - 188 -
 - 189 - 190 - 195 - 196 - 197 -
 - 247 - 251 - 255 -
 - أغمات، 178 - 259 -
 - إسبانيا، 7 - 8 - 65 - 68 -
 - 74 - 75 - 87 - 95 - 99 -
 - 102 - 189 -
 - إشبيلية، 15 - 22 - 23 -

- بني أبي عامر 56 - 164 .
 - بني جهور 16 - 52 .
 - بني حمود 24 - 79 .
 - بني ذي النون 108 .
 - بني عباد 21 - 108 - 144 .
 . 177

- بني زهري 246 .
 - بني هود 180 .
 - سرفجير (القوميت) 90 -
 . 98 - 190 .
 - برشلونة 190 .
 - بلنسية 84 - 79 .
 - بطليوس 46 - 103 - 110 -
 . 129 - 196 - 254 .
 - بيدرو أنسورث 58 - 126 -
 . 266

- ت -

- التاريخ الاندلسي 142 -
 . 145 - 148 - 157 - 159 .
 - التاريخ الافدلسي 216 -
 . 216 - 217 - 233

- ابن عباد، المعتمد 28 84 -
 35 - 38 - 49 - 60 - 61 - 62 .
 107 - 110 - 112 - 113 - 114 .
 127 - 137 - 170 - 175 - 177 .
 178 - 179 - 197 - 224 - 229 .
 . 231 - 256

- ابن عذاري 149 .
 - ابن عمار 28 - 220 - 255 .
 - ابن عبدون 241 .
 - ابن عبد البر 179 - 180 -
 . 223

- ابن العلاء، أبو عمرو 164 .

- ب -

- الباجي ، أبو الوليد 148 -
 164 - 183 - 185 - 223 .
 - باديس بن حبوس 97-246 .
 - بيشتر 176 .
 - البرزالي محمد 34 -
 - البكري ، أبو عبيد 220 .
 - بني أمية 12 - 21 - 104 -
 . 145 - 173 - 215 - 229

- ر -

- رفدة 104 - 149 .
- الرويدو، (ابن العطية) 249

- ز -

- زاوي بن زدي 246 .
- الزلاقة 62 - 63 - 170 .
- 179 - 189 - 190 - 247 - 249

- ك -

- الكسائي 164 .

- ل -

- لبله 160 .
- لوشة 194 .
- ليون 247 - 258 .
- ليوسنة 81 - 249 .
- لبيط 122 - 247 .

- م -

- مائة 28 - 35 - 36 - 107 .
- 191 .
- مجاهد بن يوسف العامري
- 99 .

- ح -

- الحميري 149 .
- حبوس بن ماكسن 246 .

- د -

- دامية 99 - 107 - 109 .
- 111 - 112 - 118 - 128 - 129 .
- 130 - 132 - 133 - 139 .
- دول الطوائف 9 - 10 .
- 13 - 18 - 20 - 22 - 27 - 28 .
- 33 - 38 - 43 - 46 - 49 - 58 .
- 62 - 63 - 79 - 85 - 88 - 90 .
- 92 - 94 - 96 - 99 - 103 - 104 .
- 105 - 106 - 107 - 142 - 144 .
- 146 - 149 - 150 - 151 - 164 .
- 157 - 160 - 163 - 164 - 167 .
- 169 - 170 - 171 - 188 - 189 .
- 197 - 217 - 228 - 230 - 234 .
- 237 - 258 .

- ذ -

- ذي الوزارتين 177 - 178 .

- عبد العزيز 161 - 179 .
- ص -
- صقلية 175 .
- ط -
- طليطلة 23 - 46 - 76 - 108 .
- 107 - 108 - 109 - 117 - 136 .
- 170 - 187 - 188 .
- ع -
- العذري، أحمد بن عمر 250
- العصبية 10 - 11 - 18 - 14 .
- 20 - 21 - 26 - 33 - 39 - 40 .
- 45 - 64 - 65 - 68 - 69 .
- غ -
- الغافقي 235 .
- غرناطة 23 - 28 - 30 - 49 .
- 75 - 79 - 94 - 97 - 108 - 109 .
- 116 - 117 - 118 - 122 - 124 .
- 137 - 148 - 170 - 188 - 191 .
- 192 - 193 - 194 - 195 - 231 .
- 232 - 245 - 246 - 249 - 259 .

- المذهب المالكي 78 - 145 .
- 148 - 158 - 167 - 172 - 173 .
- 182 - 183 .
- المذهب الظاهري 42 -
- 183 - 184 .
- المذهب الشافعي 78 .
- مراکش 253 .
- المرية 196 - 253 .
- مكة 175 .
- مضيق جبل طارق 189 .
- المغرب 1 - 8 - 95 - 158 .
- 166 - 172 - 193 - 217 - 221 .
- مصر 175 .
- المقرئ 149 - 160 .
- المشرق 8 - 166 - 184 .
- 217 - 218 - 220 .
- المهدي، محمد بن عبد الجبار
- 55
- مورورو 110 .
- ميورقة 183 .
- ن -
- النمرى، أبو محمد بن

- السيد زدرينو ديات 34 -
90 - 106 .
- سيسندو داغيديث 58 -
79-256 .
- سرقسطة 63 - 79 - 103 -
122 .
- سورية 175 .
- سردينيا 99 -
- ش -
- شلب 37 - 176 - 179 .
- الشقندي 220 .
- ه -
- العوزني، الفقيه 175 -
178 - 188 - 228 - 282 .

- ف -
- الفيري الفقيه 148 .
- ق -
- قرمونة 37 - 61 - 104 -
108 - 198 .
- قرطبة 23 - 28 - 31 - 33 -
55 - 61 - 100 - 157 - 160 -
182 - 191 - 198 - 222 - 224 -
242 .
- قشالة 107 - 119 - 130 -
247 - 258 .
- س -
- سبتة 191 .
- سيبيويه 164 .

فهرس الخطأ والصواب

الصواب	ص من الخطأ	الصواب	ص من الخطأ
البربري - البربرية	11 64	الطريقة	8 4
ليم	14 68	موقفاً	2 5
يمتر	18 69	الخامس	1 6
reconquisitè	4 86	المستوى	15 7
inquisition	7 65	linear	11 11
إلا في اشتراك رأينا	8 68	neo-tribal societies	4 17
Dary	83 66	فأيرغم	12 17
l'époque	10 69	كان	15 17
remarquable	19 69	كانت	7 18
éthniques	20 68	كانت	7 18
agnatique	26 69	ألقى	12 24
ou	9 70	ألقى	2 29
chrétienne	11 70	على	6 31
Coloqiu	11 70	التوط	4 32
classique	23 70	التوط	6 32
تدرجية	22 71	رودريغو	21 34
والديانواتو	28 71	الميلد	15 36
religion	14 78	من	16 40
fin	15 78	عامة قرطبة	13 43
Edinburgh	23 78	المسلمين	3 44
Consideraciones	21 78	محرركة	5 46
داقديت	26 79	العصبة	15 48
estu	9 80	باين حبان	6 50
Asin	17 80	نقل عنه	8 51
		النبة في بوضوح	14 51

الصواب	ص من الخطأ	الصواب	ص من الخطأ
تخيط	تخيط 21 128	utilica	utilica 18 80
جماعة	جماعة 7 127	emprunté	emprunté 22 80
ولكن	ولكن ولكن 2 128	l'esprit	l'esprit 22 80
ممر	ممر 4 130	document	document 17 82
حده	حده 8 131	époque	époque 21 82
Glick	Glick 2 133	Reconquete	Reconquete 21 82
nédits	nédits 2 134	nouveau	nouveau 23 82
Comperativa	Comperativa 7 134	époque	époque 25 82
Menendez	Menendez 13 134	confuse	confuse 26 82
frontéro	frontéro 3 135	منا	من 18 85
grandeur	grandeur 2 135	الاستقرار	الاستقرار 7 89
musulmanes	musulmanes 11 136	Boenguer	Boenguer 7 90
espanoles	espanoles 12 136	معرضة	موقعة 17 90
Influence	Influence 5 135	بصفتها	بصفتها 19 93
l'islam	l'islam 5 135	إلى	إلى 18 94
Europe	Europe 5 135	Mendoza	Mendoza 11 98
l'anglais	l'anglais 6 135	في	في في 9 98
Humbert	Humbert 4 135	بينها	بينها 19 100
النادية	النادية 10 144	رسائل	رسائل 2 101
doctrina	doctrina 4 145	من	من من 12 102
البنائيات	البنائيات 5 145	إلا	إلى 12 10
الجمود	الجمود 8 148	Alared	Alared 4 112
Palacios	Palacios 16 147	الثروة	الثروة 2 118
البيروني	البيروني 1 148	عن	عن 11 119
المختصين	المختصين 26 150	reconquista	reconquista 12 119
حظيت	حظيت 7 151	مبنى على	مبنى 13 119
حظيت	حظيت 13 151	وهو	وهو 1 120
كندا خلفها	كندا خلفها 1 153	infancon	infancon 14 120
فرع	فرع فرع 4 154	وبأ	وبأ 8 121
مدين	مدين 2 155	أبرط	أبرط 9 121
مدمجة	مدمجة 11 158	الموثوقة	الموثوقة 19 123

الصواب	ص من الخطأ	الصواب	ص من الخطأ
siécles	Siécles 18 201	ظاهرة	ظواهرات 4 160
E. Fegnan	E'Fegnar 17 202	يقروون	يقروون 20 160
زهزي	زهزي زهزي 22 203	الملاح	الملاح 8 185
كلا	كلا 5 204	يتشعرون	يتشعرون 9 168
أبو	أبو 4 204	دو	دو 20 160
فصيف	فصيف 15 206	أعدت	أعدت 5 168
Urvoý	Vrvoy 7 208	التقوية	التقوية 1 171
التقويد	للتقويد 22 207	في	في في 1 173
إلا	إلى 3 213	المعتضد	المعتضد 14 175
استغلال	استغلال 6 213	الذي صعد	الذي إلى 16 177
الطبيعة	الطبيعة 14 225	للمعتضد	للمعتضد 7 180
ويبدو	ويبدو 6 226	الذين	الذين 15 181
لأبته	لأبته 17 226	قتلوا	قتلوا قتلوا 4 184
أأدني	أأدني 5 229	يستقطب	يستقطب 11 184
قازلا	قازلا 16 229	ابن حزم	ابن بسام 3 185
وملتزمين	ملتزمين 16 236	الاديان	الاديان الاديان 12 196
تجرر المتخصصين	() 19 238	عن	عن عن 14 188
(أ) المؤرخ	(أ) إن المؤرخ 13 237	كما	كما 20 187
Andrew	Andreur 15 245	Reconquista	Reconquista 8 188
Handler	Hantor 16 245	تبدو	تبدووا 2 182
لخصر	لخصر 13 246	موجودين	موجودين 9 182
عبد الله	عبد 19 246	الصنف	الصنف 19 193
التفسيحة	التفسيحة 13 247	ظاهروا حان	ظاهروا 16 188
شرعية	شرعية 11 248	Polémiques	Polémiques 20 200
عدد عن	عدد 9 249	البيهي	البيهي 26 200
الحامس	الحامس من 16 250	Alfoqui	Alfoqui 7 201
به بصفته	به 17 208	العليا	العليا 14 201
staring	staring 2 268	Elvira	El Vira 1 201
Nederlands	Netherlands 28 280	Fin	Fin 6 201

Sl. No.	Name of the Candidate	Roll No.	Grade	Percentage	Remarks
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50

هذا الكتاب

يتطرق هذا الكتاب الى جوانب مختلفة من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في الاندلس خلال عهد دول الطوائف (القرن الخامس الهجري) الحادي عشر الميلادي).

تطرق المؤلف في الفصل الاول للمصيبة والملاقات الاجتماعية فحاول أن يثبت أن المجتمع الاندلسي لم يتميز بالمصيبة في القرن الخامس للهجرة وأن هناك قوى اجتماعية واقتصادية أخرى كانت بارزة سواء في البنية الاجتماعية أو في إطار العلاقات بين دول الطوائف كما لاحظ غياب المصيبة في إطار مواقف أبرز المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة التاريخية.

وقام المؤرخ بدراسة الاتجاهات الاقتصادية في الاندلس في الفصل الثاني وتطرق لطبيعة العلاقات الاقتصادية بين دول الطوائف وبين الممالك المسيحية في شمال إسبانيا مركزاً على دور الجزية المالية التي كان يفرضها المسيحيون وعلى رأسهم الفونسو السادس ملك قشتالة وليون على ممالك الطوائف. وأدت سياسة الفونسو فعلاً الى إضعاف ممالك الطوائف سياسياً وعسكرياً والى انقراض الاقتصاد. كما تطرق للمواقب الاقتصادية لهذه الاتجاهات على المستوى الداخلي في دول الطوائف.

أما الفصل الثالث فيتجلى الجديد فيه أساساً في كون المؤلف حاول أن يعدد المواقف السياسي للعلماء الاندلسيين من ملوك الطوائف وقبوله من مواقف فردية متنوعة ومتعددة الى موقف موحد مهادي لهم بعد أن أصبح الفونسو السادس يهدد ملوك الطوائف بإدماج ممالكهم في مملكته وبعد ظهور يوسف بن تاشفين بصفته متصرفاً قادراً على قيادة الاندلسيين ضد المسيحيين وقادراً على توحيد صفوفهم في إطار شرعي.

وأخيراً يظهر الجديد في الفصل الرابع حول التاريخ في الاندلس في تحليل المؤلف لابرار عناصر الظروف التاريخية التي مكنت التاريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري الذي كان يتسم أساساً بالتنوع والابداع من امتحانه اتجاهات جديدة قادته الى أوجه وتطرق المؤلف لمثال عهد الله بن بلقين مؤرخاً ليوبرر أهم العناصر التي ميزت كتابته التاريخية مثل اليمد الذاتي والشخصي في منهجيته التاريخية.

الثنى - 70 درهماً

رقم الإيداع القانوني : 1987/861

طبع غلاف هذا الكتاب بمطابع الشيوخ «ديسبريس» - تطوان

